AL-ITHNAINYA
الاثنينية
منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عزيز ضياء

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الاثنينية

(٢٦)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عزيز ضياء

الجزء الأول

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدة

ⓒ عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ضياء ، عزيز

الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء ./ عزيز ضياء .- جدة ١٤٢٥هـ

٥ مج ٢٦٠٨ص (الجزء الأول ٤٤٨ ص) ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٢٦)

ردمك ٤-٦٢٦-٤٦-٩٩٦٠ (مجموعة)
٢-٦٢٧-٤٦-٩٩٦٠ (ج ١)

١ - زاهد ، عزيز ضياء - المؤلفات الكاملة أ- العنوان .

ديوي ٨١٠,٨ ٥٦٦٠/ ١٤٢٥

رقم الإيداع : ٥٦٦٠/ ١٤٢٥

ردمك ٤-٦٢٦-٤٦-٩٩٦٠ (مجموعة)
٢-٦٢٧-٤٦-٩٩٦٠ (ج ١)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ — ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة

الأديب الأستاذ عزيز ضياء

الإهداء

بمناسبة اختيار

مكة المكرّمة عاصمة للثقافة الإسلامية

لعام ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م،

أهدي هذا العمل لمؤلفي

"وحي الصحراء":

والدي

محمد سعيد عبدالمقصود خوجه

و رفيق دربه

عبدالله عمر بلخير

–يرحمهما الله –

فهرس

الأعمال الكاملة

المقدمة ١١
كلمة الناشر ١٥
الإصدارات ٢١
السيرة الذاتية ٢٥
المقدمة ٣١
الجزء الأول
قمة عرفت ولم تكتشف – عناقيد الحقد – مسرحية الأغلال – وقفات مع الفن والجمال والحب – كان القلب يقول ٤٣ – ٤٤٨
الجزء الثاني
حصاد الأيام ٥ – ٣٠٠
الجزء الثالث
مع الحياة ومنها ٥ – ٣٨٨
الجزء الرابع
مقالات منوعة في الفكر والمجتمع ٥ – ٧١٦
الجزء الخامس
حياتي مع الجوع والحب والحرب ٥ – ٧٥٦

فهرس المحتويات

المقدمة ....
كلمة الناشر ....
إصدارات كتاب الاثنينية ....
السيرة الذاتية ....
المقدمة ....
حمزة شحاتة قمّة عُرفت. . . وَلم تكتشف! ....
المقدمة ....
كلمة الختام. . . ..
عناقيد الحقد ....
عناقيد الحقد (١) ....
عناقيد الحقد (٢) ....
عناقيد الحقد (٣) ....
عناقيد الحقد (٤) ....
عناقيد الحقد (٥) ....
عناقيد الحقد (٦) ....
عناقيد الحقد (٧) ....
عناقيد الحقد (٨) ....

عناقيد الحقد (٩) ....
عناقيد الحقد (١٠) ....
عناقيد الحقد (١١) ....
عناقيد الحقد (١٢) ....
عناقيد الحقد (١٣) ....
مسرحية الأغلال ....
الفصل الأول المنظر ....
الفصل الثاني ....
الفصل الثالث ....
الفصل الرابع ....
وقفات مع الفن والجمال والحب ....
آراء في الفن والجمال ....
كان القلب يقول ....
فهرس المحتويات ....

المقدمة

لقد ازدهرت «الاثنينية» وواصلت مسيرتها وهي تمتح من معين النور في مكة المكرمة مستلهمة فضائل أم القرى من موقع انعقاد فعالياتها بجدة «بوابة الحرمين الشريفين». . وكان لا بد لهذا القرب الجغرافي من إلقاء ظلاله على ما يمكن أن يقدمه هذا المنتدى في مناسبة تاريخية مثل اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية، وإن كانت مكة المكرمة دائماً وأبداً موئل العطاء وإشعاع الثقافة والفكر منذ نزول «اقرأ» بغار حراء على سيد الخلق وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ.

والحمد لله الذي ألهمني التوجه إلى بر والدي، وصديق عمره معالي الشيخ عبد الله بلخير «رحمهما الله». . . ذاكراً فضل معاليه عليَّ بالتوجيه والرعاية في دروب الحياة المختلفة. . فقد غرسا في نفسي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حب الكتاب. . . وكانت البذرة التي أخرجت ما تيسر من السنابل والحبوب كتابهما القيم (وحي الصحراء) الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٣٥٥هـ، بصفته أول عمل أدبي معاصر يرصد جانباً من نتاج أدباء الحجاز بتراجمهم ونماذج من أعمالهم. . وقد أعادت «تهامة» طباعته للمرة الثانية عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وكان من فضل الله بما أفضلت به «تهامة» في قمة عطائها إصدار كتاب «محمد سعيد عبد المقصود خوجه حياته وآثاره» للأستاذ الدكتور محمد بن

سعد بن حسين، من سلسلة الكتاب العربي السعودي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.. ثم شرفت بإصدار سلسلة [كتاب الاثنينية] كرافد يوازي [سلسلة أمسيات الاثنينية] وتحت مظلته صدر كتاب «عبد الله بلخير شاعر الأصالة والملاحم العربية والإسلامية» للأستاذ محمود رداوي، في طبعاته: الأولى عام ١٤١١هـ/١٩٩١م، والثانية ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، والثالثة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.. وأردف بكتاب «عبد الله بلخير يتذكر» للدكتور خالد باطرفي (ط١ ـ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ثم كتاب «الغربال» للأستاذ حسين الغريبي (ط١ ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).. ثم كتاب «الأعمال الكاملة للشاعر أحمد إبراهيم الغزاوي» الذي صدرت طبعته الأولى في ستة أجزاء (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).. وكتاب «المجموعة الكاملة لآثار الأديب السعودي محمد سعيد عبد المقصود خوجه» للأستاذ حسين الغريبي (ط١ ـ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ـ وبين هذه الإصدارات وبعدها ـ أصدر [كتاب الاثنينية] مجموعة أخرى، إلا أن التي نوهت عنها ذات ارتباط مباشر بكتاب «وحي الصحراء» الذي استلهمت منه فكرة الأعمال الكاملة لكل أديب أسهم فيه بأنموذج من أعماله.

وبدأت مرحلة شاقة من البحث، وحصر الأعمال، التي كان معظمها متناثراً أو لدى الورثة الأفاضل الذين حافظوا عليها مشكورين، واستجابوا للإعلانات التي نشرتها في مختلف الصحف، إلى أن تجمعت حصيلة طيبة خضعت لمعايير صارمة من المراجعة والتدقيق أثناء مراحل الطباعة المختلفة... وقد أكرمنا الله عز وجل بطباعة هذه الكتب التي تقدمها «الاثنينية» بكل اعتزاز بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية ما بين عامين وعام من المناسبة المذكورة، وظلت في المستودعات لترى النور وتتلازم مع هذه الفعاليات.. ويسعدنا تقديم:

ـ الأعمال الكاملة للأستاذ حسين سراج (١٠ أجزاء).

ـ أخبار مكة للأزرقي (جزءان في مجلد واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحميد عنبر (جزء واحد).

ـ الأعمال الشعرية والنثرية للأديب الشاعر الأستاذ أحمد العربي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء (٥ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الوهاب إبراهيم آشي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان (٧ أجزاء).

ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأديب الأستاذ محمد صالح باخطمة (جزء واحد).

ـ الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة للأستاذ محمد إسماعيل جوهرجي (٥ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان علي (٤ أجزاء).

ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأستاذ مصطفى زقزوق (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأستاذ إبراهيم أمين فودة (٤ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد عمر عرب (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب عبد الله عبد الرحمن الجفري (٤ أجزاء).

ويلاحظ القارىء الكريم أن هناك أعمالاً لم تكن ضمن كتاب «وحي الصحراء» إلا أن أصحابها الأفاضل لهم ريادة وعلاقة وثيقة بهذا التوجه... أي إنها تنصهر كلها في بوتقة حب مكة المكرمة زادها الله تشريفاً وتعظيماً.

سائلاً الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها المسلمين ويجعلها خيراً يسهم في إثراء مكتبتنا العربية والإسلامية.

والله الموفق وهو من وراء القصد،،

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

كلمة الناشر

بقلم: عبد المقصود محمد سعيد خوجه

هنالك ثلة من المفكرين والكتّاب والشعراء لا تكتمل «بانوراما» الكتابة عنهم إلا من خلال النسيج الاجتماعي، والثقافي، وربما السياسي والاقتصادي، الذي عاشوا فيه مما شكل خلفيتهم الثقافية ودفعهم إلى الإبداع متأثرين ومؤثرين في الوسط الذي درجوا على أرضه، واستظلوا بسمائه، وتنفسوا أريج هوائه، وامتزجت أرواحهم بعبق تاريخه.

ومن هؤلاء الروّاد الذين يسعدني أن أضع بين يدي القارئ الكريم مجموعة أعمالهم الكاملة أستاذنا الكبير عزيز ضياء زاهد مراد، الذي اشتهر أدبياً واجتماعياً باسم عزيز ضياء «رحمه الله».. وقد ولد في المدينة المنورة عام ١٣٣٢هـ، فهو من جيل عمالقة المبدعين الذين شكلوا الرعيل الأول من رجالات النهضة الأدبية في المملكة العربية السعودية مثل: عبدالله بلخير، محمد حسن عواد، حمزة شحاته، أحمد السباعي، محمد سعيد عبد المقصود خوجه، طاهر زمخشري، حسين سرحان، عبد العزيز الرفاعي، ضياء الدين رجب، محمد سعيد العامودي، عبد القدوس الأنصاري، محمد حسين زيدان، أحمد عبد الغفور عطار، أحمد قنديل، أحمد إبراهيم الغزاوي، الحافظان ـ علي وعثمان حافظ ـ وعبيد مدني،

ومحمد العربي، حمد الجاسر، عبد السلام الساسي، الجمالان ـ أحمد ومحمد صالح جمال ـ وحسين عرب، وأبو تراب الظاهري، وعبد العزيز الربيع، وغيرهم من الأسماء التي لمعت في سماء الأدب والثقافة خلال مرحلة التأسيس التي قيض الله لها عدداً من النجوم الزواهر الذين شيدوا الخطاب الثقافي والفكري بكثير من الصبر والجلد في وقت كانت الإمكانات شحيحة، والتواصل مع العالم الخارجي يعتمد على البريد السطحي والبحري، والطرق معدومة أو في أحسن الأحوال في حالة مزرية، ونوافذ الإعلام تقتصر على الإذاعة بالإضافة إلى بعض الصحف التي تصل لماماً عبر الحدود.. كانت تحيط بهؤلاء الأساتذة الكبار بيئة نمطية طاردة في معطياتها الاقتصادية والأدبية، إلا أنها كانت في ذات الوقت ذات روافد أرادها المولى عز وجلّ ترياقاً لكل السلبيات التي أشرت إليها، فكان الحج يمثل الإكسير الذي شد أزر حركة التنوير أثناء تكوينها، وجعلها مشروعاً قابلاً للنمو والتطور وفق آليات ابتكرها بعض هؤلاء الرواد.. وأذكر منها حفل التعرف الكبير الذي كان يقيمه والدي في الليلة الثانية من ليالي عيد الأضحى بمنى، ويجتمع فيه كبار روّادنا، للاحتفاء بكبار العلماء والمثقفين والشعراء والأدباء من مختلف أرجاء العالم الإسلامي الذين يؤدون فريضة الحج، وكان هذا الحفل يمثل واحدة من الفعاليات القليلة التي ساهمت في ربط الحركة الأدبية الناشئة في المملكة برموز الثقافة والأدب والعلم والفكر في العالمين العربي والإسلامي.

عاش عزيز ضياء في هذا الأجواء مع زملائه ومحبيه متطلعين دائماً نحو الأفضل.. فعشق الحرف منذ بواكير حياته، وأصبح ميالاً للعمل في مجال الإعلام، فكان يكتب في الإذاعة معلقاً سياسياً يومياً لأكثر من عشر

سنوات، كما كان عضواً في المجلس الأعلى لرعاية العلوم والآداب، التابع لوزارة المعارف ـ آنذاك ـ وقد كان برئاسة الأستاذ الكبير عبد الله بن إدريس، غير أن المجلس برمته لم يستمر طويلاً وطويت صفحته إلى يومنا هذا.. وضمن تحيزه للحرف وحبه للكلمة تولى الأستاذ عزيز ضياء رئاسة تحرير جريدة «عكاظ» خلال الفترة من ١٣٨١/١/١٨هـ ـ ١٠/٢١/ ١٣٨١هـ، وهذا أول عدد صدر منها بالتعاون مع صاحب امتيازها أستاذنا الكبير أحمد عبد الغفور عطار «رحمه الله».. وعمل رئيساً لتحرير جريدة «المدينة المنورة» لفترة قصيرة.. كما ترجم عدداً من القصص والروايات بالإضافة إلى مؤلفاته الخاصة وأحسب من أهمها «حمزة شحاته قمة عرفت ولم تكتشف» وكتابه الشهير «حياتي مع الجوع والحب والحرب» الذي صاغ من خلالها سيرته الذاتية المنطوية على كثير من معاني الكفاح وبناء الذات، ولم تأت هذه القصة من فراغ بل ارتكزت على محاور أكسبتها صلابة من قوة شكيمة كاتبها الكبير.. فقد تلقى تعليمه الأولي في المدرسة الراقية الهاشمية بعد الكُتّاب، ثم التحق بمدرسة الصحة التي درس بها بعض علوم التمريض عام ١٣٤٥هـ، لكنه لم يكمل المشوار، كما تقطعت به سبل الاستمرار في التعليم بكل من مصر ولبنان.. ثم عمل «رحمه الله» في عدة مواقع منذ شبابه المبكر حيث عمل مقيد أوراق في مديرية الصحة العامة، ثم في قلم مدير الأمن العام متدرجاً إلى رئاسة قسم التنفيذ.. ثم التحق بوزارة الدفاع مساعداً للسكرتير الأول، ثم مديراً عاماً للخطوط الجوية العربية السعودية، ثم انتقل للعمل في مجال الكلمة مذيعاً في بعض إذاعات الهند لمدة عامين، وبعد عودته إلى المملكة عمل مديراً لمكتب مراقبة الأجانب بمكة المكرمة، ثم أصبح وكيلاً للأمن العام للمباحث ومديراً عاماً للجوازات والجنسية.. ثم اتجه للعمل في مجال

الأعمال الحرة فأنشأ مؤسسة الشرق الأوسط للإعلان والثقافة والنشر.

الجدير بالذكر أن حركة السرد في المملكة قد توسعت كثيراً بعد جيل الروّاد الذين وضعوا بذرة الإبداع الأولى.. فجاء جيل من الكتّاب الذين ساروا على خطى أساتذتهم الأفاضل، وأسهموا في تأسيس حركة الإبداع القصصي منهم على سبيل المثال: الأساتذة غالب حمزة أبو الفرج، والسيد عبد الله الجفري، وسباعي عثمان، وخليل الفزيع، وحسين علي حسين، وإبراهيم الناصر الحميدان، وعلوي طه الصافي، وعبده خال.. وغيرهم ممن أثروا الساحة.. واستمرت مسيرة العطاء لتضم مزيداً من المبدعين من جيل لاحق منهم الأساتذة محمود تراوري، وعبد الله التعزي، وفالح الصغير، وغيرهم.. وقد أسهمت المرأة بدور مميز في هذا المجال وبرزت أسماء لامعة منهن الأستاذات فوزية أبو خالد، وانتصار العقيل، وخيرية السقاف، ونجوى هاشم، وفوزية البكر، وأميمة الخميس، وبدرية البشر، وغيرهن ممن أورق الحرف بأقلامهن.

ومما لا شك فيه أن تواصل الأجيال يعتبر إنجازاً للروّاد الأكارم الذين مهّدوا الطريق بكثير من الجهد والصبر والتضحية.. الأمر الذي يكتب لهم بأحرف من نور، ولكن ذلك لا يعني أن أعمالهم فوق مستوى النقد الأدبي البناء، فكل عمل إبداعي يجد استمراريته وحيويته من خلال النقد، وقد تتيح هذه المجموعة الكاملة لأعمال أستاذنا عزيز ضياء فرصة إلقاء الضوء عليها مرات عديدة عبر بوابة الدارسين والباحثين.

سائلاً الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها، وأن تسهم بدورها المنشود في التعريف بجانب من الأدب السعودي في مجال القصة والترجمة.

وقد رأيت من واجبي، استكمالاً لهذه المجموعة، أن استكتب أخي

الدكتور عبد الله مناع مقدمة لهذا العمل الكبير، لما أعرفه من صداقة وطيدة ربطته بأديبنا الراحل، فاستجاب مشكوراً بكل أريحية، وكتب «المقدمة» التي يسعدني أن تلي هذه الكلمة بكل إعزاز واعتزاز، فقد كتبها بقلم غمسه في إحساسه المرهف، وعميق مشاعره، فانثال دفاقاً سلساً يهز المشاعر ويغوص ملياً في فكر وأدب وإبداع أستاذنا الكبير «رحمه الله».. ولم يكن ما كتبه من فراغ إطلاقاً، فبينهما كما سترون وشائج محبة وتقدير متبادل، نسج من خلاله الدكتور مناع كلمته المجنحة بعد أن سكب فيها عصارة جزئية مهمة فيما يتعلق بهذا العمل وإرهاصات إصداره.. فله الشكر والتقدير على ما أفضل به.

ومن حسن الطالع أن جاء طبع المجموعة الكاملة لمؤلفات أستاذنا الكبير متزامناً مع اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية، تقديراً لجهود رائد من روادنا، وجزءاً من واجب «الاثنينية» مشاركة من ابن من أبناء مكة المكرمة يشرفُ بتقديم جهد المقل احتفاء بالكلمة في بلد شعَّ منه نور «اقرأ»..

**محرم ١٤٢٦هـ/ فبراير ٢٠٠٥م		عبد المقصود محمد سعيد خوجه**

إصدارات كتاب الاثنينية

١ ـ ديوان (الأعمال الكاملة).

لمعالي الأستاذ أحمد بن محمد الشامي، (رقم ١) الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٢ ـ كتاب (عبد الله بلخير شاعر الأصالة والملاحم العربية والإسلامية).

لمؤلفه الأستاذ محمود رداوي، (رقم ١/١) الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣ ـ ديوان (عاصفة الصحراء).

للشاعر الأستاذ محمود عارف، (رقم ١/ ٢) الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٤ ـ ديوان (الأربعون).

للأستاذ عبد السلام هاشم حافظ، (رقم ١/ ٣) الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٥ ـ ديوان (قلبي على وطني)

للشاعر العراقي الأستاذ يحيى السماوي، (رقم ١/ ٤) الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٦ ـ كتاب (جرح باتساع الوطن).

للشاعر الأستاذ يحيى السماوي، (رقم ١/ ٥) الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٧ ـ ديوان (حصاد الغربة)

للشاعر العراقي الدكتور زاهد محمد زهدي، (رقم ٦/١) الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٨ ـ ديوان (الأعمال الكاملة)

للأستاذ الراحل زكي قنصل، (رقم ٢) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٩ ـ كتاب (البهاء زهير)

للأستاذ المرحوم محمد إبراهيم جدع، (رقم ٣) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٠ ـ كتاب (التوازن معيار جمالي)

للأستاذة غادة بنت عبد العزيز الحوطي، (رقم ٤) الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١١ ـ كتاب (سوانح وآراء)

للأستاذ الدكتور بدوي طبانه، (رقم ٥) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٢ ـ كتاب (ترجمة حياة)

لمعالي الأستاذ محمد حسن فقي، (رقم ٦) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٣ ـ ديوان (قوس قزح)

لفضيلة معالي الدكتور الشيخ أحمد الزرقاء، (رقم ٧) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٤ ـ كتاب عبد العزيز الرفاعي من المهد إلى اللحد (الجزء الأول).

للأستاذ الشاعر أحمد سالم باعطب، (رقم ٨) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٥ ـ كتاب عبد العزيز الرفاعي من المهد إلى اللحد (الجزء الثاني)

للأستاذ الشاعر أحمد سالم باعطب، (رقم ٨) الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٦ ـ ديوان الأعمال الكاملة (الجزء التاسع)

لمعالي الأستاذ محمد حسن فقي، (رقم ٩) الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٧ ـ ديوان (أوراق من هذا العصر)

للشاعر الدكتور خالد محي الدين البرادعي، (رقم ١٠) الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٨ ـ ديوان (زمن لصباح القلب)

للشاعر فاروق بنجر، (رقم ١١) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٩ ـ الشعراء في إخوانياتهم

للأستاذ خالد القشطيني، (رقم ١٢) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٠ ـ عبد الله بلخير يتذكر

للأستاذ خالد باطرفي، (رقم ١٣) الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢١ ـ كتاب (الغربال)

للأستاذ حسين عاتق الغريبي، (رقم ١٤) الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٢ ـ ديوان (حلم طفولي)

للأستاذ سعد البواردي، (رقم ١٥) الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٣ ـ كتاب (الأعمال الشعرية الكاملة وأعمال نثرية)

للشاعر أحمد بن إبراهيم الغزاوي، (رقم ١٦) الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٤ ـ المجموعة الكاملة لآثار الأديب السعودي الراحل محمد سعيد عبد المقصود خوجه

إعداد وتقديم الأستاذ حسين عاتق الغريبي (رقم ١٧) الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٥ ـ الأعمال الكاملة للشاعر والأديب الكبير حسين عبد الله سراج رقم (١٨)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٦ ـ أخبار مكة للأزرقي رقم (١٩)، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

٢٧ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحميد عنبر رقم (٢٠)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٨ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي رقم (٢١)،
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٩ ـ الأعمال الشعرية والنثرية للأديب الشاعر الأستاذ أحمد العربي رقم (٢٢)،
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٠ ـ الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة للأستاذ محمد إسماعيل جوهرجي رقم (٢٣)،
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣١ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان رقم (٢٤)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٢ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الوهاب إبراهيم آشي رقم (٢٥)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٣ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء رقم (٢٦)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٤ ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأديب الأستاذ محمد صالح باخطمة رقم (٢٧)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٥ ـ الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان علي رقم (٢٨)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٦ ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأستاذ مصطفى زقزوق رقم (٢٩)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٧ ـ الأعمال الكاملة للأستاذ إبراهيم أمين فودة رقم (٣٠)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٨ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد عمر عرب رقم (٣١)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٩ ـ الأعمال الكاملة للأديب عبد الله عبد الرحمن الجفري رقم (٣٢)
الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م.

السيرة الذاتية

اسمه الكامل: «عزيز ضياء زاهد مراد». وهو أديب متمكن من لغته، وناقد حصيف، واسع الاطلاع في العلوم والآداب الإنسانية، ومن الأدباء البارزين في الحجاز الذين يجمعون بين قول الشعر وكتابة النثر القصصي، والمقالات السياسية والأدبية. ترجم العديد من الأعمال الأدبية من الإنجليزية إلى العربية، تغنى بالوطن وعبر عن أمانيه وطموحاته في مقاطع نثرية أشبه بالشعر الحديث، وبدأ رومانسي النزعة في شعره.

ولد في زقاق القفل من محلة الساحة بالمدينة المنورة في ١٢ ربيع الأول عام ١٣٣٢هـ. الموافق ٢٢ يناير عام ١٩١٤م. تلقى تعليمه الأولى في كُتّابِ الشيخ محمد بن سالم رحمه الله. ثم في المدرسة الراقية الهاشمية. ومن أساتذته الذين يدين لهم بالفضل فيها: الأستاذ السيد حسين طه، والسيد محمد صقر. والسيد أحمد صقر، والسيد ماجد عشقي رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته.

في عام ١٣٤٥هـ صدر إعلان في جريدة أم القرى، عن افتتاح «مدرسة الصحة» ظنها أهله مدرسة للطب فالتحق بها ليكتشف مع غيره من زاملوه من المدينة المنورة، أنها «مدرسة تمريض»، فاستطاع أن يهرب منها بعد سنة من إلتحاقه بها. اختفى فترة من الزمن في بيت وكيله في محلة

الشامية بمكة المكرمة، كان يسمع خلالها صوت المنادي يرتفع في الشامية، وفي غيرها من محلات مكة المكرمة، وهو يقرأ أبياتاً عن اسمه وعمره وملابسه، ويطلب ممن يراه إلقاء القبض عليه وتسليمه لمديرية الصحة العامة في أجياد. فظل مختفياً إلى أن أتيح له السفر بعد الحج إلى المدينة المنورة.

بعد مضي سنة تقريباً. أعلنت مديرية الصحة العامة عن وظيفة (مقيد أوراق) فسافر إلى مكة وتقدم لهذه الوظيفة. حيث عقدوا للمتقدمين لها اختباراً. كان هو الناجح الأول فيه. فتم تعيينه في الوظيفة، كما تمت تسوية مشكلة هربه من مدرسة التمريض مكافأة لنجاحه.

أثناء عمله مقيداً للأوراق في مديرية الصحة العامة تمرّن على الكتابة على الآلة الكاتبة، وبلغت سرعته أكثر من ٥٠ كلمة في الدقيقة. دخل مسابقة للكتابة على الآلة الكاتبة أقامتها مديرية الصحة العامة وحضرها نائب جلالة الملك سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود. وفاز بالدرجة الأولى في المسابقة فكافأه سمو الأمير بثلاثة جنيهات، وساعة (زينيث) وعجلة (بسكليتة).

لا يذكر كيف ولماذا استقال من مديرية الصحة العامة ليتقدم إلى وظيفة (مقيد أوراق) في قلم مدير الأمن العام، ونجح في المسابقة، وتم تعيينه في الوظيفة الجديدة، لينتقل منها بعد سنتين إلى وظيفة (كاتب ضبط) في شرطة المدينة المنورة، ثم نقل إلى مكة المكرمة، حيث عين (مفوضاً ثانياً) بعد دورة تدريب عسكرية قصيرة، وبهذه الرتبة عيّن رئيساً للمنطقة الثالثة بمكة المكرمة، ثم رقي إلى رتبة (مفوض ثانٍ).

بإفتتاح مدرسة لتحضير البعثات في مكة المكرمة، صمم على الالتحاق

بها فاستقال من وظيفته في الشرطة. ولكن خطر له أنه يستطيع أن يدرس المرحلة الثانوية كلها (وهي أربع سنوات) في سنة واحدة. وبهذه الفكرة سافر إلى القاهرة، والتحق بمدرسة الخديوي إسماعيل وفي الاختبار رسب في اللغة الإنجليزية والكيمياء وفي اختبار الملحق، رسب مرة أخرى في الكيمياء. وبهذا انقطع أمله في الحصول على شهادة البكالوريوس في سنة واحدة من مصر. ولذلك سافر إلى لبنان حيث التحق بالكلية الأمريكية في بيروت وكان من زملائه فيها الأستاذ عبد الله عمر بلخير والأستاذ فريد بصراوي، والأستاذ أحمد عبد الجبار وهم من الشباب السعودي المثقف والذي أسهم في الحركة الثقافية بالمملكة وكان يملؤه الطموح في متابعة دراسة تطابق وتصقل مواهبه وتتوج طموحه.

وبنشوب الحرب العالمية الثانية اضطر إلى العودة إلى المملكة العربية السعودية، حيث أعيد تعيينه في الشرطة، ولكنه استقال مرة أخرى ليلتحق بمعهد التحقيق الجنائي في كلية الحقوق بالجامعة المصرية.. وعجز عن الإنفاق على نفسه وعلى أسرته فانقطع عن الدراسة في السنة الثانية والنهائية من هذا المعهد. وعاد إلى المملكة، ليعين في الشرطة رئيساً لقسم التنفيذ، ثم عندما تأسست أول وزارة للدفاع، بوزارة المرحوم سمو الأمير منصور بن عبد العزيز، التحق بها مساعداً للسكرتير الأول كما كان يسمى مدير عام الوزارة في ذلك الحين. ثم عيّن بأمر من الوزير، مديراً عاماً للخطوط الجوية العربية السعودية (وكان عدد طائراتها طائرتا داكوتا بالإضافة إلى الطائرة الملكية) ونتيجة لخلاف بينه وبين مسؤول آخر كان يعمل معه، فُصِلَ من هذه الوظيفة، فسافر إلى القاهرة. وبعد أن أقام فيها سنتين تقريباً، التحق بوظيفة (مذيع مترجم) في إذاعات الهند في دلهى.

وبعد أن قضى سنتين تقريباً، استدعته الحكومة برقياً ليشغل وظيفة مدير مكتب مراقبة الأجانب بمكة المكرمة، حيث كلف بوضع نظام للإقامة، فتقدم بمشروعه إلى الجهات المختصة، التي أحالته إلى مجلس الشورى، حيث تمت دراسته ومناقشته، ثم رفع إلى جلالة الملك عبد العزيز فوافق عليه، وهو النظام الذي لا يزال متبعاً حتى اليوم.

وقبل مضي سنتين من عمله مديراً لمكتب مراقبة الأجانب، صدر الأمر بتعيينه (وكيلاً للأمن العام للمباحث والجوازات والجنسية)، حيث كُلِّفَ بإعداد مشروع لتعديل نظام الجنسية، وتمت دراسته من قبل لجنة من مجلس الشورى، وديوان النائب العام لجلالة الملك، ووزارة الخارجية، ثم رفع إلى المراجع العليا، وتمت الموافقة عليه، وهو النظام المتبع حتى الآن.

النشاط الإعلامي:

عشق عزيز ضياء الحرف منذ كان مقيداً للأوراق في مديرية الصحة العامة وهو من أوائل من كتبوا في جريدة صوت الحجاز عند صدورها لأول مرة. ثم انقطع بعد فترة للكتابة والتأليف والترجمة. وكتب للإذاعة كمعلقٍ سياسي يومي طيلة أكثر من خمسة عشر عاماً وكتب للصحافة منذ ظهرت «صوت الحجاز».

كما أسهم في الكتابة للتلفزيون فقدم العديد من البرامج وكتب بعض المسلسلات التلفزيونية.

وقد مارس عزيز ضياء العمل الصحفي في مجالات أخرى، فرأس تحرير جريدة (المدينة المنورة)، واستطاع أن يجعلها جريدة تصدر كل يوم دون عطلة أسبوعية إلى أن تمت تنحيته عنها بعد فترة ثلاثة شهور. ثم

أصدر جريدة «عكاظ» وصاحب امتيازها الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ثم رأس تحريرها فترة ثم نُحِّيَ عن رئاسة التحرير.

كذلك أسهم عزيز ضياء بتقديم مشروع للنهوض بإذاعة المملكة العربية السعودية في عام ١٣٩١هـ/١٩٧١م، بناء على طلب معالي الشيخ إبراهيم العنقري، وكان ـ آنذاك ـ وزيراً للإعلام. ويقع المشروع في تسعة بنود، من بينها: تقديم برامج سياسية عن إسرائيل والمخططات الصهيونية ضد العالم الإسلامي، بهدف نشر الوعي الإسلامي والسياسي، وكذلك العناية بالبرامج الترفيهية، ونشر الثقافة الإسلامية، والدعوة إلى التضامن الإسلامي، وإبراز عنصر المساندة الدائمة للشعوب الإسلامية في حقوقها. هذا بجانب المساهمة في الكتابة اليومية والأسبوعية لعدد من الصحف والمجلات: جريدة (الرياض ـ المدينة ـ عكاظ ـ البلاد ـ الندوة) مجلة (اقرأ ـ اليمامة ـ الحرس الوطني ـ الجيل).

ـ وقد أسهم الأديب عزيز ضياء في إلقاء العديد من المحاضرات في الأدب والسياسة والتعليم والإعلام، كما كتب في الصحافة والإذاعة والتلفزيون، وجمع مختارات مما نُشر في الصحف والمجلات.

ـ وتشكل الترجمة عن اللغات الأجنبية عنصراً أساسياً في نشاطه فقد مارس الترجمة عن الإنجليزية التي أتقنها بجهده الذاتي وبالتحاقه بالجامعة الأمريكية في بيروت وما أسندت إليه من وظائف جعلت إتقانه للغة الإنجليزية رفيعاً، فقدم للقارئ العربي ثماراً من الآداب العالمية في ميدانين هامين هما القصة والمسرح..

توفي ـ يرحمه الله ـ في ٦ شعبان عام ١٤١٨هـ.

المقــدمــة

بقلم: د. عبد الله منّـاع

عندما استقرتْ فوق مكتبي هذه الأجزاء الأربعة من أعمال أديبنا الكبير الأستاذ عزيز ضياء التي لم تُنشر من قبل.. تمهيداً لكتابة «مقدمة» لها أو عنها.. أخذت أطيل النظر إليها، وأتأمل عناوينها، وأقلب صفحاتها التي نافت عن ألف وثمانمائة صفحة، تماماً كعدد صفحات الأعمال الكاملة للشاعر الشيلي المحبوب والممقوت من قبل اليمين: «بابلونيرودا» الذي حاول الأستاذ عزيز في بروكسل أن يترجم له قصيدته الشهيرة «أغنية اليأس»، والذي استضافته «لندن» حين أقامت مهرجاناً لـ «الشعر» ليقرأ فيه بعض من قصائده ثم منحته «جامعة أكسفورد» درجة الدكتوراه الفخرية لتقوم إحدى دور النشر البريطانية بطباعة أعماله الكاملة التي تتشابه «حجمــاً» وتختلف «نوعاً» عن أعمال أديبنا.. الذي كان يسميه مجايلوه بـ «الأب عزيز» وكنت أسميّه بـ «اللورد عزيز ضياء»، فهو «الأب» بـ «تسامحه» و«عاطفتــه الكونيــة» المتوازيــة و «نظرته الإنسانيــة» الشاملة.. وهو «اللورد» بـ «غليونه» وبدلته الداكنة الكاملة ـ في السفر ـ و «إنجليزيته» التي تفرد بها بين من سبقوه وجايلوه وجاءوا بعده من روّاد نهضة الأدب والفكر والكلمة الشاعرة والمنثورة في بلادنا.. والتي جعلت منه في نهاية رحلته مع الحياة واحداً من أكبر أدباء العربية الذين اشتغلوا بـ «الترجمة» على مستوى الوطن العربي كله.. دون أدنى مجاملة، فقد ترجم ما يقارب الثلاثين عملاً أدبياً لكبار كتّاب العالم

وأساطينه وأكثرهم بريقاً ولمعاناً: من «رابندرانات طاغور» إلى «موليير» و«ديستوفسكي».. ومن «ليو تولستوي» إلى «شو» و «موم».. ومن «أوسكار وايلد» إلى «اونسكو» و «ارويل» و «جينيت».

أخذتني إطالة النظر في تلك المجلدات بعيداً.. بعيداً، إلى حالة بين اليقظة والمنام.. بين الواقع والحلم، وهي ترجع بي إلى الوراء.. إلى ذلك اليوم الذي دعاني فيه لزيارته على عجل قبيل عامين أو ثلاثة أعوام من وفاته.. فدلفت إلى مكتبه بالدور الأرضي من منزله، وقد كان في استقبالي سائقه وسكرتيره الشخصي أو مساعده «العم إدريس».. فلم يفت كلبيه في الحديقة أن يطلقا بعض صرخاتهما المرحبة فهما يعرفانني بقدر ما أعرفهما.. لأجد «الأستاذ» جالساً إلى مكتبه على الصورة التي يحبها لنفسه وأحبها له: شَعْرُهُ الرمادي مصفف في تمامه.. و «غليونه» مشتعل بين شفتيه.. وعصافيره الصفراء تُحْدِثُ أصواتاً بتنقلها من جهة لأخرى في قفصها.. وأمامه بقية من كأس بها شيء من «السقن».. الذي يفضله، والذي يغافل زوجته (السيدة الكريمة: ماما أسما) بـ «التآمر» مع «العم إدريس» لإحضاره إليه دون علمها، فقد كان ممنوعاً من الإكثار من شرب السوائل حتى لا يزداد انتفاخ بطنه مما يضطره إلى عملية «بزل مرهقة في المستشفى»..

سألته متلهفاً: بعد أن استقررتُ[1] في مواجهته: خيراً.. ما الخبر..؟

قال وهو ينفث دخان «غليونه».. ويشير إلى بضعة أظرف صفراء منتفخة وقد رُصّت بعناية على الطرف الأيسر من مكتبه: هذا «الحصاد» الذي تجمع لديَّ عبر مشواري الأدبي الطويل (كان ساعتذاك.. قد شارف على الثمانين أو اقترب منها). لقد فرغت إليه أخيراً.. فقمت بـ «إعداده» و«تبويبه» بعد أن استبعدت ما لم يعد صالحاً منه، ليكون جاهزاً للنشر في مجموعة من

(١) استقريت خطأ شائع.

الكتب. . بـ «عناوين» أرجو أن أكون قد وفقت في اختيارها: «مع الفكر والمجتمع»، «حصاد الأيام»، «بنات شفاه من التراث»، «بنات شفاه من هنا وهناك»، «نثار»، «طرائف الأخبار»، «آراء في الفن والحب والجمال»، «كان القلب يقول». . إلى جانب قصة «عناقيد الحقد» التي تعرفها والتي رأيتَ عدم استكمال نشر بقية حلقاتها في «إقرأ» (على أيامك. . فيها) بعد أن علمت أن أحد قرائها (وكان كاتباً كبيراً ذا طبع حاد وسلوك أكثر حدة) يتهيأ لرفع قضية تعويض ـ أدبي ومادي ـ عليَّ وعليك بحجة أن القصة تتناول جانباً من حياته بصورة تنال من اسمه ومكانته، فكان أن توقفت عن كتابة بقيتها. . فظلت قصة ناقصة. . قصة لم تكتمل.

ثم رفع الأستاذ عزيز عينيْه عن تلك الأظرف التي أخذت تضطرب فوق سطح المكتب بغير نظام بعد استعراض محتوياتها، وأخذ نفساً من «غليونه» مع استداراته إلى الجانب الأيمن قائلاً: أما هذه الظروف الأخرى التي تراها فوق بعضها البعض. . فهي عشرة، وهي لأعمال أدبية. . قمت بترجمتها خلال تلك السنين الماضيات. . ولم تنشر بعد (كان قسم النشر والمكتبــات في تهامة. . قد احتفى بـ «الأستاذ» وأعماله «أديباً» و«مترجماً». . فنشر له ـ قبل توقفه ـ ستة أعمال من ترجمته، كان أولها «عهد الصبا في البادية» لإسحاق الدقس، وكان آخرها «العالم عام ١٩٨٤م» لجورج أورويل). فماذا أفعل بكل هذا «الحصاد»؟ وما «العمل» فيه؟.

قلت وقد هالتني كثرة هذا الحصاد «أدباً» و «ترجمة»: لقد كان يصح أن تفرغ لهذا الحصاد و «تبويبه» مبكراً. . ليطبع تباعاً حتى لا يتكدس على هذا النحو الذي أراه، أما طباعته الآن دفعة واحدة. . حتى ولو وُجد الناشر الشجاع الذي يقوم بطباعة هذا الكم الهائل. . فإن «جماجم» القراء كـ «أمعائهم» لا تحتمل كل هذا الفكر. . كل هذا الأدب. . كل هذا الطعام. .!!

سحب «الأستاذ» نَفَساً عميقاً من «غليونه» ليبدد به سحابة اكتئاب لاحت في أفقه.. وهو يقول: ربما غداً؟.

قلت مخففاً عنه ومبتهجاً لنسمة الأمل التي أقبلت عليه: أكيد يا أستاذ.. سيطبع هذا «الحصاد» ذات يوم، وسيجد قارئه.. فما به ليس صريراً ولا عواءً، ولكنه رؤى عقل.. ونبض فكر.. وعاطفة فنان، ولم أشأ.. وقد أخذت ألملم أطرافي لوداعه أن أثقل عليه بـ «إكمال» قصة «العناقيد» الناقصة، فقد كان يتصابر على بعض متاعبه الصحية التي بدأت تتزايد.. وهو يجاهد في استكمال كتابة الجزء «الثالث» والأخير من قصة حياته: «حياتي مع الجوع والحب والحرب».

* * *

بعد سويعة أو ما حولها كأني أفقت من غيبوبة السفر مع الأحلام أو الذكريات.. وأخذت أسترد حواسي، فاتحاً عينيّ.. فلم أر «الأستاذ» وغليونه وأظرفه الصفراء التي اضطربت فوق مكتبه بعد استعراضها.. ولم أر سائقه وعصافيره وكلبيه اللذين ودعاني بمثل ما استقبلاني.. ولكنني رأيت الأجزاء الأربعة التي تنتظر مقدمتي عنها أو تقديمي لها. إنها هي.. التي تحتوي ذلك «الحصاد» الذي أقلق الأستاذ عزيز مصيره، وما يمكن أن يؤول إليه بعد أن فرغ من «تبويبه» وإعداده.. فـ «استزارني» للتشاور فيما يجب فعله؟..

ابتسمت لهذه الخواطر التي ومضت كلمح البرق في مخيلتي، وأنا أقول: رحمك الله يا أستاذنا.. فلم يطل الانتظار بـ «حصاد» أيامك طويلاً؟! فها هي قد جاءت ساعته.. وسيطبع بعد أيام.. وسيكون بعد أسابيع قليلة في قلب هذه الاحتفالية بـ «مكة المكرمة» عاصمة للثقافة الإسلامية (لعام ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م) التي لم تكن تخطر لك على بال.. وها هو ناشرها: صديقك، وابن صديقك.. الشيخ عبد المقصود بن محمد سعيد عبد المقصود خوجه.. يعبر

عن حبه لـ «مكة المكرمة» و«لك» بـ «نشرها» على نفقته. ليتك معنا.. لترى هذه الأجزاء الأربعة وهي تضم ثمانية من أعمالك.. من ذلك «الحصاد» الذي كان يقلقك أمره، وهو يأخذ طريقه إلى النشر.. ليظهر إلى الناس.. إلى القراء.. في أحلى صورة كنت ترجوها له..!؟

مددت يدي إلى «الجزء الأول» فوجدت أنه يضم خمسة كتب لـ «خمسة» أعمال من تأليفه.. هي: «قمة عرفت ولم تكتشف»، و«عناقيد الحقد»، ومسرحية «الأغلال»، و «وقفات مع الفن والجمال والحب»، و«كان القلب يقول»... ولأنني كنت ـ فيما سبق ـ قد قرأت معظمها.. وعايشت نشر بعضها خطوة بخطوة، كما هي الحال في قصة «عناقيد الحقد» التي لم تكتمل كتابتها.. وتوقفت بـ «القارئ» كما توقفت بـ «المؤلف» عند انتقال بطلها «أبو دحماني»: الطالب المبتعث إلى مصر ـ الذي كان يسر «فساده» ويجهر بـ «تقواه» عبر سلوك ذي وجهين مخادعين ـ من سجن «الكركون» إلى سجن «الفرن».. وهما سجنان من سجون مكة المكرمة في الثلاثينات من القرن الميلادي الماضي.. بـ «تهمة» أنه كتب شيئاً في الصحف المصرية أو أنه وشى ببعض من زملائه مما أغضب عليه بعض ذوي الشأن.. فجيء به من مصر، واقتيد على الفور إلى «السجنين» تباعاً، وبصرف النظر عن «التهمة» وطبيعتها والتي لم نتعرف عليها يقيناً من «قصة» لم تكتمل كتابتها.. فإن الحلقات الثلاث عشرة التي نُشرت منها، والتي يضمها الجزء الأول من الأعمال الكاملة.. يقدم لنا لمحة عريضة مشبعة عن مكة المكرمة وحياتها وأحيائها في تلك المرحلة الزمنية الغابرة.. كنا أحوج ما نكون للتعرف على بقية تفاصيلها، التي ربما كانت ستجعل من هذه القصة.. واحدة من أجمل أعمال أديبنا أو «اللؤلؤة» في عقد أعماله.

أقول.. لأني قرأت معظم ما تضمنه هذا الجزء الأول من أعماله الكاملة..

فقد وضعته جانباً. وأخذت أستعرض عناوين ومحتويات بقية الأجزاء الثلاثة.. الأخرى فكان الجزء الثاني.. عن «حصاد الأيام»، وكان الثالث عن «الحياة ومنها»، وكان الرابع عن «الفكر والمجتمع.. لأتوقف بقراءتي وطويلاً عند «حصاد الأيام»، الذي يمثل بـ «فصوله» و «وقفاته» الكثيرة المتنوعة.. جانباً من رحلة ماتعة إلى عقل وقلب وفكر الأستاذ عزيز ضياء.. وإلى رؤاه وأحلامه ولقاءاته، ومشاهداته واختلافاته وشراسته مع «ما» و «من» كره، ووداعته مع «ما» و «من» أحب.. لا تتكامل إلا بمتابعتها في الجزأين «الثالث» و «الرابع» من هذه الأعمال الكاملة.

ورغم أن «حصاد الأيام».. كان عنواناً ـ إن لم تخني الذاكرة ـ لصفحة «اليوميات» أو «الرأي» في جريدة «الرياض» الغراء، كتب تحته الأستاذ عزيز كما كتب آخرون غيره.. إلا أنه كان بينه وبين «حصاد العمر» ونتاج السنين الذي يقلقه ولا يدري ما يفعل به ـ كما أسلفت ـ أكثر من قاسم مشترك.. ولذلك فقد كان أمراً طبيعياً أن لا ينساه أو يسقطه من ذاكرته في استهلاله الطويل والجميل لهذا الجزء والذي جاء بعنوان: «بسم الله الرحمن الرحيم».. ولكن بصورة ساخرة رائعة هذه المرة.. عندما قال: «بدا لي أن أتقدم بسؤال إلى مدير صوامع الغلال.. عن الطريقة التي يعالجون بها ما يزيد من الإنتاج عن طاقة هذه الصوامع؟ أتراهم يشرعون في بناء صوامع جديدة؟.. أم أن لهم طريقة في التخلص من المخزون القديم»..! ثم يتساءل بأعلى درجات السخرية: «أتراهم يحرقونه.. أم يقدمونه علفاً للماشية..»؟..

ويبدو أنَّ المصادفة وحدها.. قد رحمت «مدير الصوامع» من سماع ذلك السؤال الملغوم.. ومن التورط في الإجابة عليه بـ «البراءة» المفترضة في مدير للصوامع.. يُسأل عن «غلال» وهو لا يدري أنها ليست قمحاً أو ذرة أو شعيراً..؟!

على أية حال، يبدو أن مشكلة «الحصاد» لم تكن مشكلة الأستاذ عزيز وحده.. بل هي مشكلة رصفائه كما قال في موضع آخر من استهلاله: «رصفائي من الشيوخ عاشوا يحصدون الكثير، وفي أذهانهم أو هي جماجمهم (صوامع غلال)، تكدست فيها أصناف مما حصدوا طول العمر.. وهم يعيشون مشكلة شديدة التعقيد، وهي أنهم لا يكفون عن الحصاد، ولا يشبعون من التخزين في الصوامع»..

ولكن.. وكما فعلت في استشارتي التي قدمتها للأستاذ عزيز.. أقترح أحدهم وكما قال في موضع ثالث من استهلاله: «أن نفرغ الصوامع، وأن نتخلص من المخزون.. ولا خلاص إلا بكتابته، وطرحه كتباً، لا تعدم من يتورط في قراءتها، إن لم يكن اليوم ففي مقبل الأيام»..

وقبل أن أطوي هذا الجزء من الأعمال الكاملة.. لا بد وأن أشير إلى حديث الأستاذ عزيز في استهلاله الطويل ـ والذي لا أتعب من ترديد القول عنه بأنه جميل بحق ـ عن الشاعر والمسرحي المصري المظلوم «نجيب سرور» وديوانه «لزوم ما يلزم».. الذي تقول إحدى قصائده (العودة):

«المرفأ المنشود لاح
أفرغ شراعك يا غريب، من الرياح
لملمه.. كم ودَّ الشراع لو استراح
لو استراح
ودع طيور البحر: صعب يا رفاق.. صعب على القلب الفراق
ودع طيور البحر.. كم راحت إلى الأفق البعيد
تشتمّ ريح اليابسة
لتعود لاهثة.. ترفرف يائسة
لا شيء بعد الأفق، يا ملاحُ، غير الأفق.. كلُ الكون بحر..
وتنام مجهدة على الصاري ـ طيور البحر ـ إن هجم المساء

وتظل أنت بلا رجاء

ومتى فقدت برحلة الهول الرجاء؟». .

. . بل وعن مسرحيته «قولوا لعين الشمس» التي لم أكن أعرف عنها شيئاً. . ودون أن ينسى ذكر أنها اسم لأغنية شائعة للفنانة «شادية»، وأن للأغنية قصة: «فقد حكوا أن شاعراً مجهولاً كتب أبيات قصيدة باللغة الدارجة، لحنها ملحن في التو واللحظة، يرثيان بها الشاب الذي قَتَل (السردار الإنجليزي) وقد حُكم عليه بالإعدام. . وتقرر تنفيذ الحكم في صبيحة يوم من الأيام، وتقول الحكاية. . إن الجماهير في مصر نساء ورجالاً وصبية أصبحوا يغنون هذه الأغنية. فكأن الشعب المصري كله عاش أحزانه على رحيل ذلك الشاب الذي نفذ فيه الاستعمار الإنجليزي. . حكم الإعدام. .!!

وأجدني أتوقف بعد هذا في «الجزء الثالث» من أعماله، والذي حمل عنوان «مع الحياة ومنها». . وقد تضمن ـ فيما أعتقد ـ آخر كتاباته الصحفية. . عند حديثه عن شاعر أفريقيا وأحزانها الأستاذ محمد الفيتوري وحياته و «شعلة الثورة في شعره» التي قال إنه «كان وقودها من هناك. . من العُش، ولهب النار أمامها، وحولها الصبية والرجال والنساء يواصلون رقصاتهم على قرع الطبول بينما تغمر الساحة رائحة شواء الوعل، ومعها رائحة عرق الراقصين». . وهو يسترجع قصيدته الرائعة التي كتبها ذات يوم و «الحجاج» يصعدون إلى عرفات بعنوان: «يوميات حاج إلى بيت الله الحرام». . متغنياً ببعض أبياتها:

«يا سيدي منذ ردمنا البحر بالسدود

وانتصبت ما بيننا وبينك الحدود

متنا وداست فوقنا «ماشية» اليهود

* * *

يا سيدي، تعلم أن كان لنا مجدٌ وضيعناه
بنيته أنت.. وهدمناه.
واليوم ها نحن
أجل يا سيدي.. نرفُل في سقطتنا العظيمة
كأننا شواهد قديمة
تعيش عمرها لكي تؤرخ الهزيمة

* * *

لا جمر في عظامنا.. ولا رماد
لا ثلج.. لا سواد
لا الكفر كله ولا العبادة
الضعف والذل عادة»

وأخيراً.. وجدتني أمام «الجزء الرابع» والأخير من هذه الأعمال الكاملة، وهو الأضخم في تعداد صفحاته التي نافت عن سبعمائة صفحة.. وهو الأشمل في تناوله وتعدد وتنوع موضوعاته: فهو سياسي بقدر ما هو ثقافي.. وهو اجتماعي بقدر ما هو ثقافي.. وهو تاريخي قديم بقدر ما هو آني حديث.. وهو عام في طروحاته بقدر ما هو خاص في بعضها بتلك التفاصيل والجزئيات من المعلومات التي إن غُيبت عن القارئ فقد لا يستشعر فقدها، ولكنها إذا جاءت في موقعها من الموضوع ـ أو العمل ـ وأياً كان نوعه.. فإن فهمه يتكامل ويتجسد وتقرأ فيه تلك السطور التي تحاشى الكاتب أن يكتبها خشية وحذراً، وقد اختار أستاذنا لهذا الجزء عنواناً هو «مقالات منوّعة في الفكر والمجتمع».. ليكون ترجمة دقيقة لمحتواه.. وتأكيداً لفهمه لـ «الحياة» وطبيعتها الذي عبر عنه في «حصاد الأيام» عندما قال: «إني واحد من الذين يشعرون أن

الحياة من حولي فيها الكثير الذي يجب على الكاتب أن لا يغفله أو يتناساه أو يتجاهله.. على حساب الأدب».. وهو ما اتفق معه فيه، فـ «الحياة» ليست «رواية» أو «قصة» نقرؤها.. وليست قصيدة ننشدها.. وليست «أغنية» نترنم بها في ساعات الفرح والأسى.. وليست «لوحة» نبحر معها إلى فضائها وشطآنها، ولكنها إلى جانب ذلك، هي في البدء: صراع القوة.. ونضال البشر من أجل حياة حرة كريمة.. وكفاح الإنسانية من أجل العدل والمساواة.

لقد شدني من بين الكثير الذي شدني في هذا الجزء مقاله الجميل عن «ونستون تشرشل.. والأشجار التي لا تشكو»، فقد كان «تشرشل».. يشغل أوقاته كلما طوّحت به عواصف السياسة بعيداً عن العمل بـ «الرسم»، وهو الأمر الذي أخذ يفعله في سنوات تقاعده، وبصورة منتظمة، ولكنه وكما يقول الأستاذ عزيز «كان يرسم الأشجار والمناظر الطبيعية»، ولا يحاول أبداً أن يرسم (البورتريه).. أو وجه الإنسان. وعندما سئل: لماذا؟ كان جوابه اللاذع وعلى الفور (لأن الشجرة لا تشكو من أني لم أتقن رسمها)، ثم يقول: «وقياساً على منطق ونستون تشرشل مع أشجاره، فإن إنسان العالم الثالث لو وجد الجرأة ليسأل أحد قادته: (لماذا يفضل دائماً أن يتصرف على هواه في مقدرات شعبه)؟. فإن أفضل رد يمكن أن يتلقاه السائل الجريء هو (لأن هذا الشعب لا يشكو من أني تصرفت في مقدراته على هواي وكما أريد).

«أشجار ونستون تشرشل، وشعوب العالم الثالث يجتمعان في خصيصة.. الصمت، مع فارق هام وحاسم، هو أن الأشجار محكومة بالصمت. لا تملك أن تناقش أو تعترض أو ترفض الأخطاء التي تنزلق إليها ريشة الرسام.. بينما إنسان العالم الثالث محكوم بالقدرة التي تستطيع أن تخرسه في ظلام الزنزانات وتحت أثقال الأصفاد والقيود»..؟!

إن هذه الأجزاء الثلاثة التي نُشر بعضها متناثراً في الصحافة المحلية.. وبقي

معظمها حبيس الأرفف والأدراج أو تلك الأظرف الصفراء التي رأيتها.. تمثل بمجموعها مزيجاً ثقافياً فريداً.. إن لم يكن نادراً، يجمع: بين الأحداث والذكريات والمواقف التي عاشها.. وبين الأحاديث التي كتبها عن العشرات من الشخصيات المؤثرة والفاعلة والأسماء التي لمعت سياسياً وثقافياً على المستويين الداخلي والخارجي.. اتفاقاً أو اختلافاً معها. مدحاً أو قدحاً لها.. لتقدم في النهاية: «بانوراما».. مكانية وزمانية وحدثية نابضة.. لا يستغني عنها حتى عارفوها، أما أولئك الذين لا يجدون الوقت ـ أو يتعلّلون بعدم وجوده ـ لـ «الغوص» بحثاً عن المعرفة في مصادرها المختلفة.. فأحسب أنهم سيكونون أشد شوقاً إليها.

* * *

ولكن.. هل قال الأستاذ عزيز في هذه الألف والثمانمائة صفحة من أعماله الكاملة التي لم تنشر.. وفي قصة حياته مع الجوع والحب والحرب التي تشكل الجزء الخامس منها.. وفي أعماله وترجماته التي سبق وأن صدرت له منفردة والتي تزيد عن عشرين عملاً.. كل ما يريد أن يقوله؟..

إن الإجابة والتي لم أجتهد في استنباطها أو البحث عنها.. بل جاءتني تسعى على قدميها وبصريح الألفاظ والعبارات هي أن: «لا».. فها هو أستاذنا ـ وفي أكثر من موضع من «حصاد الأيام» ـ يقول: «إني لا آمل أن أكرر أن كل ما ينزفه هذا القلم ليس هو الذي أريد أن أقوله فعلاً، أو هو الذي ينبغي أن يقال.. وذلك لا يعني أقل من أني عجزت عن أن أكون صادقاً مع نفسي. وصدق الكاتب مع نفسه بطولة.. حلمنا بها.. ولكن لم يبق في العمر أو في الأحلام ما يتسع لتحقيقها»!!..

ليمُتْ، ويَمُتْ معه ذلك الذي لم يجرؤ على قوله طوال سني حياته.. تماماً،

كمَا مات من قبل «الزيدان» و «التوفيق» و «الجاسر» و «بالخير»، ومات معهم ما لم يقولوه.. على التفاوت فيما بينهم وبينه جرأة وشجاعة وإقداماً.

* * *

وبعد.. فلم أكن في هذه المقدمة «وسيطاً» بين هذه الأعمال و«قارئها»، ولا «قارع أجراس» أو «سمساراً يروج السلعة بالباطل» كما قال صديقه وعزيزه المفتون به شاعر الشعراء «حمزة شحاته» وهو يكتب مقدمته الرائعة لـ «شعراء الحجاز».. ولكنني كنت فيها «القارئ» قبل «الكاتب»، و«التلميذ» قبل «المعلم».. المعجب بأستاذية الأستاذ عزيز ضياء وكفاحه وطموحه وقلقه وملله ووفرة إنتاجه المتميز بتلك المعمارية الفريدة في أسلوبها.. والتي جمع فيها بين دقة السياسي وروح الأديب وإلهام الفنان.

ربما صح القول بأنها ليست «مقدمة».. ولكنها دمعة على فقده.

١٤٢٦/١/٥هـ ٢٠٠٥/١/١٤م

د. عبد الله منّاع

النثـــر

حمزة شحاتة

قمّة عُرفت . . . وَلم تكتشف!

المقدمة

في أدبنا قمة عرفت ولم تكتشف. .

وليس وجه الغرابة في أنها عرفت ولم تكتشف، وإنما في أنها القمة، التي لم تخضع لما تخضع له القمم ـ حتى في التكوين الجيولوجي ـ من عوامل التحات والتعرية، وما إلى ذلك مما نتجنّب الخوض فيه بأي تفصيل يختص به العلماء.

والقمة التي أتحدّث عنها، ليست قمة من قمم جبالنا، وإنما هي قمة أدبية، وهذا إيضاح لا بد منه لمن يتوهم، أن قاعدة الأخذ من كل شيء بطرف بالنسبة للكاتب أو الأديب، لا تمنع أن أخوض في بحث جغرافي أو جيولوجي. . . ثم لا بد منه أيضاً لأؤكد أن هذه القاعدة، قد أصبحت خرافة نصيبها من السخرية هو النّصيب المقدور، لكل من يطيب له أن يتوسع في الادّعاء.

والقمة الأدبية التي أتحدّث عنها، لم تخضع لما تخضع له القمم من مثيلاتها، على امتداد وتلاحق السلسلة الطويلة من أولئك العباقرة الذين عرفهم تاريخ الأدب العربي، أو تاريخ أي أدب من آداب الأمم في هذا العالم الكبير.

إنها القمة التي أخذت العيون بشموخها، وكأنها ولدت قمة منذ درجت

على تراب هذه الأرض. . . أو منذ تفتّحت هذه العيون على الأدب، ومنذ تعلّقت قلوب الذين عرفوها، سحر الإشعاع في الحرف، وتعشّقت حنان موسيقاه، وسرحت مع أطيافه ورؤاه وانساحت في ألوانه وظلاله.

ورصفائي من الشيوخ، هم أصحاب تلك العيون التي أخذتها القمة بشموخها. . . وهؤلاء الرصفاء رغم ما طال من الزمن معاشرة لها، وتفاعلاً مع ما يشبه تفجر الينبوع الثر من عطائها، ليس في الشعر فناً آسراً أخاذاً، وليس في النثر دوراً ولآلىء فحسب، وإنما في الفكر غواصاً في الأعماق ومحلقاً في أبعد الآفاق، ومتمرداً على المألوف، والتقليدي والمتبع، إلى حد كثيراً ما وصفه محبوه قبل شانئيه بأنه (لا يطاق)!

رصفائي هؤلاء. . . رغم طول العشرة، ورغم وثاقة تركيب إطار الزمالة، الذي جمعهم بها، بل ورغم وشائج الود والصداقة التي توطدت بينهم وبينها، يمكن أن أقول إنهم عرفوا هذه القمة شاهدوها. . . ولعل بعضهم، لم يعدم القدرة على دقة تقدير شموخها، وقد يبلغ بآخرين منهم، حد توهم أنهم لا يجهلون عنها شيئاً ذا بال، ما داموا قد رأوها،وطافت أبصارهم بهذا الجانب أو ذاك من جوانبها، ولكن أرجو أن لا أدهشهم، أو أثير استنكارهم إذا قلت: إن طبيعة كل قمة أن ترى. . . وأن تملأ العيون، وأن يتلامح هذا الجانب منها أو ذاك، مما يبدو وكأنه يغني عن اكتشاف الذروة فيها، والبحث فيما وراء الظاهر من قوامها. . . ولكن. . . كل هذا. . . لا يعني اكتشافها. . .

أن نسمع بقمة من قمم الهيمالايا، أو أن نقترب من سفوحها وأن نرفع أبصارنا إلى ذراها الضاربة في أحضان السماء، وأن يأخذنا العجب، بما يتلاحق فوق سطحها من المرائي والصور، يتفرق عنها الضباب فتشرق وتسطع لها الألوان والظلال ثم يتجمع ويتماسك، فيلفها، وتتلامح فيشتد

الشغف بتأمل الدقائق واستشفاف التفاصيل الغائبة وراء هذا الضباب... كل هذا لا يعني سوى أننا رأيناها... ولكن الاكتشاف شيء آخر... وليس بيننا من لم يسمع عن البعثات التي تغامر بمحاولة اكتشاف هذه القمم، وما يتعرض له أعضاؤها من الرجال، من أخطار بل ما يفاجأون به من أسباب الفناء والدمار.

وهذا... وأعني اكتشاف القمة الأدبية التي أتحدث عنها، لم يحدث حتى هذه اللحظة...

ولقد كنت واحداً من هؤلاء الذين رأوها... بل كنت واحداً ممن جمعهم بها إطار الزمالة ـ ولا أقول الندادة ـ وممن توثقت بينهم وبينها وشائج الود والصداقة والألفة، والتصادم الفكري، ولكني كنت أيضاً واحداً ممن لم يزد حظهم من اكتشافها حظ الآخرين... وأعني أنني عرفتها وشهدتها شامخة، تعيش الحياة، وأعيشها معها عرضاً أغني عن الطول، وفترة من أيام بل سنوات صرم حبل امتدادها نزوح هذه القمة إلى مصر، وتعسر كل محاولة بذلتها للعودة إلى وطنها... إلى هذه الأرض وإلى جدة بالذات، إلا بعد أن اجتازت هذا الممر المحتوم، من الحياة الفانية إلى الدار التي ينكشف عنا ـ في انتقالنا إليها ـ الغطاء فبصرنا يومذاك حديد... ولكنها أيام وسنوات كانت على قصرها أزماناً طويلة وعريضة وعميقة، ترافق فكر، وتموج شعر، وتزخاراً بما يشبه الكنوز الدفينة ثراء ذكريات، وتجنح أحلام وآمال.

وبعد... إن هذه القمة في أدبنا، هي الصديق، والأخ الحبيب، والزميل الكبير المرحوم الأستاذ (حمزة شحاتة).

وما كاد ينشر خبر وفاته في الثاني عشر من شهر ذي الحجة عام ألف وثلاثمئة واثنين وتسعين، حتى ازدحمت جميع صحف المملكة ومجلاتها،

بما جاشت به نفوس وعواطف الأدباء والشعراء من مشاعر الفجيعة فيه، والتقدير لمكانته، والحسرة والأسى لفقده. . .

وكانت هذه الهزّة التي سرت في نفوس الكتّاب والأدباء، وأخص منهم الشداة والناشئين ظاهرة، قل أن ألتفت إلى عنصر الغرابة فيها أحد، ممن ظلّوا يوالون الكتابة عنه راثين، وفي رثائهم دفقات فوارة من الإعجاب بأدبه. وزخات محتدمة من الإشادة بعبقريته.

وعنصر الغرابة في هذه الهزّة، وفي هذه الدفقات من الإعجاب والزخات من الإشادة، هو أن حمزة يرحمه الله، ظلّ ـ طيلة حياته ـ أحرص أقرانه ورصفائه على الزهد في نشر روائعه في الشعر وأسماط لآلئه في النثر، وشوارده من الحكم، التي تدخل ساحة ما يسمى (آفوريزم) أو (الأقوال المأثورة) من أوسع الأبواب، ليس في الأدب العربي الحديث فحسب، وإنما ـ ودون مبالغة أو انجراف عاطفي ـ في الأدب العالمي على أوسع نطاق!

فكيف يتفق أن تتقرر لهذه الشخصية هذه الشهرة الساطعة، والصيت البعيد، وأن تتبارى أقلام الشداة والناشئين في التحدّث عن عبقريته وفنّه، طيلة أسابيع، وربما حتى اليوم، دون أن تتاح لهم أو يتيح لهم الشاعر أن يقرأوا إلا أقل القليل من أعماله؟!

لا وجه للدهشة أو الاستغراب، حين نقرأ للأستاذ (أحمد قنديل) أروع ما توهجت به مشاعره أو مشاعر الراثين من الشعراء في القصيدة التي رثى بها (حمزة). . . وليس مما يؤخذ مأخذ الانسياق والاتباع حين نقرأ ما كتبه الشاعر الأستاذ السيد (محمد حسن فقي)، ولا نتردّد في التقدير والإعجاب بما كتبه الأستاذ (محمد عمر توفيق) أو الأستاذ (حسين بن سرحان)، أو الأستاذ (ضياء الدين رجب). . . لا وجه للدهشة والاستغراب لأن هؤلاء مع غيرهم من زملائه، هم الذين عايشوا الشاعر الفقيد، وعاشوا تفتح

عبقريته وازدهار عطائه وامتلأت نفوسهم انفعالاً وتأثّراً بإشعاع تلك العبقرية، ونفحات ذلك العطاء... بل هم الذين عايشوا مرحه وروحه الآسر، وصراعه الفكري، وغوصه على الحقائق، أو ما يريد هو أن يجعله حقائق، بمنطقه القوي المكتسح.

وإنما الدهشة والعجب، من هذا الفيض الذي ظل يتدفّق من أقلام الشداة والشبان، الذين لا أشك في أن بينهم من لم ير الشاعر إلا في الصور التي نشرت له، ولم يقرأ له إلا ما نشر في: (الشعراء الثلاثة) وفي: (شعراء الحجاز في العصر الحديث) وهما المؤلفان المعروفان للأستاذ (عبد السلام الساسي) وقد لا أكون مبالغاً ومسرفاً في الشك، إذا ذهبت إلى أن بعض من كتبوا عنه ـ وبحرارة ـ لم يطلع حتى على ما نشر له في هذين الكتابين.

وإذا كان لا بد من تفسير لهذه الظاهرة، ولا بد أن نسميها (ظاهرة)، فهو أن أقل القليل من هذا الذي نشر له وعنه، كان له من الأثر في النفوس، والإيغال في المشاعر، والرسوخ في الأذهان ما لم، ولا يتوفر لغير حمزة شحاتة، إلا بالكثير المتوالي من عطاء منشور، وعلاقة موصولة.

وهذا يؤكد ـ مرة أخرى ـ أن حمزة شحاتة في حياتنا الأدبية كان وما يزال القمة التي عرفت، ولكنها لم تكتشف... فهؤلاء الشداة والناشئون الذين صالوا وجالوا بأقلامهم على اختلافها قوة وضعفاً وسطحية وعمقاً لا يختلفون عن أولئك الذين يشهدون إحدى قمم الهيمالايا، ويؤخذون بشموخها، ولكنهم يلتزمون الصّمت إذا ما سئلوا عن هذه القمة تكويناً يتعقد، ومسالك تتوعّر أو تسهل، ومداخل تتجهّم أو تهش، وأنواعاً من المعادن النادرة، والأحجار الثمينة، تظهر على السطح فتنالها الأيدي، أو تتستر وتتوارى في الأعماق، فلا يصل إليها إلا المختصون في التنقيب عن

المعادن، إلى جانب أنواع من الدوح وصنوف من الحشائش والأعشاب، لها من ألوان الزهر، وغرائب الشكول، ما لا يعرف خصائصه، وفصائل انتمائه، إلا كبار الأخصائيين في النبات من علم الأحياء.

ولا أحب أن أتورط فأزعم، أني استطعت اكتشاف هذه القمة، وأن هذا الحديث يكشف، أو يعرض الكثير من المجهول عنها. . . وأرجح الظن أن رصفاءنا من الشيوخ، لا يرضيهم بل لا يرضيني أنا معهم، أن تقال الكلمة الأخيرة أو الوافية المنصفة، التي تعطي (حمزة شحاتة) حقّه، وحق أدبه وعبقريته من البحث والتحليل والتقدير، في مثل هذا الحديث، الذي يمكن أن أسميه مقدمة.

فإذا لم يقدر لي هذا ـ وظاهر الحال يؤكّد أنه بعيد المنال ـ فإن في شبابنا الجامعي المؤهل وهو يتفرّغ لتحضير رسالة في مستوى الماجستير، أو مستوى الدكتوراه، من أرجو أن تحفزه هذه المقدمة أو هذا الحديث كما أحب أن يسمى، إلى أن يجعل إحدى هاتين الرسالتين عن حمزة شحاتة شاعراً وأديباً وفيلسوفاً. . . أو فلنقل رائداً من رواد الفكر في هذا البلد الذي يكفيه حين تقفر حياته الفكرية طيلة ما يقرب من نصف قرن، ممن يمكن أن يعتبروا رواداً، أن يكون فيه ومن أبنائه البررة حمزة شحاتة رحمه الله.

كيفَ عرفته؟

عرفت حمزة شحاتة ذات مساء، بعد إطلاق سراحه من معتقله في الرياض، مع عدد من شبّان تلك الأيام على أثر الفتنة التي شغب بها (حامد ابن سالم بن رفادة) وانتهت بمقتله وابنيه على مقربة من «ضبا» في الشمال من ساحل البحر الأحمر، في عام ألف وثلاثمائة وواحد وخمسين. وكان من هؤلاء الشبان أستاذنا الشيخ «عبد الوهاب آشي»، أول

رئيس تحرير لجريدة صوت الحجاز التي كان العدد الأول منها قد ظهر في يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر ذي القعدة عام ألف وثلاثمائة وخمسين. . . كما كان منهم الأستاذ «محمد حسن عواد» الذي كان بدوره مديراً لتحرير هذه الجريدة. . . وإذ كانت جريدة صوت الحجاز تصدر في مكة المكرمة وكنت من سكانها فقد كانت معرفتي بالأستاذ (عبد الوهاب آشي)، وبالأستاذ (محمد حسن عواد) أسبق من معرفتي بحمزة.

كنت أمشي خارجاً من مظلّة المسعى، إلى ساحة الصفا، برفقة صديق أرجو ألا تخذلني الذاكرة إذا قلت إنه الشيخ الأستاذ «صالح باخطمة»، وقد كان، وأرجح أنه لا يزال رغم صمته، من رجال القلم والفكر، مع الزهد في النشر، وإن كنت لا أنسى له جولات في صوت الحجاز ينشرها بتوقيع (المقنع).

كنا على موعد لزيارة الشيخ (عبد الوهاب آشي) لتهنئته بسلامة العودة وبالبراءة مما نسب إليه مع أخوانه. . . وسمعت الشيخ «صالح باخطمة» يهمس: (انظر. . . هذا الشاب. . . أبو نضّارة)!، وأشار بأصبعه، فرأيت شاباً، فارع القامة وثيق البنيان، عالي الجبهة، أسمر اللون وعلى رأسه تلك الكوفيّة التي كان شباب جدة يتأنّقون، ليس فقط في طريقة وضعها مائلة أو مستقيمة ومنحدرة إلى الوراء، أو متوثبة إلى الأمام، وإنما في معالجتها بالنشا والكي والتكوين الخاص. . . وعلى العنق، قطعة من القماش ما زلت أسميها (شالاً) ولعل لها عند إخواننا في جدة اسماً آخر. . . وقد تختلف هذه القطعة أو هذا الشال مادة ونسيجاً كما تختلف ألواناً وأثماناً، ترتفع فتبلغ عدداً من الجنيهات الذهبية، وتنخفض، فلا تزيد على عدد من الريالات الفضية. . . ولكنها ـ وأعني هذه القطعة من القماش ـ دائماً حول العنق، يتدلى طرفاها على الصدر، يحيط به المعطف ـ وكانوا

يسمونه «كوتا» ـ الذي يغلب أن يكون من لون الثوب، وهذا الثوب لا بد أن يكون ناصع البياض، كما هي الحال الآن ـ ولكن لا بد بالنسبة للمتأنقين المترفين من شباب جدة، أن يكون أقصر، أو قصيراً، يسمح بظهور السروال، (الذي لا يختلف عن البنطلون في شيء) وقد سمعت أن النساء كن يبذلن الطائل من الجهد لكيّه، وإبراز استقامة خط الثَّنْية فيه.

وأضاف الشيخ صالح باخطمة: (هذا أبو عرب. . . حمزة شحاتة) وكان يعرفه فاستوقفه مرحباً أو استوقفناه معاً، أمام بيت باناجة الذي كان يحتلّ الصدر من ساحة الصّفا للقادم من أجياد أو سوق الصغير، ويفصل بين المسعى والقشاشية.

وكان حمزة ذاهباً، هو أيضاً إلى منزل الشيخ عبد الوهاب آشي في القشاشية، فترافقنا وما زلت أذكر تصعيدنا في سلالم منزل الشيخ عبد الوهاب طابقاً بعد طابق، إلى أن وصلنا إلى السطح، أو «الخارجة»، كما كانت تسمَّى تلك الساحة ويسهر فيها الأصدقاء المقربون، في البيوت التي تتعدّد فيها الخوارج، هرباً من الحر وطلباً لنسمة الهواء.

ولا بد أن أذكر في هذه اللحظات إعجابي البالغ، بالمثال الذي بدا لي رائعاً للأناقة في هندام حمزة وملابسه. . . كان له ذلك المظهر السَّرِي الذي يذكِّرك بإحساسه المرهف ببواعث الشباب ونوازعه وما يستتبعانه من تعلّق بالترف، وحرص على التأنق، في إطاره من صرامة الرجولة، ودفقة عنفوانها واعتزاز بالشخصية وإحساس بالوزن الفكري تحلِّق به مشاعر النبل، وليس التنبّل، والرفعة، وليس الترفّع وصدق العاطفة فيما يفضِي به عن ذات نفسه، وخلوصها، وليس افتعالهما أو التظاهر بهما.

ويطول الحديث عن مراحل العلاقة بين حمزة، وبين أصدقائه في مكة حين يسكنها وبين هؤلاء وأصدقائه في جدة حين يعود إليها كلما استقال

كعادته من الوظائف التي يتقلّدها... بل قد لا ينتهي هذا الحديث إذا ما ذهبنا إلى استعادة ذكريات ليال، لم تكن تخلو من المرح والعبث، ولكنها تزخر وتزدحم أشد الازدحام أيضاً بالحوار والنقاش، حول ما لا يحصى من شؤون الفكر والأدب والفلسفة والفن والسياسة والأخلاق.

وما زلت أذكر، ولا ينسى رصفائي من الشيوخ، كيف كانت تنقضي الليلة من الغسق حتى الفجر في حوار حول آراء أفلاطون في جمهوريته، التي اشتريت أول نسخة منها بجنيه ذهبي ممن آن الأوان لذكر فضله على ناشئة تلك الأيام، باستيراد هذه الكتب أو اصطحابها معه في عودته من مصر وهو الشيخ «أحمد حلواني» في مكتبته، أمام دائرة البريد في القشاشية، وكانت أول ترجمة للجمهورية ظهرت في اللغة العربية بقلم (حنا خباز)... ثم حول الفارابي ومدينته الفاضلة، بل حول داروين ونظريته في أصل الأنواع، وقد ترجم كتابه الأستاذ «إسماعيل مظهر»، بل لست أنسى كيف كنا نتناوب على النسخة الوحيدة من كتاب أو كتب الدكتور «شبلي شميل»، رغم ما كان معروفاً عنه من تطرّف في الدعوة إلى التحرر من الآراء والعادات القديمة ومن تسليمه بمذهب داروين تسليماً مطلقاً انتهى به وبأمثاله في تلك الفترة إلى الزندقة والإلحاد... وهذا إلى جانب تهافتنا على جريدة (السياسة الأسبوعية) التي كان يصدرها ويرأس تحريرها الدكتور «محمد حسين هيكل» ومن محرريها المرحوم الأستاذ «إبراهيم عبد القادر المازني» والدكتور «طه حسين»، و«عبد العزيز البشري» و«عباس حافظ»، ومنهم، من لا بد أن يعتبر طليعة شعراء التجديد، المرحوم الشاعر (علي محمود طه المهندس) الذي نشر فيها قصيدة (البحيرة) لألفونس دي لامارتين، وقد نقلها إلى العربية شعراً منظوماً ومطلعها:

ليت شعري أهكذا نحن نمضِي   في عباب إلى شواطىء غمض

وما زلت أذكر أول عهدي بكتاب «الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني» ولم تكن دار الكتب المصرية قد أصدرت من أجزائه سوى الأجزاء من الأول إلى الخامس، وما كدت أراه مجلداً تجليداً أنيقاً، في مكتبة الشيخ «أحمد حلواني» حتى أخذت أوفر قيمة هذه الأجزاء من الراتب الذي لم يكن يزيد على ستة جنيهات ذهبية، تدفع (بقيمة اعتبارية قدرها عشرة ريالات) بينما قيمة الجنيه الذهبي في السوق، لا تقل عن عشرين أو ثلاثين ريالاً.

ويصدر في هذه الفترة، (كتاب في الشعر الجاهلي) للدكتور طه حسين، ونقرأ في الصحف المصرية، تلك الضجة التي أثيرت. . . فقرأناها وظللنا ندير الحوار حول آراء الدكتور طه وآراء من ثاروا عليه، ونعود إلى ما بين أيدينا من الشعر الجاهلي، وعلى الأخص منه المعلقات بشرح الزوزني فنجد بيننا من يسفّه آراء الدكتور، ومن يعتدل فيتروَّى ويطيل التأمل فيما قاله ويقوله خصومه والثائرون عليه.

وإذ كنا قد التفتنا إلى الدكتور «طه حسين» بكتابه هذا وبالثورة التي أطاحت بوزارة الحزب الذي نسيته الآن، ولعله حزب الأحرار الدستوريين فلم يكن لنا مناص من التهافت على ما يكتب في الصحف وما ينشره من كتب أو مقالات وعلى الأخص في جريدة الجهاد. . . وكأنَّ الشيخ «أحمد حلواني» كان يتحسس اتجاهاتنا، ويفهم مسار تطلّعنا دون أن يشعرنا بشيء، وهو ما يمتاز به عن المرحوم الشيخ (عبد الله فدا) وكان كتبيّاً عريقاً، ومعدوداً في الأدباء والخطباء. فإذا بالشيخ أحمد يستورد أو يعرض في مكتبته، كتاب (حديث الأربعاء) ثم كتاب (الأيام) للدكتور طه حسين أيضاً. . . فنشتريهما، ونعكف على قراءتهما حيناً وننصرف إلى سماع أغاني عبد الوهاب من فيلم الوردة البيضاء من جراموفون، نحكم سدّ بوقه أو

سماعته بالقطن حيناً أو المنشفة المبللة بالماء حيناً آخر. . .

ثم فاجأنا الشيخ أحمد حلواني أيضاً بكتاب لم يكن مما ينبغي أن نهتمّ به أو نُعنى بقراءته، إذ لم يكن أدباً ولا فلسفة، ولكنه يحمل عنواناً مغرِياً، كان عنوان الكتاب: (فقه السياسة لمؤلفه أحمد وفيق). . . وكان في مجلدين ضخمين. . . لا تقلّ صفحات كل منهما عن خمسمائة صفحة. فاشتريته بكل ما بقي من الراتب الضئيل. . . وجاء (حمزة) من جدة، في إحدى جيئاته، ورأى الكتاب، فنظّمْنا ما يُشبِه برنامجاً للقراءة وسماع أغاني محمد عبد الوهاب بطريقة سد البوق، في البيت الذي كنت أسكنه من أملاك (ملائكة) في ربع مغازل. . . ولا أذكر أني فهمت شيئاً ذا بال من هذا الكتاب، ولكن لم يكن بد من قراءته من الجلدة إلى الجلدة، ومن الحوار حوله، والمؤلف، يرجعنا إلى مصادر بحثه التي لم يسبق أن سمعنا بها قط.

وفي هذه الفترة أيضاً، صدرت طبعة منقحة ومصححة ومحققة من كتاب (العمدة) لابن رشيق. . . ثم طبعة لكتاب (فقه اللغة) للثعالبي، ولم يمض وقت طويل حتى صدرت طبعة جيدة لكتاب (يتيمة الدهر) للثعالبي أيضاً. . .

* * *

معركته مَع العواد!

ولست أذكر كيف وقعت الواقعة بين (حمزة) رحمه الله، وبين الأستاذ (محمد حسن عواد). . . وأهم ما يعنينا الآن، تلك المعركة حامية الوطيس التي نشبت بين الشاعرين. . . معركة هجاء مرير، قد لا نتقبّله خُلُقياً، وقد نضيق به أشد الضيق تجريحاً، ومساساً بما للشاعرين الكبيرين من كرامة

ووزن وسمعة نقيّة وخُلُق كريم، ولكنّا لم نكن نملك إلا الإعجاب بأصالة الشعر، وبالابتكار في تناول المهجوّ، تناولاً يُغرِق في التعريض بقيمة كل منهما، وبالأسلوب الرفيع، في أداء المعاني، وفي التصرّف المذهل، في وصف المختلق من الأحداث. . .

وبعض هذا الهجوم قد نشر في جريدة «صوت الحجاز»، وهذا أغرب ما يمكن أن يكتشفه اليوم من لم يعاصروا تلك الفترة من مسيرة الأدب في بلادنا. . . ولكن ما كان ينشره الأستاذ (عبد السلام الساسي)، ويحفظه عن ظهر قلب لكل من الشاعرين ظلّ ولا يزال هو الذي يعطينا نموذجاً من الفحولة التي لا تقل بحال عن نقائض وأهاجي الأخطل والفرزدق وجرير، في العصر الأموي، وعن ابن الرومي وبشار بن برد في العصر العباسي. . .

وما زلت أذكر، والأستاذ (عبد السلام الساسي) لن ينسى أبداً، مركازنا في «الأولمب» وهو تلك الهضبة التي تشرف على مزارع المسفلة وبركة ماجن. . . كيف كان يقف، ويلقي علينا قصيدة (العواد)، في هجو (حمزة) ثم قصيدة (حمزة) في (العواد). . . ولم يكن يقرأها في ورقة مكتوبة، وإنما من حافظته الغريبة حقاً وإن كان لا بد من أن نعترف بمشاعرنا نحو البطلين في هذه المعركة ـ وقد شارك فيها الأستاذ (أحمد قنديل) نصيراً لحمزة والأستاذ (محمود عارف) نصيراً للعواد، فلا أخفي أني كنت أشدَّ إعجاباً بقصائد حمزة في هجو العواد. . . وما زلت أذكر، أني كنت في القاهرة، ولي فيها صديق أزهري، يحفظ المئات أو الألوف من قصائد ومقطوعات الشعر القديم، جمعني به لقاء، دار الحديث فيه عن الشعر والشعراء فذكر على جاري العادة فيما يذكر عن الشعر في الحجاز قديماً. . . عمر بن أبي ربيعة، وغزله، وأخذ يترنم:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجّر

ثم انتقل إلى العصر الأموي، والنقائض، وأهاجي جرير والفرزدق والأخطل... ولست أدري كيف ذكرت أبياتاً من هجاء حمزة في العواد رويتها له ويتعذّر أن أرويها الآن وقد التزم حمزة في قافية القصيدة، التاء المكسورة والهاء الساكنة... مثل: آهاته... وفلتاته...

فما كاد صاحبنا الأزهري يسمعها، حتى وقف مهتاجاً صائحاً: (يا سلام... يا سلام... مستحيل أن يكون في الحجاز شعر بهذه القوة في هذه الأيام).

ولا بأس، ونحن في مجال هذه الذكريات البعيدة أن نقول: إن أخانا الأستاذ (عبد السلام الساسي) قد نشر في كتابه الشعراء الثلاثة قصيدة بعنوان (ملحمة) لحمزة رحمه الله وكانت واحدة مما نشر في صوت الحجاز. ولكننا لا نجد حرجاً، في أن نرى ختام هذه الملحمة التي يقول فيها حمزة:

حدث الليل... قال: وانفرد ... البحر يواسيه شاطئ مهجور
ادبرتْ عنهما الحياة وأهلوها ... فذا ضاحل وذا منذور
قُنَّعاً صاغرين بالواقع البخس ... ويرضى بعيشه المكثور
ومضى الدهر، لا يثقّل رجلاً ... تستوِي عنده صَبا ودبور
هازئاً بالغرور والضعف ... والباطل والدهر بالحياة بصير

ذلك استطراد استلزمه ما لا يزال يذكره الشيوخ، من زملاء الفقيد، وما لن تتم الصورة عن حمزة رحمه الله إلا باللجوء إليه، وما أظن، أن مما يتّسق مع الرغبة في تكامل اللمحة عن الشاعر، أن نتخطَّى ما لا ينبغي أن يُعدَّ في المباذل، ما دام القصد هو محاولة اكتشاف هذه القمة الشامخة.

* * *

مَسيرته الثقافِية. . .

ونعود إلى الخلفيات الثقافية في حياة الشاعر، وفي حياة رصفائه في تلك الأيام. . . ولا أجد بُداً من وقفة قصيرة عند لطفي السيد باشا، فقد كنا نتسامع بعبقريته وعلمه وفضله على العلم والعلماء والأدب والأدباء، والفكر والمفكرين. . . كما كنا نتسامع عن ترجمته لكتاب (السياسة) لأريسطو طاليس. . . عن الترجمة الفرنسية لبارتي سانتيهيلير. . . فنتمنَّى أن نرى هذه الترجمة مطبوعة. . . ولم تطبع إلا في عام ١٩٤٧ وأذكر أني كنت في القاهرة وكان حمزة رحمه الله قد استقر فيها، فما أسرع ما أخذنا نتدارسه معاً. . . فينقضي الليل، وينام من في البيت من الأهل والأطفال. . . ويستيقظون في الصباح ليجدونا لا نزال كما تركونا في الساعات الأولى من الليل. . . وأطباق الرماد طافحة بأعقاب السجاير، وأكواب الشاي تتثاءب فراغاً وحلق كل منا يتقصّف جفافاً، فلا نكاد نلمح من استيقظ، حتى نستنجده بطلب شاي جديد، لنبدأ أو لنواصل الحديث عن أريسطو، وعن ذلك الغرض البعيد، الذي استهدفه (لطفي السيد) من ترجمة هذا الكتاب بالذات ومقدمة سانتيهيلير فيه على الأخص. . . بل ذهبنا إلى أن لطفي السيد لم ينقل الكتاب إلى العربية، إلا لينقل إليها هذه المقدمة. . .

وأدَعُ جانبا تلك الدفقة الكبيرة من القصص التي نشط لنقلها إلى اللغة العربية أساطين فن الترجمة في مصر، من أمثال المرحوم الأستاذ (إبراهيم عبد القادر المازني) في قصة (ابن الطبيعة) للكاتب الروسي المغمور (هاتز بياتشيف)، وقد نقلها المازني عن الإنجليزية، ولهذه القصة في حياتنا، تلك الأيام أثر لا ينسى، فقد كان يطيب لحمزة رحمه الله، أن يسمِّيَ كلاً منا بأسماء أبطال القصة، ويختار لنفسه بطلها الأول أو الأظهر الذي تدور حول حياته القصة كلها، وهو «سانين»، واختار لي اسم (يوري) ولست

أذكر بماذا سمَّى بقية المجموعة من الأصدقاء. وقد نشر المازني، بعد أكثر من عشر سنوات قصة بعنوان إبراهيم الكاتب اتهمه بعض النقاد بأنه قد سرقها من (ابن الطبيعة)، وقد قرأنا القصة، واستسْخفتُ أنا رأي هؤلاء النقاد إذ لم يكن في وسع المازني أن يستغنيَ أو أن يتخلَّى عن أسلوبه فيما يكتب، من أدبه أو من الآداب التي ينقلها إلى العربية، وكانت وجوه الشبه بين القصتين، تنحصر في هذا الأسلوب الرفيع الذي عُرف به المازني رحمه الله.

ومن القصص التي لا بد أن تذكر، وتعتبر من الأسس في خلفياتها الثقافية، قصة (تاييس) و(الزنبقة الحمراء) لأناتول فرانس، وكان مما دار بيني وبين (حمزة) عن أناتول فرانس في هاتين القصتين، أن إنسانية فرانس، ومعالجته لموضوع العهر والطهر، بالنسبة لتاييس، والراهب بافنوس، قد انطوت والتفَّتْ أو هي اندثرت في الجو الخاص الذي تدور فيه أحداث الزنبقة الحمراء، وأن حريته المطلقة التي مارسها في تصوير (تاييس) الغانية، ثم (تاييس) القديسة قد جمدت جمود الكريستال على الموائد المترفة، وجمود الماس واللؤلؤ على صدور النساء في حفلات العشاء التي يدور حولها الأبطال في (الزنبقة الحمراء) ومع ذلك، فلم نكن نملك إعجابنا بأسلوب فرانس وتصويره الرائع للصراع الرهيب الذي ظل يعانيه الراهب (بافنوس) مع أفاعي الجنس التي تنهش صدره، والذئاب الجائعة في أعماق نفسه المحرومة من مطلبها الغريزي... كان صورة أخاذة، عبقرية الملامح والألوان والسمات، لقدرة فرانس كفنان منطلق لا سبيل إلى أن تقف أمام ريشته وأفكاره أية سدود أو قيود. وأذكر كيف كنا نعض أصابعنا أسفاً، على جهلنا باللغة الفرنسية، لنقرأ المزيد مما كتبه (أناتول فرانس) ولم يطلْ بنا الانتظار، فقد ترجم له من لا أذكر اسمه الآن ـ وليس من أعلام الترجمة ـ

كتاباً باسم (حديقة أو مائدة أبيقور) فيلسوف اللذة المعروف ثم وقع في أيدينا كتاب آخر للأمير (شكيب إرسلان) عن (أناتول فرانس في مباذله) وبذلك توهمنا أننا قد استكملنا بعض ما كان ينقصنا عن الإلمام المعقول بأدب (أناتول فرانس)، ومن المؤسف أننا لا نجد من يهتم بإعادة طبع هذه الكتب اليوم، لنعود إلى شرائها، بعد أن بعتها في مزاد.

وإذ أذكر هذه القصص، لا أنسى، ولا ينسى رصفاؤنا الشيوخ، رواية نقلها إلى العربية (طانيوس عبده) تحت عنوان (أهوال الاستبداد) كاتب روسي نسيت اسمه الآن، ثم (أنّا كارينينا) لتولوستوي ولم تكن قصة (الحرب والسلام) وهي من أشهر أعمال تولوستوي قد نقلت إلى العربية بعد، ولكن لم يفتنا أن نقرأ ما يكتب عنها في المجلات والصحف وعن تولوستوي نفسه، وما زلت أذكر كيف كان تطلعنا إلى إنتاجه يزداد ويحتدم وبالأخص يوم قرأنا كلمة نسبت إلى (بيرناردشو) يقول فيها عن كتاب لم ينقل إلى العربية باسم (ما هو الفن؟) لتولوستوي: (ها نحن نسمع صوت أستاذ بحق). . . وبالتتبع وبما كانت تحفل به مجلات تلك الأيام، عن أعاظم كتَّاب الأدب العالمي، استطعنا أن نكون حصيلة لا بأس بها من المعلومات والأفكار عن كثيرين ممن ذكرت وممن لا يتسع الوقت لذكرهم في هذا الحديث.

أما أدب المهجر، وعلى الأخص من أدبائه (جبران خليل جبران) و(إيليا أبو ماضي) و(ميخائيل نعيمة) فليس بيننا من ينكر أثرهم في بداية مراحل هذه الثقافة الذاتية، ومثل هذا الأدب وفي بداية تلك المرحلة أيضاً، يمكن أن نذكر كتب (مصطفى لطفي المنفلوطي). . . ولكن ما كدنا نوغل في الأمّهات من كتب الأدب العربي، وفي الروائع من المنقول إلى العربية من الأدب العالمي، ولجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر

صاحبة الفضل الكبير، في هذا النقل، حتى أخذنا نشعر بأن أدب المهجر يمكن أن يوقظ المشاعر ويوجهها نحو أجواء الفن، ولكنه لا ينميها، ولا يبني العضلات الفكرية القوية، وأن أدب المنفلوطي يمكن أن يصلح للشداة والناشئين إذ يغري بالقراءة، ويعين على تكوين محصول قوي أحسن المنفلوطي اختياره من مفردات اللغة العربية، التي يسهل تناولها وربما هضمها في قصة كما جدولين أو سيرانودي برجراك، بينما يتعذر هذا الهضم على الشادي والناشىء، إذا ما قرأ «البيان والتبيين» للجاحظ، أو «مقدمة ابن خلدون» أو أي كتاب لأبي حيان التوحيدي. أطلت دون شك، فيما يبدو استطراداً، وجنوحاً عن الحديث عن القمة التي لم تكتشف، ولكني أتحدث عن مسيرة ثقافية عشناها مع الفقيد في ظروف، كانت فورة الشباب، ونوازع الطموح ومشاعر الإيمان بحق الوطن علينا، تخفف من عسرها ووعثاء الرحلة ووعورة مسالكها، مع ضعف الموارد وانعدام أسباب الدعة والرخاء... بل وانعدام الضوء الذي نسهر به عاكفين على القراءة والبحث والمتابعة باستثناء (الفانوس الهندي) الذي نفضِّل الحجم الصغير منه، لندخله معنا في «الناموسية»، رغم شدة الحر، واحتباس النسمة، هرباً من البعوض، وإصراراً على القراءة والدرس مع عدم التخلّف عن العمل في الوظائف التي نشغلها في أوقات الدوام المقررة، وقد كانت تعرف البداية في الصباح، ولا تعترف بالنهاية، ما دام هناك عمل يجب أن يُؤَدَّى، ولو استغرق ساعات طويلة من الليل. ولا أستطيع أن أؤرخ لدخول ما يسمى (الاتريك) في حياتنا ولكني أذكر فرحتنا به حين أصبح من الميسور شراؤه، بفتيلته وغازه، وعملية نفخه وشحنه بالهواء، ولا أخفي أننا كنا نشعر بالزهو، حين نستعد به لاستقبال الزائرين والضيوف، ولعل انتفاخة الزهو ونحن نراه يضيء (المجلس) كانت لا تقلّ عن انتفاخ

الاتريك نفسه، مع إحساس بأننا ـ والحمد لله ـ قد أخذنا طريقنا إلى ما كنا نسمع عنه، ولا نرى له أثراً من حضارة القرن العشرين وبعد. . . فقد قلت إن حمزة شحاتة يبدو، وكأنه قد ولد قمة منذ درجت قدماه على تراب هذه الأرض، وللقارىء أن يسمي هذا مبالغة وإسرافاً في التقدير، ولا أنكر أن التعبير ينبض بهذا المعنى ولكن عندنا من الشواهد، ما يجعلنا نتساءل ونحن نستعرضها: متى؟؟؟ وكيف؟ استطاع حمزة أن يهضم كل الذي هضمه وتمثله من ثقافات، مصادرها التراث العربي القديم من جهة، ثم ما شهده الأدب العربي من تطور خلال فترة يمكن أن تحدد بما لا يقل عن قرن من الزمان من جهة أخرى.

صحيح أنه كان يقرأ ما نقرأ. . . وصحيح أن ما كان يصل إلى أيدينا من الكتب، كان يصل إليه أيضاً ولكن، كيف تأتى له ذلك النضج العقلي والفني وهو بين مرحلة الصبا الغضّ والشباب في فجره دون ضحاه؟

* * *

مَولده وَتعليمه. . .

ولد حمزة شحاتة بمكة المكرمة في عام ألف وثلاثمائة وثمانية وعشرين، وأتمّ دراسته في مدرسة الفلاح بجدة، وكان واحداً ممن ابتعثهم مؤسس هذه المدرسة ومثيلتها في مكة المرحوم (الحاج محمد علي زينل رضا) للدراسة أو لاستكمالها في الهند. . . ولست أدري إن كان قد زامل السيد (محمد حسن كتبي) أم لا. . .؟ ولكني لا أشك في أنه قد زامل المرحوم الشيخ (عبد القادر عثمان)، إذ أجد لحمزة قصيدة عارضها، أورد عليها من نفس الوزن والقافية الشيخ (عبد القادر) في مطلعها:

سلام النيل يا غاندي   وهذا الزهر من عندي

يقول:

ولــو ســاعــفــنــي الــدهــر   لــقــابــلــتــك فــي الــهــنــد
ولــكــنــي كــمــا تــدري   فــقــيــر عــاثــر الــجــد
أضــعــت الــبــيــت والــقــر   شــيــن فــي الــتــهــلــيــس والــجــد
وبــعــت الــعــنــزة الــكــبــرى   عــلــى صــاحــبــنــا الــسِّــنــدي
وأمــا ســائــر الــعَــفْــش   فــقــد صــادره وجــدي

ووجدي هنا شخصية حقيقية، فقد كان أحد ضباط الشرطة في جدة.

ثم يقول:

لــقــد أوحــشــتــنــي جــداً   ومــالــك ســلــوة بــعــدي
كــلانــا مــخــفــق الــمــســعــى   وبَــرْبَــنْــدك بــربــنــدي
فــأرثــيــك وتــرثــيــنــي   لــعــل رثــاءنــا يُــجــدي
وقــد ضــيّــعــنــي قــومــي   وقــد مــا أنــكــروا جــهــدي
ومــا بــددت مــن وقــت   ومــا فــرّقــت مــن نــقــد
ولــمــا طــقّــنــي الــفــقــر   وأضــحــت أمــتــي ضــدي
تــوكّــلــت عــلــى الــمــولــى   وعــوّلــت عــلــى زَنْــدي
أبــيــع الــفــول والــحُــلْــبــة   والــفِــصْــفِــصَ والــمــنْــدِي
فــطــوراً الْــتَــقِــي أكْــلــي   وطــوراً أطْــفــح الــدِّرْدِي

ولا بأس بأن نقرأ المزيد من هذه القصيدة الضاحكة فهو يقول:

وكــان الــحــال مــســتــوراً   وأشــغــالــي عــلــى قَــدِّي
ولــي جــار رقــيــق الــحــال   يــدعــى الــحــاجْ خــوجَــنْــدي

ركـنـت إلـيـه مـن غُـلْـبـي فـجـازانـي عـلـى ودِّي
بـأن رشّـحـنـي يـومـاً لـدى الـتـعْـديـن فـي الـمـهْـد

وهو يقصد شركة التعدين التي كانت أعطيت امتياز التنقيب عن الذهب في المهد بالقرب من المدينة المنورة:

فـرحـت وكـنـت مِـرْطـانـاً أسـمِّـي الـنـور، نـورْمَـنْـدي
فـرقـانـي الـمـديـر إلـى وظـيـفـة كـاتـب الـجَـرْد
وكـان إذا رآنـي قـا ل (قُـودمـورْنـنـج، أوفـرنـد)
فـلـمـا ثـارت الـحـرب وجـرَّ الـويـل هـتـلـردي
أقـالـونـي وردّونـي وصـحّ الـجـمـع فـي جُـغْـدي
ونـاهـيـك بـحـرٍّ نـا م فـي الـبَـرْدِ بـلادَ قـدِي

والد قدي، هو الدَّقْديق، ولا أعرف أصل الكلمة، ولكن يقصد بها نوع من الأغطية التي ترفق عند النوم اتقاء للبرد كالتي نسميها (البطّانية) في هذه الأيام. . . أو قد تكون العباءة تصنع من الصوف والوبر في جبال الحجاز والطائف.

تـمـنَّـى سُـتْـرةَ الـحـال فـلـم يـعـثـر عـلـى صـلـدي

والصلد هنا قطعة نقد إيطالية. . .

ولـو انـصـفـت الأيـا م حـابـتـه بـاوكـلـنـدي

والأوكلاند، نوع من السيارات الأمريكية الفارهة، تصنع في تلك الأيام، ولعل القدماء من موردي السيارات يعرفون مزاياها، أو يعرفون، ما الذي حل بها، فلم تعد تتواجد في الأسواق.

إلى أن يقول:

فـــمـــا رأيـــك فـــي أمـــري   إذا جـــئـــتـــك والـــقـــنـــدي

والقندي هنا هو صديقه الحميم (أحمد قنديل) الذي نَدَر أن يُرى (حمزة) في مكان دون أن يرى معه القنديل وقد ظلَّ ذلك شأنهما سنين في المملكة، ثم في القاهرة.

وهـــل عـــنـــدك مـــا يـــكـــفـــي   مـــن الـــشـــاول والـــهُـــرْد
وهـــل نـــلـــقـــاك مـــرتـــاحـــاً   إلـــيـــنـــا، أو شَـــلُـــوجَـــلْـــدِي

لا أعرف ما هو الشاول، ولعله الأرز في لغة الهنود، والهرد بهار معروف، أما شلو... فكلمة هندية يطرد بها من لا تحب أن تراه كما نقول (برّة... أو اطلع برّة)... وجلدي... كلمة هندية أيضاً معناها (بسرعة).

وليس في كتاب الأستاذ عبد السلام الساسي، ما يشير إلى تاريخ نظم هذه القصيدة، ولكن هناك ما يدل على أنها نُظمت في أيام الحرب العالمية الثانية وهو قوله:

فـــلـــمـــا ثـــارت الـــحـــرب   وجـــرّ الـــويـــل هـــتـــلـــردي

ونجد في (شعراء الحجاز في العصر الحديث) للأستاذ (عبد السلام الساسي) أيضاً: قصيدة المرحوم الشيخ (عبد القادر عثمان) من نفس الوزن والقافية يقول فيها:

تـــحـــايـــا الـــحـــب والـــوجـــد   لأصـــحـــابـــيَ فـــي الـــهـــنـــد

وأشـــواقـــي تُـــؤرِّقـــنـــي	وتـرمـي الـجـفـن بـالـسـهـد
وذكـــرى لا تـــفـــارقـــنـــي	ولـــو وُوريـــتُ فـــي لـــحـدي

ومن أهمّ ما يلفت النظر في هذه القصيدة قوله:

ولِـــي أشـــعـــار أخـــفـــيـــهـــا	لـــتـــنـــشـــر فـــي الـــورى بـــعـــدي
ســكـبـت حـــوادثـــي فـــيـــهـــا	وقـــد فـــاقـــت عـــلـــى الـــعـــدّ

فالذين يؤرخون للأدب السعودي، أو يجمعون شتاته، قد يجدون هذه الأشعار التي يخفيها الشاعر لتنشر في الورى بعد وفاته، خصوصاً وأنه قد سكب فيها حوادثه.

وهو لا شك يردّ على حمزة حين يقول:

لـــئـــن ضـــاقـــت بـــمـــا رحـــبـــت	عـــلـــيَّ الأرض فـــي الـــهـــنـــد
أتـــيـــت ديـــار أمـــجـــاد	وعُـــرْبـــاً مـــن بـــنـــي ســـعـــد
فـــألـــقـــيـــت عـــصـــا الـــتِّـــسْـــيـــار	بـــيـــن مـــعـــالـــم الـــمـــجـــد
ولاقـــيـــت مـــن الـــتـــكـــريـــم	ألـــوانـــاً مـــع الـــحـــمـــد
فـــفـــي الإحـــســـاء تـــرحـــيـــب	يـــرد صـــداه فـــي نـــجـــد
وفـــي جـــدة والـــطـــائـــف	أيـــاد سُـــجِّـــلـــت عـــنـــدي

وهو يختتم القصيدة بهذه الأبيات التي تعود إلى الشكوى، من وعثاء الحياة التي كان يلقاها فلا يختلف عن المضمون الذي ذهب إليه حمزة، إلا في روح السخرية الضاحكة عند حمزة، والعابسة الجادة عند الشيخ (عبد القادر عثمان)، فهو يقول:

أصـــيـــحـــابـــي تـــلـــومـــونـــي	ومـــا أبـــقـــيـــت مـــن جـــهـــد

أتـــرضـــون بـــأن أحـــيـــا   كـــئـــيـــبـــاً عـــاثـــر الـــجَـــدِّ
وأقـضـي الـعـمـر في نَـصَـبٍ   وفـــي شَـــغَـــب وفـــي كـــدّ
وأحـــســـب مـــال قـــارون   ومـــا خـــردلـــة عـــنـــدي

وفي هذا البيت إشارة إلى أنه كان يعمل محاسباً في أحد البيوت التجارية، التي يشبه ثراءها بثراء قارون ولا ندري بالطبع أي بيت هو، في تلك الأيام...

واحـــســـب مـــال قـــارون   ومـــا خـــردلـــة عـــنـــدي
أضـيء كـأنـنـي الـمـصـبـا   ح والـنـيـران فـي كَـبْـدي
فـهـل فـي شـرعـة الإنـصـاف   يـحـيـى الـحـر كـالـعـبـد
إذا لـــم يَـــكُ مـــن حـــدِّ   فـــإنـــي واضـــعُ الـــحـــدّ

ولا ندري كيف وضع الشيخ (عبد القادر) هذا الحد، وإن كنا نعرف أنه توفي مستور الحال موفور النعمة رحمه الله.

وهذا الشعر الضاحك في قصيدة حمزة، الذي تختلط فيه العامية بالفصحى، تزعّمه ولعلّه أول من بدأه، الأستاذ (حسين شفيق المصري) رحمه الله وله في كثير من مجلات مصر، وعلى الأخص (الفكاهة) من مجلات دار الهلال، روائع حافلة بالتعبير الكاريكاتوري عن مشاكل مصر، يبلغ النقد فيه بهذا الأسلوب الساخر الضاحك، ما لم تكن تبلغه المقالات الجادة بأقلام كبار الكتاب، والسبب بالطبع هو اقترابه من مستوى الجماهير، وهي في مصر مولعة بالنكتة والمفارقة، وقد شارك في هذا النوع من الشعر وبرع فيه، إلى حد القدرة على ارتجاله، الشاعر المرحوم (محمد مصطفى حمام)... ولا أعرف من الذي سبق حمزة في المملكة،

ولكن الأستاذ (أحمد قنديل) وهو كما قلنا صديق حمزة ورفيق دربه الطويل، يكاد يكون الوحيد في المملكة اليوم، الذي لا يزال يتحفنا به حتى الآن.

قلنا إنه ابتعث إلى الهند، وهناك من يقول إنه لم يبتعث، وإنما طلب للعمل في بيت الحاج (محمد علي زينل رضا) رحمه الله، بغرض تدريبه على إمساك الدفاتر التجارية في بيت زينل في جدة، وقد لا يخلو هذا من الصحة، إذ كان حمزة من الأوائل الذين نظموا قيودهم التجارية، عندما كان يمارس التجارة مع أخيه المرحوم الشيخ (محمد نور شحاتة) في جدة، بطريقة القيد المزدوج، وهو ما لم يعرف أو يأخذ به المحاسبون في البيوت التجارية عندنا، إلا منذ أقل من خمسة عشر عاماً، وإذا صدق من روى لي ذلك، وليس لي أن أشك، وقد كان الراوي رجلاً ممن مارسوا الأعمال الحسابية، لأكثر من بيت تجاري، في جدة إلى أن أصبح من كبار الموظفين في أحد البنوك.

ثم، الأغرب، من هذا كله أن تلك الآفاق الثقافية التي كان يحلق فيها حمزة حين يتحدث أو يكتب، شعراً أو نثراً، لم تكن تعتمد على مصادر في غير اللغة العربية إذ لم يكن يجيد الإنجليزية، وإن كان لا يجهل الكثير من مفرداتها، ولا شك أن إقامته في الهند لم تتح له أن يتعلم الأوردية وهي الأكثر شيوعاً واستعمالاً، فضلاً عن السنسكريتية.

❊ ❊ ❊

الكاتب. . . الخطيب. . . الفنّان!

ومع أن حمزة رحمه الله قد كتب الكثير الذي لم ينشر، ومنه رسائله إلى أصدقائه وكل رسالة منها تحفة جديرة بأن تعتبر نموذجاً لأرفع من

مستويات النثر في الأدب العربي الحديث، فإن ما أجده في متناول اليد، وأنا أكتب هذه السطور، هو محاضرته التي ألقاها في جمعية الإسعاف الخيري بمكة المكرمة وكانت كجميع أعماله الأدبية لم تنشر، وكل حظها من الشهرة والانتشار هو سماعها يوم ألقاها، وكنت ممن سمعوها، وما زلت أذكر كيف ازدحم المكان الذي ألقيت فيه ـ وهو البناية التي كانت دائرة للبريد في عهد الحكم العثماني ثم الهاشمي ثم نقل البريد إلى القشاشية لتصبح البناية مقراً لجمعية الإسعاف ـ بل أذكر كيف بلغ ازدحام الراغبين في الاستماع إلى المحاضرة، حد وقوف الكثيرين في السلالم، وفي الشارع يصغون إليه وهو يلقيها بصوته الجهوري ـ وليس المنبري ـ ولا بد أن أذكر أنه كان رائعاً في إلقائه، ساحراً في السيطرة على أعصابه، فليس هناك انفعال، ولا اصطناع للحماس، ولا توثب أو إشارات بالأيدي، مما كانوا يعلموننا في المدارس أن نلتزم به عندما نلقي الخطب في الاحتفالات. . . فإذا لم ننس أن جهاز الراديو لم يكن قد انتشر في المملكة وأن فن الإلقاء الإذاعي الحديث أو القديم لم يكن معروفاً، فإن طريقة إلقائه لهذه المحاضرة كانت وحدها ظاهرة لا أزال أذكرها ولا أملك إلا أن أعجب بها وأعدها فيما يُعَدّ له من تفرد وامتياز في الكثير مما تفرد وامتاز به مما أرجو أن يتسع الوقت لإيجاز الحديث عنه.

وكأني ـ والحديث عن المحاضرة ـ قرأت للأستاذ (محمد حسين زيدان)، أن حمزة قد ارتكز واستمد عناصر محاضرته من كتاب (علم الاجتماع) لنقولا حداد. . . وأنا أختزن ما قرأته للأستاذ (زيدان) إلى هذه اللحظة لأقول له ولمن قد يرى رأيه: إن حمزة كان يتمتع فعلاً بمعدة فكرية جبارة القدرة على الهضم والتمثيل، وكان هذا الكتاب مما تواجد عندنا مع الكثير غيره من الكتب التي ذكرت بعضها، ولكن الفرق كبير جداً

بين القدرة على الهضم والتمثيل، وبين العمل المبتكر الأصيل في هذه المحاضرة بوجه خاص. ولا ينسى الأستاذ «محمد حسين زيدان»، كما لا ينسى الأساتذة «محمد عمر توفيق»، و«أحمد قنديل»، و«عبد الله عريف»، و«حسين بن سرحان»، و«محمد حسن فقي»، أن «حمزة» كان من القلائل ـ في العالم العربي ـ الذين لا يرضون لأنفسهم أو لأعمالهم أن تلمع فيها بارقة اقتباس أو تأثر أو تقليد. . . كانت أبرز خصائصه ـ وهي في نفس الوقت سبب الكثير من المتاعب التي واجهها في حياته ـ ذلك التعشق الملهوف للاستقلال الفكري، والحرص الممض على الابتداع، والترفع عن الاتباع، ليس فقط فيما يكتب من شعر أو نثر، أو فيما يديره من حوار ونقاش، وإنما في مسيرة حياته الخاصة حتى لقد كان يتعذر على مخالطيه وعشرائه من أصدقائه بل وأهله أن يفسروا الكثير والغريب ـ بل والمذهل أحياناً ـ من تصرفاته، وليس من تفسير سوى هذا التعشق للاستقلال والتفرد بالخصائص والسجايا وأنماط السلوك. . .

وقبل أن استشهد ببعض ما جاء في هذه المحاضرة من آرائه، وفي تعبيره عن هذه الآراء كنموذج لأسلوبه، أحب أن أذكر ما قد يلقي بعض الضوء على قدراته وطاقاته، مما قد لا يدخل في الأدب والفلسفة والفن، ولكنه ـ مع ذلك ـ يستكمل الصورة إلى الحد الذي يقرِّبها من التصور وإن كان سيظل بعيداً أشد البعد عن كشف أو اكتشاف المكنون والسامق من سموها، والباذخ المترف من مدخورها.

يحضرني حديث دار بيني وبين معالي الأستاذ (حسن آل الشيخ)، عن حمزة رحمه الله، وكان قد زاره في منزله في الجيزة، قبل وفاته بأسابيع قلائل. . . وخلاصة حديث الأستاذ الوزير عن الفقيد، هو إعجابه البالغ بسعة آفاقه، وعمق تفكيره وبعد نظراته وتأملاته، وطلاوة حديثه، وسرعة

خاطره... وأذكر أني قلت لمعاليه: إن خصيصة حمزة التي تبدو خليقة من خلائق العبقرية النادرة، هي القدرة على إتقان ما يولع بإتقانه، بحيث لم يكن يرضى قط إلا بأقصى مراتب التفوّق فيما يعن له أن يُعنى بمعرفته ودرسه... كان لا يكتفي بمجرد الإلمام، على قاعدة الأخذ من كل فن بطرف، وإنما الذي يجهد نفسه فيه، هو استغراق واستيعاب كل ما يستهدفه من عناصر تكوينه ومادة وجوده... ولا يقف ما كان يولع به عند الشعر أو النثر أو الفلسفة أو علوم اللغة العربية وتاريخها وأدبها القديم والحديث، أو ما يتصل بكل ذلك من المعارف وألوان الثقافة وأغذية الفكر، بل ينسحب هذا الحرص على التفوق والإتقان حتى على أسباب اللهو... فقد تعشّق الموسيقى والعزف على العود مثلاً، فلم يكتفِ بأن يكون واحداً من المعدودين في الحجاز بالبراعة النادرة في هذا العزف، إنما عكف على دراسة الموسيقى العربية، مقامات وأنغاماً ومصادر لهذه المقامات والأنغام وتاريخها عند الفرس، وفي الأندلس، وعند الأتراك، وفي حلب، وما يتولّد من هذه المقامات وكيف تتعاشق وأين تتنافر، وما يقال عن علاقة بعضها بالساعة من الليل أو النهار... ثم... الموسيقى (صوت)... فلا بد إذن من دراسة «علم الصوت» في مصادره من كتب الطبيعة في مستوى المراجع، وليس في مستوى الكتب المدرسية... كيف يحدث؟... وكيف يتردد؟ وهل يفنى أم لا يفنى؟ ولماذا لا يفنى؟

والدليل أو الأدلة على كل ذلك، وكيف يبلغ من تأثيره في خلخلة الهواء، أو تمويجه وتحريكه أن تحطم (سحبة) القوس على وتر من أوتار الكمان الزجاج أو ما هو في صلابة الزجاج من الأشياء... ثم ينتهي فيقول لي: ومنذ أكثر من عشرين عاماً ـ ما الذي يمنع أن يخترعوا آلة

مدمرة، لا تعتمد على القنابل أو الديناميت أو حتى على الذرّة، وإنما على الصوت وحده؟

وقد تمنّيت أن لو كان معي أو كنت أنا معه في القاهرة، عندما كانت إسرائيل تستعرض عضلاتها بعد حرب الخامس من يونيو فيما سُمّي حرب الاستنزاف، فتخترق بطائراتها الأمريكية حاجز الصوت، فتهشّم الزجاج وتهدّم المتداعي من المباني دون أن تلقي قنبلة، وإنما بالصوت فقط. . . كنت تمنيت ذلك لأذكره بما استنتجه في ذات ليلة كنا نتبادل فيها الأحاديث، عن مواضيع مختلفة، منها الموسيقى. . . والصوت. . . ولي أن أقول اليوم إن زهده في الشهرة وذيوع الصيت ـ رغم ما ثبت بعد وفاته من سطوع هذه الشهرة وذيوع هذا الصيت ـ قد جنى عليه في هذا المجال الغني والسخي بالعطاء، إذ أحسب أن لو أراد حمزة أن يكون في عداد كبار الملحنين في مصر، لما أعجزه ذلك، وقد بلغ في الموسيقى مستوى العلماء، وما زلت أذكر كيف كان يقع على الأخطاء في تلحين كبار الموسيقيين في مصر ويذهب في نقدها ـ والتوائها، أو في اكتشاف السرقة أو التأثر بالشيخ سيد درويش أو بمن يعرفهم من أئمة الموسيقى التركية القديمة إلى حد التصحيح بعزف اللحن كما ينبغي أن يكون، وتشعر أن اللحن قد استقام فعلاً بما يبعثه من الارتياح والانسجام ثم يقول بعد ذلك: (ما أشد ما يخسر الصوت القوي من أصالته وقدرته على الأداء بما يجنيه الملحنون على المطربات والمطربين).

وأصدقاء حمزة القدامى يذكرون كيف كان في مركز البطل الأول في لعبة (الكيرم) عندما شاعت وغزت البيوت في الثلاثينات من هذا القرن، إذ اتقنها رحمه الله إلى حد كان يحمل المشهورين بالبراعة فيها على السفر من مكة إلى جدة أو بالعكس، حيثما يكون لمباراته فيها، وكلنا نذكر كيف

كان يندر أن يغلب. والأستاذ (أحمد قنديل) كلاعب شطرنج يستطيع أن يتحدث ـ إذا شاء ـ عن براعة حمزة في هذه اللعبة أيضاً. وهواة الرياضة من القدماء يعرفون أو يذكرون على الأقل، ممارسته لأنواعها المتاحة، مع علمه بتاريخ اللعبة وفوائدها، والمعدودين من مؤسسيها أو مبتكريها الذين لا أدري أين وقع على معلوماته عنهم، والرياضة في تلك الأيام، طارىء جديد على حياة البلدان المتقدمة في العالم العربي، فضلاً عن جدة أو الحجاز؟!

فارس الحوار . . . وَالرسَائِل

وأما حمزة كأستاذ في الحوار وفي الحديث فليس من يمكن أن يكون شبيهاً له، إلا فيما نسمع أو نقرأ عن كبار الفلاسفة المشّائين، كسقراط، وأنا شخصياً لم أعرف له نظيراً حتى اليوم، على كثرة من عرفت في المملكة وفي غيرها من نبغاء باستثناء الدكتور طه حسين، الذي قضيت معه أكثر من نصف ساعة أيام كان مستشاراً لوزارة المعارف في مصر، وما يستغرب من حمزة وقد مررنا بخلفياته الثقافية، لا يستغرب بالطبع من عالم كالدكتور طه، تلقّى علومه في الأزهر وفي الجامعة المصرية، ثم في السوربون.

كان يحدث أن يدير الحديث عن موضوع فكري بحت، يمكن أن يفهمه المثقفون من أصدقاء حمزة ولكن أعجب ما كان يمتاز به أنه حتى وهو يتحدث عن موضوع من هذا النوع، كان يشدّ الأسماع، حتى ولو كان بين جلسائه أشخاص من عوام الناس وممن لا يمكن أن تكون لهم أدنى صلة أو علاقة بالموضوع. . . كان يملأ جو الجلسة حركة وحيوية ومرحاً، بما يتتابع في حديثه من نوادر وطرائف ونكات وتعليقات، ولا يعفى نفسه من التمثيل أحياناً بحركة في العينين أو الأنف، حين لا يجد

بدا من تجسيد الصورة الساخرة للفكرة أو للرجل الذي يتحدث عنه. . . وهذا فيما يشبه تدفّق مياه السدود قوة وانطلاقاً، وحفولاً بما يشبه الموسوعة من أخبار القدماء والمحدثين، وليس في الأدب والفلسفة أو الشعر فحسب، وإنما في التاريخ والسياسة والمبادىء، وأنظمة الحكم، ثم، ليس في التاريخ العربي أو الإسلامي فقط، وإنما في تاريخ اليونان والرومان والهنود والفرس والمغول والجرمان، والصقالبة، وفي فلسفة كونفوشيوس، وبوذا، وأثرهما على شعوب جنوب شرقي آسيا، ومنها البرهمية في الهند وما طرأ عليها من تغيّر وتطور، وعلاقة كل ذلك بمسيرة التاريخ والاقتصاد.

أعجب من هذا كله، وما أكثر العجيب والأعجب في حياته وخصائص شخصيته، أحاطته الواسعة بسيرة وحياة بيرناردشو، وبعلاقته بالجمعية الفابية، ويذهب في هذه الإحاطة إلى حد الإعجاب بالكاتب الأيرلندي العظيم، وإن كان يصر على أنه إنجليزي، وحجته أن الرجل، يعيش، وينتج، في إنجلترا منذ غادر مسقط رأسه «دبلن» في صباه، ولم يعد إليها إلا بعد ثلاثين عاماً. . . وما قرأه من مسرحياته لا يعالج مشاكل أيرلندة، وإنما هو يعالج مشاكل العالم، في شخصيات ليس بينها (أيرلندي). . . فإذا خطر لك أن تسأله عن أديب من أدباء إنجلترا، أو روسيا أو فرنسا، وقد كنت أفعل كثيراً في محاولة لوزن مدى علمه أو معلوماته عنهم، وفي ظني أنه لا بد أن يجهل الكثير، فإذا به يفاجئني بالفهم العميق للمدرسة الأدبية التي ينتمي إليها هذا أو ذاك، فإذا طال البحث، تكتشف أنه يعرف العلاقة بين هذه المدارس الأدبية، وبين مثيلاتها في الفنون التشكيلية.

ثم لا بد أن نعرف أن حمزة قد يكون من القلة القليلة في هذا العصر في الأدب العربي، الذين يعنون عناية فائقة تكاد تكون متخصصة بأدب

الرسائل، ولعل الذين يحتفظون برسائله من أصدقائه يرون الآن كيف يندر أن تخلو رسالة من رسائله إليهم من ومضات فكره وفلسفته وآرائه وسخريته، وهو ينطلق في هذه الرسائل، على سجيّته وكأنه يجد فيها المدى الأوسع لحرية الكلمة التي لا يجدها في مجال آخر. ولم أعرف قط، شاعراً أو كاتباً فناناً في مستواه الرفيع يحرص على أن لا ينشر الأبدع والأروع من أعماله باستثناء ما نشر أو ما أعتقد أنه ضنّ به على التمزيق في الأعوام الأخيرة من حياته، ولهذا فإن ما بقي من هذه الأعمال، لا يزيد على جزء من عشرة أو من مئة مما كتب طيلة حياته... أو فلنقل طيلة ما يقرب من أربعين عاماً ندر أن يمرّ فيها أسبوع على الأقل دون أن يكتب قصيدة أو رسالة أو أقوالاً قلت إنها تدخل في باب (الأفوريزم) أو الأقوال المأثورة من أوسع الأبواب في الآداب العالمية.

❊ ❊ ❊

محاضرته الشهيرة...

أخواني من الشيوخ يذكرون المحاضرة التي ألقاها حمزة في جمعية الإسعاف في شهر ذي الحجة عام ألف وثلاثمائة وتسعة وخمسين... ولا شك أني سعيد الحظ حين تلقيت هدية الدكتور منصور إبراهيم الحازمي وهي الجزء الأول من كتابه: (معجم المصادر الصحفية) عما نشر من المقالات والقصائد والبحوث في جريدة أم القرى في الفترة من سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين إلى سنة ألف وثلاثمئة وخمس وستين، وأجده يمدّني بما لم يكن في الوسع أن أذكره إذ يقول في الصفحة الثانية والخمسين: (أما قلة المحاضرات قبل عام ٩٣٦م فيرجع فيما يبدو، إلى عدم وجود رابطة تجمع بين الناشئة من الأدباء المثقفين) ثم يقول: (ولعل هذه الرابطة قد بدأت تبرز إلى الوجود عندما تأسست جمعية الإسعاف

الخيري بمكة المكرمة عام ألف وثلاثمئة وخمسة وخمسين، وهي السنة التي شهدت بدء النشاط الثقافي في إلقاء المحاضرات العامة، وقد رأينا جمعية الإسعاف تجتذب الكثير من الأدباء والمفكرين والأطباء والعلماء. . . ولا شك أن من يؤرّخ للحركة الثقافية في البلاد السعودية، لا يستطيع أن ينسى الدور المهم الذي لعبته هذه الجمعية الطبية الخيرية، والتي تأسست بعد سنوات قليلة من تأسيس الحكم السعودي في الحجاز). . . وينهي الدكتور منصور إبراهيم الحازمي هذه الملاحظة بقوله: (الطب، والدين، والقضايا الإسلامية، والتاريخ والتراجم. . .) ثم يضيف: (وهناك بعض المحاضرات التي تناولت موضوعات أخرى كالأدب والصحافة والاجتماع والاقتصاد والتعليم ولكنها قليلة إذا ما قيست بعدد المحاضرات التي تناولت الموضوعات الرئيسية الثلاثة التي ذكرناها) وفي الصفحة التاسعة والعشرين بعد المئتين، ضمن قائمة (المحاضرات) يذكر الدكتور منصور ما يشير إلى أن جريدة أم القرى قد نشرت (خبراً) عن محاضرة ألقاها (حمزة شحاتة) بعنوان (الخلق الكامل عنوان الرجولة).

ولم تنشر هذه المحاضرة كما سبق أن أشرت ورفض حمزة يرحمه الله أن يصدرها في كتاب، مستقلة أو مع أي مجموعة من شعره أو نثره. . . ولكنها ظلت المحاضرة التي لم ينسها أحد سواء ممن سمعوها منه أو سمعوا عنها ولعلهم لا يزالون يسمعون عنها حتى اليوم.

وهنا لا بدّ من وقفة قصيرة، نلتمس بها نوعاً من وزن الأسلوب الذي كتب به حمزة هذه المحاضرة وتمعن مستوى الأستاذية في اللغة، نحواً وصرفاً، ومفردات، وقدرة على أداء المعنى وانتقاء الألفاظ التي يراعي فيها دقة الجرس الموسيقي في اللفظ بالنسبة للجملة، ثم منهج التحليل للموضوع الذي عالجه وهو كما أراده لا كما اقترح عليه وكما نشرت عنه

جريدة أم القرى... فقد عدل عن (الخلق الكامل عنوان الرجولة) واختار (الرجولة عماد الخلق الفاضل).

والتماس الوزن هنا يعود بنا إلى ما قلته من أن حمزة يبدو وكأنه قد ولد ودرج على تراب هذه الأرض قمة شامخة... ولا أقول ولد عبقرياً، إذ خصيصة العبقري، أن يولد بطاقة قد تبكر في الظهور وقد تتأخر إلى أن يتاح لها التفجر والاندفاع بينما حمزة، قد بدا منذ عرفه عشاق الحرف والكلمة قمة لا تدري كيف تكونت...؟

ولد حمزة، في عام ألف وثلاثمئة وثمانية وعشرين ـ كما سبق أن أشرت ـ وألقى هذه المحاضرة، في عام ألف وثلاثمئة وتسعة وخمسين فهو يومها قد أتم الثلاثين من عمره... ونحن نعلم أن هذه المحاضرة ليست أول أعماله، فقد سبق أن ذكرت أني عرفته في عام ألف وثلاثمئة وواحد وخمسين، أي يوم كان لا يزال في الثالثة والعشرين ويعرفه قبلي الأستاذ (عبد الوهاب آشي) والأستاذ (محمد سعيد عامودي) والأستاذ (محمد حسن عواد)...و كلهم عرفوه شاعراً في الذروة وناثراً يمتلك ناصية اللغة والأسلوب امتلاك أستاذية تعمقت فنها وعلمها في الأمهات من المصادر.

ومرة أخرى، أجد نفسي مضطراً أن أتساءل متى؟ وكيف؟ أتيح له أن يبلغ هذه المرتبة التي نفترض أنه بلغها في العشرين... ومن المفروض أنه لم يكن الوحيد الذي تخرّج من مدرسة الفلاح ولم يكن أيضاً الوحيد الذي ابتعث إلى الهند، لم يكن الوحيد الذي قرأ ما قرأناه وظللنا نقرأه من مصادر الثقافة وينابيع الفكر.

يستطيع من يتفرغ، لبحث أدب حمزة، فيما نرجو، أن يجمع من شعره، ونثره، وعلى الأخص رسائله، أن يجيب بما أسمِّيه اكتشافاً للقصة،

التي أقدِّم اللمحة عنها في هذا الحديث، واللمحة، لا أكثر ولا أقل.

بلغ عدد صفحات هذه المحاضرة مئة وإحدى وعشرين صفحة، بخط يده على ورق مقاسه (متوسط) واستغرق إلقاؤها أكثر من أربع ساعات وقوطعت بالتصفيق أكثر من ثلاثين مرة واجتمع لسماعها عدد من الناس قلّ أن أجتمع لسماع أي محاضرة سبقتها في جمعية الإسعاف. . . فماذا في هذه المحاضرة؟؟؟

لا يتسع الوقت لعرض الكثير. . . ولكني أستطيع أن أقدم النّتف، والقطوف التي تلمح، أو تلقي بعض الضوء على الكثير مما فيها مما لا أجد له اسماً أكثر أو أقل من أنه فكر، وأدب، وفلسفة، وفن.

يبدأ المحاضرة بقوله: (عندما يكون الإقدام على المخاطرة ضرورة. . . لا يعدّ شجاعة).

ويعلّق على هذه الضرورة، فيقول: (للضرورة في حساب الحياة أبعد الأثر، والتطور ما لعب دوره الخطير في تكميل أسباب الحياة الاجتماعية إلا على أساس الضرورة الحافزة).

ويقدم أسباباً لعدوله عن العنوان الذي اقترح عليه للمحاضرة أو لموضوعها فيقول:

(إن حديثي في الواقع، ولا أسميه محاضرة، عن الخلق الكامل كعماد للرجولة، لا عن الضرورة كأساس للخلق الفاضل، أو كعماد للرجولة، لكني اخترت أن أمهد لهذا الحديث هذا التمهيد، وأن أزحزح العنوان المقترح عن وضعه قليلاً فيكون (الرجولة عماد الخلق الفاضل) لا الكامل، فلا يزال الكمال نشدة الحياة المطولة ووهمها الذي تنساق أبداً في طِلاَبه. وما دامت مراحل الحياة تمتدّ ولا تنتهي، وقوافل الأحياء تسير ما يثقل

خطاها الزمن الجاهد، وما دام التغير الدائم، دأب الحياة وسبيل ما فيها، فهل نقول إن شيئاً كمل، قبل أن يوفّي على غايته ويبلغ تمامه؟).

ويضيف، وكأنه يعتذر عن (زحزحة العنوان) فيقول:

(وأنا لست أعرف معنى لهذه الحرية، بيد أني ألفت أن أطلق لفكري عنانه. . . فهذا عندي أخلق، بأن يجعلني أكثر شعوراً بحياتي، وفهماً لها، وأنا طامع بعد، في أن تحمدوا لي نتائج هذه الحرية إن شاء الله).

ثم يفلسف ألفته في إطلاق العنان لفكره فيقول: (لا تكون النظرة إلى حقائق الحياة والفكر خالصة إلا من أناس يرون أنفسهم فوق قيودها وقوالبها، وهؤلاء يدعون بالمجانين تارة، وبالفلاسفة وقادة الفكر تارة، لأن حظ الصفات والمبادىء والنزعات يرتبط دائماً بحظ الداعين إليها والمتصفين بها من النجاح. هذه حقيقة فطن لها الناس من القدم فقالوا كثيراً ما معناه:

الناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطىء الهبل

ليس هذا حظّ الأحياء فحسب، بل حظ المبادىء والأغاني والنظريات، والفضائل وحظ موقفي بينكم الليلة. . .).

(وأنا أريد التجربة، والتعرية كباحث لا كمحاضر، فإني لو قصرت كلامي على الرجولة أو على الخلق الفاضل، خشيت أن يتحوّل حديثي إلى موعظة، لا تعدو أن تكون تمدُّحاً حماسياً بالفضائل دون تحليلها وردها إلى مصادرها، وتحديد قيمها ومعاييرها، وأثرها من صميم الحياة، وعلاقتها بالنفوس).

والتجريد مبدأ قديم لي، وهو مرضي الذي لا أشفى منه، عرفني به

من عرفوا طريقتي في الحياة ومن قرأوا نظراتي القديمة في الخير والشر، وفي الفضائل والرذائل، وفي الحب. . . وفي الشعر).

فإذا ظن ظانٌّ أن فيما أقوله الليلة خلطاً أو إطلاقاً أو شذوذاً، فإنما يكون هذا الظن معقولاً لا أضيق به، فهو عندي شبيه بالنظرة إلى مجهول لم يتكشف، لا إلى مجهول أخذ سبيله في التكشف والوضوح).

ويمضي بعد هذه المقدمة القصيرة، في ما يشبه التحليق تارة، والغوص تارة، وراء موضوعه، بحيث يرينا دنيا مترامية الأطراف. تلتف فيها خمائل الفكر، وتتفتح في ساحاتها مساتير الحقائق وتتلألأ في سمائها وأفلاكها أنهار من الضوء تمعن في أبعاد سحيقة، قد تحتاج لاستيعابها إلى منظار مقرِّب يسعفك بالتفاصيل ومقومات البناء والتكوين وتسرف في الاقتراب والإشعاع، حتى تبهر البصر، وترهق أو تزلزل ما استقر في الذهن من القواعد والأسس للكثير من المسلمات والبدَهِيّات.

وقد رأينا في هذه المقدمة على قصرها، مستوى الأسلوب، الذي سبق أن تحدثْتُ عنه، وما أظن أن أحداً من الكتاب في المملكة، وفي غيرها، تلك الأيام قد بلغ هذا الأوج من الجمال والترابط وتوخَّى جرس اللفظ في اتساقه مع الجملة، وهذا إلى الأستاذية، التي لا تقف عند حد المعرفة المتمكنة من اللغة ودقائقها ومن نحوها وصرفها ومناهل البلاغة ومآتيها، وإنما تتخطى كل ذلك إلى فنية الأستذة إذا جاز التعبير.

* * *

شعره. . .

وقبل أن أمضي في التحدث عن الشعر والأقوال أجد نفسي ملزماً، بأن أقول، إن حمزة رحمه الله لم يمارس كتابة القصة أو الرواية أو

المسرحية، أو هذا هو الأرجح عندي، بعد أن أتيح لي استعراض ما بقي لدي ورثته من أعمال.

الذي نشر من شعر حمزة شحاتة، ليس أقل القليل فحسب، وإنما هو قطرة من بحر، والذي لم ينشر وتفرَّق لدى بعض أصدقائه، لا سبيل للوصول إليه إلا بأن يتكرّموا، فيبعثوه إلي إذا شاءوا، أو إلى معالي الوزير الأستاذ (حسن عبد الله آل الشيخ) فإذا عَنَّ لهم الاحتفاظ بالأصل فإني أرجو ـ وبإلحاح ـ أن لا ينسخوه بخطوطهم أو بالآلة الكاتبة، وإنما بخطه شخصياً، أو بخط ابنته وأنا أعرف الخطَّين، وأستطيع أن أقرِّر صحة نسبة الأثر إليه، وباعث هذا الرجاء، هو استبعاد الانتحال، أو شبهته، فقد قرأت قصيدة نسبت إليه، ونشرت في إحدى صحفنا المحلية، ولم أجدها في مستوى شعره وأسلوبه وخطر لي أنها مما نسب إليه خطأ مقصوداً أو غير مقصود، مع ترجيح جانب حسن النية على كل حال. وإني أرجو الأخ الأستاذ (عبد الحميد مشخص)، الذي نشروا في الصحف أنه يعتزم نشر مجموعة من شعر الفقيد، أن يتكرّم هو أيضاً، فيدفع بما لديه إلى معالي الوزير، وأَمَلِي معقود على أصحاب الحق من ورثته أن لا يمانعوا في أن يقوم المجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب، بنشر ما يجمع من الشعر والنثر والمحاضرة أيضاً.

أما ما بقي، ورجَّحت أنه قد ضنَّ به على الحرق والتمزيق في السنين الأخيرة من أيامه على هذه الأرض، فلا يتسع المجال لدراسته وتحليله أو نقده كما لا يتسع لعرض الكثير منه، ولذلك فأنا أختار له ـ أو فلأقل إني ألتقط ـ مقطوعة قصيرة نوعاً، ومقطوعة أخرى، كان قد نظمها في جدة عندما عاد إليها منذ سنوات وقد وافق على أن تسجّل وتذاع، وحضر معي

تسجيلها، يقول في هذه المقطوعة:

يا شعاعاً يلوح في ظلمة اليأس ويخفي... ماذا يطيق البصيصُ؟
لست إلا وهماً يراود عينيّ ويَعْيا بكشفه التشخيص
أو شراعاً أعْيته ثائرة الموج، فصدر يطفو، وعجز يغوص
يا لنا، طائريْن ريعا عن الوكر فهاما، والليل داجٍ عويص
فهما في الظلام داعٍ مهيض، لسليم جناحه مقصوص

* * *

ما أرى في البقاء إلا عُلالاتِ خيال مآلها التنغيص
والردى صائد النفوس فما فرّ كناس منه ولم ينج عيص
فعلام العناء، يُضْنِي المجدِّين ويصلاه طاعم وخميص
يا لها رحلة برانا بها الجهد، ولكن قد عزّ فيها النكوص

* * *

يا مجال الأفكار، ضقت بها خطواً وئيداً، فكيف... كيف النكوص؟
أي دنيا تلك التي غَلَبَتْ فيها على الحق سفلة ولصوص
قال قوم: زماننا دون أزمان تقضّت، وأعوز التمحيص
إنما الناس منذ كانوا: ضعيف لقوي، وقانص وقنيص

* * *

يا فسيلا قد غَصَّ بالماء ريّاً ذاك نخل نصيبه منقوص
قد شغفنا بالأعين النجل حباً وسبت غيرَنا العيونُ الخوص
قال لي صاحبي: سيصلح شأن الناس يوماً فهالني التخريص

* * *

قصرت من ثيابها، فعنا المفتون صمتا، وأمسك الترخيص
جنّبينا، يا تلك. . . دعوة أعضائك في ما يشفّ عنه القميص
حسبنا فتنة الأنوثة، شَتَّتْها علينا شباكها والشصوص
شهد العقل، أن عيش الخليين على ما فقهتُ، عيش رخيص

* * *

سألت: ما هو القضاء؟؟؟ فأطرقت طويلاً. أما هدتها النصوص؟
وأراني، لو قلت شيئاً، لأزري فيه الإسهاب والتلخيص
نحن بالله ساكنين، وماضين فماذا أرواحنا والشخوص؟
أترى ما يصيبه المرء في دنياه أمراً، قد كان عنه محيص
ما أصاب القضاء منا غفولاً ـ قبل حين ـ ولا اتّقاه حريص

* * *

أيها المرتجى مكوثاً على الأرض تَهَيَّأ فقد دعاك الشخوص

شوارد من حكمه. . .

أما أقواله، التي قلت إنها تدخل فيما يسمى (أفوريزم) أو الأقوال المأثورة، فإني ألتقط منها القليل الذي يعطي فكرة عن مستواها وعمقها وما أقرأه في بعضها يجعلني أرجح أنه قاله، في أيام صباه أو فجر شبابه.

يقول رحمه الله:

* إن من لا يندفع إلى الأمام، يدفعه تيار الحياة إلى الوراء.

* الفاقة تقتل أشرف الدواعي في النفس.

* الهوان يصبح سهلاً بالممارسة، ككل شيء آخر. . . وما أصدق المتنبي في قوله:

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

* الجمال منجم غني بالأعاجيب والذخائر النفسية ولكن الرغبات لا تصطرع حوله، كما تصطرع على منجم فحم.

* الحب لمن يدمنه كالخمر عند من يدمن عليها. . . كلاهما يشتري هذه النشوة والخدر اللذيذ بصحته وماله.

* ما نفع الحرية لمن ليست له رغائب.

* عندما تتلامح عينان متفاهمتان يكون هنالك لحن موسيقي مشترك.

* أليست حياة المتسول خيراً من أن يكون الإنسان موضوع رحمة الآخرين؟؟؟

* لا حد لبواعث الألم عند من يحس ويدرك.

* لا يجمل أن تتجرد الحياة من قانون الرحمة. . . ولكن يجب أن تتجرد ممن يُطبّق عليهم هذا القانون.

* إني أتقبَّل الكذبة أحياناً، لا لأني لا أعرف زورها، ولكن لأتفادى هول الحقيقة المستترة فيها.

فإذا قال لي حبيب: أنت وحدك ملء قلبي وشغله، وكنت حينذاك المحروم مما يناله مزاحمي السعيد. لا أقول له: أنت كاذب. . . لأن هذا

يحرمني حتى من الكلمة الطيبة أو من العزاء.

* إن المستحيل يتحقق أحياناً... فلماذا نيأس؟؟؟

* علمتني الحوادث، أن غير المعقول يقع كثيراً

* ليس في الدنيا تجارة يكثر فيها التغابن كالزواج.

* المَطالِب التي تتحقق كاملة تكاد تندر في حياة الأمم والأفراد، وهذا علة أن الصراع في الحياة لا ينتهي.

* أي إنسان لا ينقلب إباحياً شريراً عندما تتحطم كل مجهوداته الشريفة في سبيل النجاح... إن الصبر على مثل هذا الصراع القاتل لا تطيقه إلا قوى الأنبياء فقط... وحتى الأنبياء ـ ألم يكن متوقعاً أن يملّوا الكفاح لو لم يكونوا واثقين من النتائج؟؟؟ كيف أبقى فاضلاً إذا استحال أن أنتفع في حياتي بأي محاولة شريفة؟

* أي رجل لا ينقلب طفلاً ـ على الأقل في باطن نفسه ـ عندما يعشق؟

* أليس ادعاء الشرف عزاء من أخطاء النجاح... ولكن ما هو النجاح؟؟؟

* في شبابي عشت شيخاً... وفي شيخوختي تشبثت بعيش الشباب، فأضعت شطري عمري هباء.

* كلما قلّ نصيبك من الإحساس، وجدت الحياة ممتعة.

* المعركة الأبدية بين الرجل والمرأة غير متكافئة، ينتصر فيها الرجل باستمرار... ولكنه الضحية دائماً.

* اليأس، ليس فقدان الرغبة في النضال... لكنه فقدان الإيمان بجدواهُ.

* ما الإبداع إذا كانت الصور التي يعطيها الفنان هي ذات الصور التي تقدمها الحياة؟

* الآن فهمت. . . أن الانسحاب من المعارك حكمة أكثر منه جبناً.

* لم يبق في المرأة ما يثير الفضول، ومتعة الاكتشاف، ولذة التعقيب. . . بعد سفورها.

* الذين جمّلوا المرأة بالوسائل الصناعية، لم يُفقدوها سحر الأنوثة الطبيعي فقط، بل جعلوا منها صدمة لعواطف الرجل وخياله.

* أعقد عملية خداع في العالم، تلك التي يقوم بها دور الخطوبة بين رجل وامرأة. . . لأن المخدوع فيها يعتقد أنه الخادع.

* مضاضة الحرمان من المرأة، أخف وطأة من مضاضة الارتباط بها، حيث يتعذر الخلاص منها بلا كارثة.

* لا حد لصور الشقاء البشري، ولكن فقدان الحرية هو أفظع هذه الصور.

* إننا أمام جيل جديد من النساء، يفهم أن الرجل منتج للثروة والمرأة مستهلك لها.

* ليس هناك فرق بين أن تكون الغالب أو المغلوب إذا ناضلتك امرأة. . . فأنت الخاسر وحدك في الحالتين.

* اللذة، كالألم كلاهما وليد الانفعال والتوتر، لذلك كان كل ما لا يثير انفعالاً وتوتراً مولِّداً للسأم، حتى الجمال.

* لا ينسى الطائر السجين، الطيران، مهما طال سجنه ولكن الإنسان ينسى الحرية تماماً بطول الاستعباد. . . هذا أغرب فارق بينهما.

* * *

كلمة الختام. . .

والآن. . . وقد فرغت من تقديم هذه اللمحة عن الشخصية الأدبية عندنا، التي زعمت أنها القمة التي عرفت ولم تكتشف، أعلم أن بين من يقرأون هذا الحديث، من يطالبني بأن أضع أنامله، أو أفتح عينيه، على ما يثبت أنه (قمة) ويدفع عني تهمة إسرافي في الثناء عليها، مذهب من تجرفه العاطفة وقد فقد ما يخفّف من قوة تدفقها ضوابط المنطق والعقل، بل ضوابطاً لعلم بمكامن القوة ومناجم المعادن الثمينة، التي تدعم بالحجة ما زعمت.

وهذا مطلب أعترف بأنه عسير على من يكتب لمحة تستعرض القليل من أفكاره، والومضة من فنِّه، والنغبة من علمه، والشريحة الصغيرة المحدودة من سيرته وخلفياته الثقافية. . . ولكنه لا يتعذر ولا يتعسر على من يفرغ للأكثر والأوفى من هذه الأفكار، ومن هذا الفن، ومن هذا العلم بالتحليل والتتبع وفحص واختبار ما يبدو لكاتب اللمحة ـ وهو في عجلة من أمره ـ مبتكراً وأصيلاً ويتضح للمحلل والباحث أن له منابعه وأنه يتفاعل في نفس هذه الشخصية من مصادر أؤكد أنها كانت أكبر وأعز نفساً من أن تتعمد النظر أو التلفيق أو التعمية أو الإيهام والتمويه، ولكني لا أستبعد أن يكون مما تمثلته تلك المعدة الفكرية التي قلت إنها جبارة الهضم والتمثيل.

ومن يفرغ لعمل من هذا المستوى، لا بد أن يجد الوقت الذي يكرِّسه

لموضوعه الواحد، ولسوء حظي وحظ حمزة شحاتة معي، أني لست ممن يجدون هذا الوقت الآن على الأقل، ولا أتحدث عن المستقبل وما بقي من العمر والجهد لا يشجِّع على أن ألتزم بشيء، أو أن أعد بما أصبحت أعدّه حلماً من الأحلام ليس بالنسبة لدراسة وتحليل ونقد آثار حمزة شحاتة فقط، وإنما بالنسبة لكثير ومتعدد ومتنوع من أعمال أدبية وفكرية تتجمع الرغبة في التفرغ لها، بل حتى في التفرغ لجميع وتبويب ونسخ ما يصلح منها للنشر، ولكن سرعان ما تطوقني الالتزامات الأخرى، فتنسف كل ما يتجمع، لتتركني مكرهاً على جرّ العربة المثقلة بالأعباء بينما نظرتي ترامق تلك الأحلام.

ومع ذلك. . . أفليس لذيذاً وممتعاً أن نظل نعيش ما بقي من أيام العمر كما عشنا ما مضى منه حالمين بالكثير والخطير دون أن نحقق في دنيا الواقع إلا القليل والتافه والنزر اليسير.

بلى. . . في الشعور بهذه اللذة والمتعة عزاء كثيراً ما أعان على البلوى وأسعف بالصبر الجميل. . .

مقتطفات من المحاضرة

* المجازفة في تاريخ نشأة الحياة، في تاريخ تطورها، قادت روادها إلى القمم الشامخة، وأعانت على كشف مساتير الوجود والفكر.

* الركود في تاريخ أمة، تتطلع إلى ما وراء حدودها الجامدة، شر من الخطأ.

* الأذواق متى ألفت أن تصيب لذتها من جمال محدود، تاقت بعد الفته، واستصفاء معانيه إلى ما يكمن وراء حدوده الظاهرة.

* إدمان النظر إلى الصورة الجميلة، يفقدها شيئاً من تأثيرها القوي، كلما تجدد إليها النظر المشغوف وارتوى منها الحسّ المنهوم، حتى تفقد مقدرتها على التأثير والأداء.

* الناس إن أدهشهم الرجل العادي لأنه لعب على الحبل بمهارة، لم يقنعوا من البهلوان الشهير إلا بما يدخل في حدود السحر من الأفعال الخارقة.

* إن كان الإنسان المتحضر اليوم لا يعيش كما كان يعيش سلفه، فإن قلبه لا يزال ذلك القلب، وقريحته الشعرية لا تزال تلك القريحة، ولا تزال أسباب الحب ومشاكله أو ابتعاثاته وأوهامه في نفس شاعر اليوم، هي ذاتها في شاعر الأمس.

* الشيء قد يكون صحيحاً في ذاته، وصحته لا تستدعي صحة الفكرة عن الاعتراف بإمكان تطبيقه أو استحالة هذا الإمكان... ولا تستدعي الإيمان به أو رفضه.

* حسبكم أن تقرأوا اليوم في الحجاز أساليب من الشعر وأساليب من الكتابة، لا يختلف بعضها، عما تعرفون لخيرة الكتّاب والشعراء في مصر... فمن الذي يعد هذا تقليداً أو سرقة؟؟؟ إنما هو أثر الاشتراك العام في مؤثِّرات فكرية متشابهة، وأثر انتشار الثقافة، وتهيؤ أسباب العلم بمستحدثات العقل والفكر والصناعة والفنون، وتوثق الصلات الفكرية والأدبية، وتوحد اللغة والدين وتقارب الطباع والأمزجة، وتأثير الاختلاط والامتزاج الاجتماعي والفكري... وفي شعراء مصر من نجد على شعره سمات شاعر عربي قديم وطابع صياغته وفي كتّابها من نجد من آثاره ما يعلن صلته الصريحة بأديب من كبار أدبائها... وفي كبار أدبائها من تطالعنا آثاره بأفكار أديب أو نظرات أو مذاهب فيلسوف من الغرب.

* الخلق الفاضل. . . يعرفه الناس، فلا يزيدهم فهماً له، أن تقيم الكلمات والتعاريف حدوده، فهم يكذبون ويخونون. . . ويؤمنون بأن الصدق والأمانة نبل.

وهم يتبذّلون ويشعرون أن العفة سمو.

ويظلمون. . . ويقدسون العدالة.

فالفضائل إذن صفات وأعمال تؤمن الجماعة الغالبة ـ اصطلاحاً ـ بفائدتها وضرورتها أو بأنها خير.

والرذائل صفات وأعمال تؤمن الجماعة الغالبة ـ اصطلاحاً ـ بضررها، أو بأنها شر.

فالنفع والأذى أساس الاعتبار في الفضائل والرذائل.

* الرجولة، في ميزان الاعتبار الأدبي، ليست هي الفارق الطبيعي بين جنسين، ولكنها مجموعة من الصفات الرائعة في خلق الرجل الرائع.

* لو أردت أن أضع تعاريف أدقّ وأكمل للفضيلة والرذيلة، والرجولة والأخلاق، لوجب أن أسوق أمامي قطيعاً من أفكار الحكماء والعلماء والأدباء والفلاسفة. . . وأكون قد عرضت عليكم بضاعة غيري. . .

* إذا انهزمت الرذيلة في مجال الحياة الظاهر. . . لم تنهزم في مجالها الباطن، فعرشها لا يزال موطد الأركان في النفوس.

* الإيمان الكامل الصحيح بالفضيلة معرفة. . . وعمل تقتضيه هذه المعرفة ثم إرادة. . . وحرية.

* الإيمان بالفضيلة دون العمل بمستلزماته ضعف لا يتناول حقيقة الإيمان بل يتناول قوة النفس وضعفها، وفتورها ونشاطها، فهو إيمان المعرفة لا إيمان اليقظة.

* لون آخر من الإيمان بالفضيلة تولده الضرورة لا يكون لاختيار الإرادة فيه مجال ولا لحريتها مساغ، كإيمان المرء بضرورة الثبات مع الاستبسال دون نفسه أمام خطر داهم، لا مناص له من مواجهته فالثبات هنا ليس إيماناً بالثبات، والعمل بمستلزماته ليس عملاً بمستلزمات إيمان يقوم على اقتناع الحرية المختارة لكنه إيمان ضرورة بهذه المستلزمات والاستجابة لها. فهذا إيمان، وعمل بمستلزماته وإرادة ظاهرة. لا ينقصه إلا الاختيار ليكون إيماناً كاملاً... ففيم يختلف عن إيمان رجل تحمله بالسيف على أن يؤمن بأن الصدق خير من الكذب... على أن يكون صادقاً؟؟؟ فإذا عرف وصدق، فإنما يكون هذا إيمان ضرورة، وعملاً آلياً لا اختيار له فيه ولا حرية، وإنما يكون إيماناً تنقبض عليه نفسه كلما مارسه.

* الإنسان كما يشاء أن يفهمه الناس... غير الإنسان كما هو في نفسه.

* لرب رجل يأتي الأمر تظنه خيراً كله، وهو سبيله إلى الشر والأذى وانتهاك الحرمات ومطيّته إلى أغراض خائنة تسبح في دم الضحايا... يرى إعجابك وإعجاب الناس بما ظنوه خيراً، فيتهلل لأنه عرف مكانه من براعة الحيلة ونفاذ الدهاء... فوارحمتاه للإنسان من أخيه الإنسان...

* الوعظ يمسّ النفوس... ولا يرجها. ويثير فيها الرغبة، ولا يوقظ الإرادة، ولا أريد لحديثي الليلة أن يكون موعظة تلفّ النفوس فيما يشبه الغيم الرقيق، لا هو يجلوها، ولا هو يتركها، في غياهبها المطبقة.

* فرص الحياة شائعة يأخذ كل فرد في الجماعة بنصيبه منها.

هذا يطارد الغزال... وهذا يكمن له.

هذا يصيد أكثر. . . لأنه أكثر قوة وحيلة.

لا يصيد كثيراً إلا الأقوى.

القوي يعيش. . . والضعيف يموت.

هكذا آمن الإنسان بالقوة، وبمظاهر اقتدارها.

وهكذا آمن بالحظ. . . والزعامة. . . والبطولة.

* ألسنا في القرن العشرين. . . وفي دولة الفكر نرى أن القوة مصدر السلطان. . . وأن سلطانها عطل قوة الروح.

* الفقير، يشعر شعوراً متطرفاً بشكوى فقير مثله أو دونه.

الغني لا يشعر كشعوره، إلا نحو غني من درجته أو أقل قليلاً.

الفقير يعرف حرارة الجوع.

* الغني يعرف حرارة الاضطرار لبيع منزل. . . المسكين عنده من اضطر إلى بيعه. . . فهو في دنيا غير دنيا الفقر.

* النعمة لا تبطر. . . ولكنها قوة تجعل الإنسان انفرادياً. . . فهي تسدّ مسام الشعور والإحساس وتغلق نوافذ النفس.

ليس الأغنياء كلهم هكذا. . . ولا الفقراء كلهم هكذا.

هناك غني يشعر وتستجيب دواعي نفسه، ولكن في الألف.

وهناك فقير لا يشعر ولا يستجيب. . . ولكن في الألف.

* ليس في تغلّب قوة على قوة تغالبها، في ميادين التطاحن، شر ولا رذيلة. . . كلتاهما تعمل للبقاء والسيادة وكلتاهما تدافع عن حق تراه حقاً فالنزاع بينهما مشروع كما كان النزاع، بين الإنسان والحيوان مشروعاً.

* لا تزال الجماعة أقل دقة، وأسرع إيماناً وأعمق استجابة من الفرد.

* تضيق حرية الفرد كلما تقدمت أطوار الجماعة اجتماعياً، وكلما تكاثرت الروابط الاجتماعية، واتسعت الحدود لحرية الجماعة فيها.

* التمثيل قديم في حياة الإنسان... الأرجح أنه عرفه بعد أن عرف النار وتجمع حولها للدفء واللعب. رجل لذعته النار فقفز، وتوثّب على رِجل واحدة، وأمسك موضع اللذعة بيده... هذه مفاجأة يضحك لها الناس، لأن فيها شيئاً غير الجد المحض.

إذا قلّده أحدهم ضحكوا أكثر...

هذا تمثيل... ثم هو رقص...

هكذا اتسعت الحياة رويداً

والناس يمثّلون... ويقلّدون بعضهم، في الجد والهزل، لتحبهم الجماعة.

* المزاولة والتقليد أقدر على ترسيخ السجايا وتحويلها إلى مشاعر وأخلاق ثابتة من أحكام الضرورات.

* الحمار ـ وعلاقتي الأدبية به قديمة جداً ـ وعفواً ـ تضيق دائرة اتصاله بالإنسان، ولا يتخطّى حدودها الضيقة، لذلك كان تطوره التخلقي أقل مرتبة من تطور الكلب.

* لبيرناردشو، الكاتب والفيلسوف الإنجليزي ـ حمارة، ما أشك في أن لها نصيباً وافراً من الإدراك تخطّت به حدود بنات جنسها وأبنائه كثيراً، إن اطّرد القياس... وماله لا يطّرد.

* الثروة... أقدر على تحقيق المطالب والرغبات وبسط النفوذ من قوة الجسد وقوة الفكر.

* الفضائل أنانية مهذبة... والرذائل أنانية عارية.

* إذا عطفت أنا على مريض ملقىً في الطريق وواسيته، لا أنال التقدير يناله رجل بارز في المجمع يفعل فعلي. . .

* بعض المعائب والرذائل، يوسّع لها العرف العام صدره، متى كان المتصف بها قوياً وذا نفوذ.

* رقة الجانب، والبشاشة، والدعة، وصدق الشعور، والأريحية، ونبل الاتجاه، والإيثار، في رجل فقير لا تساوي كلها في ميزان الفهم والإعجاب، ابتسامة فاترة أو إيماءة مكرهة من رجل ذي نفوذ ولتكن بعد ذلك بارقة كاذبة لا أمل فيها.

* الناس لا يزالون يترنمون بالصدق ويحضون عليه ولكنا لا نجد له أثراً بينهم، وقد أصبح الكذب وما ولد من رذائل المكر، والخداع، والمداهنة، والتصنع، والمداورة، والرياء، قانون الحياة الاجتماعية.

* إذا قال قائل: إن حفظ الفضائل آخذ في الأدبار، لم يقل إلا بعض الحقيقة. . . الحقيقة كلها أن حظ الفضائل قد أدبر وزال.

* وارحمتاه للضعفاء. . . لماذا لا يتعلمون فن القوة إذن ليكونوا أقوياء؟!

* ما من فضيلة تمارس إلا وفي أطوارها دلالة على قهر النفس، وكبح غرائزها وجهاد لمطالب هواها فلا جرم أن يكون إعجابنا بها إعجاباً يؤدي معنى الاعتراف بقيمة شيء نجد صعوبة في اكتسابه أو نحسّ هذه الصعوبة في اكتسابه. . . وما تغلو قيم الأشياء ـ عادة ـ إلا بمقدار الصعوبة في الحصول عليها، وإلا بمقدار الحاجة إليها.

* الإيمان بالقوة ونفوذها، هو حقيقة الحياة، وهو قانونها في القرن العشرين، وفي القرون الأولى، وفي أطوار الحياة القديمة البعيدة.

* الدعوة إلى الفضائل حلم جميل بالحياة كما يجب أن تكون، لا كما هي كائنة... حلم ما تحققه إلا القوة.

* الكرم لم يكن في أول نشأته تضحية وإيثاراً وغراماً بالبذل، إنما كان ـ ولا يزال ـ دلالة افتخارية على اتساع نفوذ القوي ومقدرته على مواصلة الجد والإنتاج... على أنه لا يتناول إلا الزيادة... وسبيل تعويضها ممهودة هينة بعد اتساع رقعة التجربة والسعي، وامتداد مذاهب الحيلة، وحنكة المزاولة واتساع الثراء. ثم هو بعد، صفة لازمة لمن تحلهم قوتهم من الجماعة محل الأبطال والقواد... فالكريم أكثر أعواناً وأبعد صوتاً، وأعمق أثراً في النفوس وأرفع منزلة في العيون... ولا يزال في الناس من ينزلهم كرمهم منزلة الزعماء المسيطرين. والكرم فضيلة متعدية... لذلك كان الثناء والإقبال على تمجيدها أكثر من الثناء والإقبال على تمجيد العفة... مع أن العفة قهر صارم، ورمز للقوة أكثر مما يكون الكرم الذي هو في معناه وطبيعة دوافعه، انتفاء للخوف من الفاقة، أو توكيد للمقدرة، أو استغراق في لذة نفسية، أو سعي وراء مطلب أدبي يكون أغلى من المادة المبذولة في نفس الباذل.

* إن كان الكرم شعراً وحماساً وخيالاً جميلاً، فإن البخل حكمة وفلسفة وفهم عميق.

* الكرم يعطي ليأخذ، والبخل اكتفاء... وما عاب الناس البخل إلا لما فيه من أثر الأنانية الواضحة، واعتكاف في حدود الذات... ونحن نراه أنانية محدودة قانعة... ونرى الكرم أنانية واسعة جشعة... همّها استرقاق النفوس والألسنة وذيوع الفخار وتحقيق المطامع، والاستمتاع باللذة الخفية.

* القناعة. . . كانت فضيلة ـ ولا تزال فضيلة الصابر المحروم ـ لأنها رمز الاكتفاء القوي عن الناس، والتحكم في مطالب النفس، وحد طماحها، ترفعاً عن التدلي لالتماسها منهم. ولكنها اليوم فضيلة خاملة، توشك أن تنقلب رذيلة في عرف الحياة الراهنة ومصطلحات طورها الحديث فهي معدودة في الفقير تسليماً بالعجز عن إدراك الرغائب وفي الغني دلالة الاستكفاء.

ولو قلنا: إنها في الغني والفقير دليل سمو النفس وترفّعها لم نقل حقاً.

ولا يسعنا أن ننكر أن قناعة الفقير والضعيف والعاجز، عزاء يلتمس لتخفيف وطأة الشعور بالحرمان عن النفس. وهذا المتنبي يقول:

كل عفو أتى بغير اقتدار

حجة لاجىء إليها اللئام

فالعفو عنده، لا يكون إلا من قادر. . . وهذا مطابق للاصطلاح. . . فلماذا لا تكون القناعة فضيلة ـ إن كانت ـ إلا ممن تتوفر فيه المقدرة على تحقيق الأطماع.

* من الذي يرى أن عفة الشيخ في طور كلاله واسترخائه فضيلة؟؟؟ إنما هي فضيلة السن وقانون الفتور. وليست فضيلة القوة والصبر والمغالبة، كما هي في الرجل القادر على تأمين مطالبه.

* الكذب في المدينة العامرة ضرورة اجتماعية واقتصادية، تعين على الرواج، وانتعاش حركة التبادل والإقناع.

فلو ساد الصدق فيها أصيبت مجالات الحركة والنشاط بركدة يتضاعف معها الشعور بأعباء الحياة وهمومها.

* الكذب دليل فقدان الثقة بنفع الصدق... وهو أكثر الرذائل نسلاً، وأرشقها دخولاً على النفوس وأوسعها حذقاً.

* الرياء، والتصنع والغيبة، والخداع، والمكر والمداهنة والمداورة، والمصانعة، والنفاق، والغدر، والدهاء من مواليد الكذب ومركباته.

وقد ضمنت له هذه الكثرة ـ في المواليد ـ الشيوع والسيطرة... وضيقت مجال الصدق حتى اعتبر خشونة وجهامة، وقلة بصر بالحياة... وسذاجة.

* بعض الرذائل ألصق بالحياة، وأقرب إلى طبائع النفوس من الفضائل، ويؤلمنا أن تكون المماراة في هذا ضرباً من العبث.

* لنا رأي... نخالف به الاصطلاح الشائع في الفضائل والرذائل خلاصته: أنا لا نرى صفة من هذه الصفات التي جرينا في هذا الحديث على تسميتها: فضائل ورذائل، ما هو خليق بهذه التسمية.

وإنما ندعوها محاسن ومعائب فردية يهبط بها العرف أو يعلو، على وفاق نصيب المتصف بها من القوة والضعف أو على نصيبها من الشيوع والخمول وأساسها الأنانية والمصلحة.

أما الفضائل التي نراها خليقة بهذه التسمية فهي التي نزل بها القرآن ودعا إليها... تلك فضائل لا يكون للمتصف بها، والمؤمن بقوانينها، نظر إلى مصلحة أو سمعة، وإن كان شيء من ذلك، فالمثوبة عند الله، والزلفى إليه.

فالكرم فيها إحسان إلى مستحقه... ينزل منزلة الحق المفروض له وخروج من سلطان المادة وحدودها في سبيل الله.

والأمانة مبدأ يعامل الأمين به الناس، كأنه يعامل الله...

والصدق ميزان دقيق. . . لا يستقر فيه الغش والتدليس، ولا يستقر فيه الحقد والرياء.

والتواضع إنكار للذات وقوتها في سبيل إيمانها بقوة الله.

والعفة سمو بالنفس لا تشيل بميزانه خالجة من خوالج الشيطان والهوى، فإذا انحرفت بها نزوة عارضة من نزواتها لجأت إلى التكفير والتوبة، والاعتراف لتتطهر من إثمها.

وهكذا حتى تكون الفضيلة حياء من الله تتجنب مواطن حرماته، فلا تأتيها ولو أتاها الناس جميعاً.

* فضائل الدين التي بعث محمد (رضي الله عنه)، ليتمم بها مكارم الأخلاق ـ تضحية لا ينظر من ورائها إلى غرور الدنيا، وأعراضها الزائلة. . . تضحية لا تضمن للمقدم عليها متعة ولا فائدة إلا الزلفي إلى الله. . . ونعمت تجارة لن تبور.

تلك محاسن. . . وهذه التي جاء بها القرآن فضائل،

تلك فخاخ يصاد بها حطام الدنيا، أو تسحر أعين الناس.

وهذه وسائل ينال بها رضاء الله، وتبتغي المثوبة عنده.

تلك محاسن نزل بنا إيماننا بها إلى الحضيض، فكانت شارة ضعفنا. . . وهذه فضائل أقامت مبدأ سامياً فتح القلوب والنفوس، قبل أن يفتتح المدن والممالك. . . فما يعجزها والله أن تنهض بهذه الأمة التي قعد بها ضعفها، وقعدت بها محاسن ومعائب بنيها.

فلنلتمسها. . . ولنمهّد المجال لظهورها. . . فهي أمل النجاة، وسبب النهوض وسبيل القوة والظفر.

* إن كل فضيلة من فضائل القرآن تضرب المثل الأعلى الكامل للقوة وحريتها فآمنوا بها واطلبوها.

وكل فضيلة من فضائلنا تضر مثلاً للضعف والتهافت والتمويه فاعرضوا عنها وانبذوها.

وليكن الكريم الوهاب محسناً أنوفاً، يأبى أن يأخذ بما يعطي شيئاً.

وليكن محسناً بصيراً، يفرق بين الحسنة الواجبة، والمحمدة الزائفة.

وليكن الشجاع مجاهداً حراً... يغضب للحق كما يغضب لنفسه.

وليكن المتواضع صادقاً... لا طامعاً.

والصابر مختاراً لا مكرهاً.

والإيثاري زاهداً لا تاجراً.

***

قصة
عناقيد الحقد

عناقيد الحقد

(١)

مع الاعتذار للكاتب الأمريكي جون شتاينبك
في استعارة عنوان قصته (عناقيد الغضب)

لم يبرح ذهنها ومشاعرها أن المبررات التي سردها، وظل يكررها أبوها عن ضرورة الاستغناء عن حفلة الفرح بزواجها من هذا الشاب الوافد من أبناء البلاد العربية لم تكن مقنعة أبداً حكاية أنه لا يزال طالباً، ولم يمض على وفاة أبيه شهور، والتقاليد في بلاده تستكثر قيام حفلات الزفاف في مثل هذه الظروف... وهو من أسرة كبيرة معروفة شديدة التعلق بهذه التقاليد... كان كل ذلك في تقديرها مجرد كلام اقتنع به أبوها أو فضل أن يقتنع به وأن يوافق على زواجها منه، هكذا بدون أي نبضة فرح أو إيقاع زفاف، ربما... ربما لأنها قد شارفت الخامسة والعشرين من عمرها ولم يتقدم لها أحد، بينما تزوجت بنت عمها... وبنت خالها... بل وغيرهما من بنات الجيران... ثم لأن هذا الوافد، كما قال أبوها وهو يعدد مزايا شخصيته يواظب على الصلاة في أوقاتها، ولا تفوته صلاة الجمعة في مسجد السيدة، ولا يحب التظاهر بالفخفخة والوجاهة، رغم أنه من تلك الأسرة المعروفة في مكة بالوجاهة والثراء. فهو من وجهة نظر

الأب خير زوج ـ وسوف تكون هي معه أسعد زوجة. . . يكفي أنها ستقيم معه بجوار بيت الله الحرام. . . ستشاهد الكعبة التي يحلم بيوم مشاهدتها جميع من عرفتهم من أصدقاء أبيها، بل وجميع من عرفتهن من صديقات أمها. . . وهي لا تنسى ـ كلما جاء ذكر الكعبة في الأيام القليلة التي سبقت عقد الزواج ـ في أحاديث أبيها عنه ـ أن أمها خلال أيام مرضها كانت تكرر وعيونها مغرورقة بالدموع أن أول ما سوف تقوم به عندما تبرأ من علتها هو السفر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والسلام على رسول الله. . . ثم تناديها لتحسب معها، للمرة العشرين، التكاليف. . . فإذا انتهت وعرفت المجموع تهتف وهي تئن وتتوجع (خلاص. . . الفلوس موجودة. . . وبلاش يختي حكاية الكابينه في المركب. . . كلها ثلاثة أيام. . . وهواء البحر يرد الروح، ولكنها لم تشف من علتها التي قالوا إنها أكلت أو مزقت الأمعاء. . . ماتت وحتى اللحظة التي أسلمت فيها الروح. . . كانت تردد الصلاة على النبي. . . وتتحدث عن مكة وبيت الله، وما دامت قد تزوجت هي هذا الوافد من مكة وبيت الله فلا شك أن الله أراد لها الخير. . . والاستغناء عن حفلة الفرح البسيطة التي كانت تحلم بها طوال أسابيع الخطوبة، شيء مؤلم وغريب، ليس عندها فقط، وإنما عند ابنة عمها وابنة خالها، وبنات الجيران وحتى زميلاتها المدرسات في مدرسة البنات التي كانت تدرس فيها فن الرسم في السنة الرابعة ـ ثقافة عامة ـ، حتى هؤلاء الزميلات، لم يخفين دهشتهن، وإحداهن التي تزوجت منذ عام، قالت: (دي حاجة غريبة. . . ده بابا أستلف خمسين جنيه عشان الفرح. . . وبرضه كانوا بيقولوا إنها على قد الحال). ولكن الأمر قد انتهى الآن، فقد تم العقد.، وحتى الدخول بها في غرفة من غرف بيتها، لأن زوجها كان يسكن غرفة في بنسيون في ميدان

لاظوغلي... ولم توافق صاحبته أن تسكن معه زوجته في نفس الغرفة... لأن النظام يمنع ذلك... ولا تدري كيف وافق أبوها حتى على أن يدخل بها في غرفتها في الشقة... قال إن الرجل وافد، وهو سيسافر بعد أسابيع قليلة... وحين تصل مكة، ستجد نفسها في بيته الكبير... وفي أفضل غرفة في هذا البيت... وحتى الأثاث الذي تعلم أن الأب هو الذي يشتريه في العادة... قال زوجها إنها لا تحتاج إليه لأن كل شيء موجود في مكة، وعلى مستوى أين منه هذه الموبيليا (التعبانة) في مصر وغير معقول أن تنقل أي قطعة أثاث من القاهرة إلى مكة.

أما الصداق فقد رأى أبوها، أن لا يزيد مقدمه على خمسين جنيهاً دفعها الزوج قبل حضور المأذون، والمؤجل مائتان وخمسون جنيهاً سجله المأذون في العقد وقال زوجها يخاطب أباها ساعة كتابة العقد... (اكتب ومع المئتين والخمسين جنيهاً جارية ثمنها مئة وخمسين جنيهاً ذهباً)... ولكن المأذون رفض أن يكتب شيئاً عن الجارية... لأنهم في مصر ممنوعون من امتلاك الرقيق...

لم يبرح ذهنها ومشاعرها شيء من هذه الذكريات في اللحظة التي أخذت تمشي خلفه في ممر الباخرة التي تبحر بهما إلى جدة. لم تنس حكاية الكابينة التي كانت أمها تسقط أجرتها من حساب رحلة الحجاز توفيراً لبعض المال الذي رصدته لهذه الرحلة، لم تكن تشك أنها وزوجها يرتفقان هذه الكابينة ولم يدر بخلدها قط أنها معه ستكون من ركاب السطح المكشوف. سمعته يتساءل عن المكان الذي يجلس فيه معها وسمعت البحار المسؤول يقول (عندك اهو تعد مع الناس اللي آعدين هناك) وكلمة (هناك) هذه كشفت لها أن زوجها يوفر أجرة الكابينة وقد

ارتضى أن يسافر معها على السطح كهؤلاء الذين تجمعوا هنا وهناك في العراء أو تحت مظلة من القلع.

لم تجرؤ أن تسأله أو أن تعترض، فالتجربة جديدة عليها وهي ما تزال تصدق أنها زوجة شاب من أسرة واسعة الجاه والثراء.

كانت الأيام الثلاثة في مكانهما على سطح الباخرة جحيماً بالنسبة لها ليس فقط لأنهما كانا عرضة لنظرات الغير المتطفلة، وليس لأن زوجها كان يخرج من جعبته أو حقيبته البيض المسلوق والخبز والجبنة وبعض الأحيان علبة البولبيف ثم يسرع إلى هذا الجار أو ذلك لطلب أطباق يضع فيها هذه المأكولات، وإنما كان ما روّعها وهزّ مشاعرها وأثار مخاوفها طريقته في تناول الطعام إذ كان يستعمل يده دون أن يفكر في استعمال ملعقة أو شوكة أو سكين، وليس هذا فقط وإنما طريقته في التهام الطعام جعلتها تتذكر بعض أولئك الفلاحين الذين رأتهم أكثر من مرة يتناولون طعامهم على الرصيف أمام العمارة التي كانت تسكن إحدى شققها، وكان الجحيم حقّاً هو النوم في الليل. . . فقد كان يصر على أن تقترب منه وأن تلاصقه وأن. . . فإذا دفعته عنها يصفعها على وجهها صفعات خفيفة ولكنها تظل صفعات على كل حال. . . بل ومن هذا الجحيم أيضاً ما كان يحرص على أن تتمسك به من التستر عن أنظار الغير ليس فقط بإسدال الحجاب على وجهها وإنما بأن تدير ظهرها لتواجه الجدار فإذا حدث أن اضطرت للالتفات يمنة أو يسرة فما أسرع ما ينتهرها بنظراته ويكاد يهم بمد يده ليصفعها أيضاً. . . أما قضاء الحاجة بالنسبة لها فقد كان ذروة العذاب.

وانقضت الأيام الثلاثة وتراءت مدينة جدة أمام ركاب الباخرة وأخذ هو يأمرها أن تجمع المتناثر من أغراضها في الحقيبتين ويكرر، أن عليها أن

تسدل الحجاب على وجهها حين يهبطون إلى أرض الميناء... وعلى أرض الميناء بعد تفتيش الجوازات والجمارك رأت الذين ينتظرونه وسمعته يقول لها (انظري هؤلاء إخواني فلا تنسي أن تكوني مؤدبة وأنت تتحدثين إليهم).

كان إخوانه هؤلاء لا يختلفون عنه في ملامحهم وسمرتهم الحادة وعيونهم الجاحظة وكل ما يختلف فيه هو عنهم أنه كان يرتدي البدلة الإفرنجية بينما كانوا هم يرتدون ثياباً وعلى رؤوسهم هذه الأشياء البيضاء التي لم تكن طرابيش ولا قبعات وإنما هي (الكوفية) كما عرفت اسمها فيما بعد.

ذهلت حين سمعت رجلاً مع إخوانه هؤلاء تجاوز الخمسين من العمر يقول له: أسمع... ابنتي لا تسكن مع الطبينة... شوف لك بيت تسكن فيه مع هادي اللي جايبها معاك.

عناقيد الحقد

(٢)

تظاهر بأنه لم يسمع ما قاله أبو زوجته، وبدا يتشاغل عنه بالسلام على هذا أو ذاك ممّن كانوا مع إخوانه، ولكنه لم يكن قد أسقط من تقديره قط احتمال أن يطالبه الرجل بألا تسكن ابنته مع هذه التي جاء بها من مصر. وطوال الفترة القصيرة التي قضاها في حبك خطته للزواج من ضحى، كانت زوجته في الحجاز، وأولاده الثلاثة منها، لا تغيب عن تفكيره... لم يكن يذكر أنها طيبة... مسكينة... من نفس النوع الذي يؤمن ـ ويعمل ويتصرف ويسلك ـ كما تقضي الأوامر والنواهي التي تلقنها الفتيات، عن طاعة الزوجة لزوجها، كان سلوكها معه منذ تزوجها، وإلى أن نجح في سعيه لإكمال دراسته في مصر، سلوك مخلوق راض بقدره وقسمته وبما أراد الله له... حتى عندما كان يعود من سهراته في آخر الليل، كان يجدها في انتظاره وقد أعدّت له حساء (العدس) الذي لا يتنازل عنه، ومحلول (الشطة التكرونية) وطبق الأرز الأبيض، وطبق (المعرّق)... ولأنه كثيراً ما يكون متخم البطن، إذ تناول (عشوة الفول) مع رفاقه، ولأنه يضيق بنظراتها المتوسلة المرعوبة، ويعجبه في نفس الوقت أن يزيد من رعبها وإذلالها، كان لا يكاد يجلس ويلقي نظرة على

الصينية وما فيها من الأطباق، حتى يركلها بيده، أو حتى برجله... فإذا بدت في عينيها لمحة احتجاج صغيرة، كانت الصفعة الثقيلة ـ وعلى وجهها ـ هي التصرف المألوف الذي اعتادت أن يقابلها به... فتبكي بحرقة، وتنهمر الدموع على خديها، ولكن في صمت، بل وبمحاولة جادة لكتم نشيجها... كأنما عويلها جريمة يجب أن لا تظهر بأي ثمن.

وضحى هذه التي حبك خطة زواجه منها، لم يسبق له أن رآها إلا مرّة واحدة... لمحها وهي تقف مع أبيها أمام بوابة مسجد السيدة لحظات سمعها تقول وهي تمشي: (حاضر يا بابا)... ولم يكن يعرف أباها في الواقع، ولكن ما أسهل أن تعرّف إليه... دخل وراءه المسجد، وحرص على الجلوس إلى جانبه... وحين لاحظ أن الرجل يتلو ورداً، وصلوات على النبي، ويردد أدعية، شرع هو أيضا يردد أدعية يحفظها... ومنذ ذلك اليوم، لم ينقطع عن الصلاة في المسجد، وإلى جانب الرجل في غالب الأحيان، ولم يطل به الأمر حتى وجد سبيله إلى الكلام... ثم إلى التحدث عن نفسه، الحديث الذي أدرك أن الرجل يهتم ويعجب به... ولم تمضِ بضعة أيام حتى كان الرجل مبهوراً به... إعجاب لا حدود له وترحيب حميم، كلّما رآه يمشي في أروقة المسجد حريصاً على أن يكون في الصف الأول، حتى ولو تخطى صفوف رقاب المصلين.

وفكرة الزواج من أخرى، كانت شاغله منذ زمن طويل... لسبب رآه هو جوهرياً وحاسماً... فقد ساءت علاقته مع والد زوجته وتوتّرت مشاعره نحوه منذ اللحظة التي أصرّ فيها على أن يشهد شهود العقد، على مبلغ الصداق المعجّل، الذي يدفعه نقداً خمسمئة ريال فضة والمؤجّل وقدره ألف وخمسمئة ريال فضة... وازداد التوتر وبلغ حد الشجار، وتبادل الشتائم

القذرة عندما وجد الرجل ابنته تسكن في غرفة مسقوفة بالصفيح، مع ذلك العدد الكبير ممّن سمّاهم (خلق الله) من أفراد الأسرة... الوالدة العجوز... والأخوة الثلاثة مع زوجتين لاثنين منهما... والأختين العانسين... الجميع في غرفتين مما كان يسمّى (المقعد)، والديوان الصغير، و(دكّة الدهليز) التي تستعمل حظيرة لعدد من المعيز وتيس صغير، لا يكف عن النبيب، ثم السطح المسقوف بالصفيح، وقد قسّم إلى (خارجة) وغرفتين على الذين يرتفقون أيّاً منهما أن يقضوا حاجتهم إمّا في الخارجة، في غير أيام الصيف، وإما أن يهبطوا إلى الدور الأرضي.

لم يسمع قط من هذه الزوجة كلمة احتجاج أو رفض... كأنها قد تركت لأبيها أن يتصرّف، وقد ظل الأب يتصرّف، ولكن في حدود الشجار والزعيق والتهديد بطلب الطلاق، دون بلوغ حد التنفيذ... ولكن في تقديره، هو أنها التزمت الصمت هكذا، وتوخّت سلوك سبيل الأذعان المطلق للواقع، لسبب آخر، هو أنها (الكبرى) بين أخواتها... كانت على وشك أن (تبور) لو لم يتقدّم هو للزواج منها. ثم كثيراً ما ظل يقول بينه وبين نفسه:

هذا هو الصوم الذي أفطرت فيه على بصلة.

هذه الفتاة التي اختارتها أمه وامتدحتها (ستيته)، ودعمت المديح أخته الوسطى ليست في نظره، أو في الحقيقة، إلا شيئاً يشبه المعزة الكبرى التي في الدهليز... لها وفيه ملامح المعزة فعلاً... أذنان كبيرتان، تبدوان متدلّيتين إلى الصدغين، ووجه ممصوص بذقن طويلة ممطوطة مسحوبة... ولولا العينان الدعجاوان والحاجبان الأزجان، لما بقي في هذا الوجه شيء يستحق النظر... ليلة دخوله بها كاد يتركها ويهرع إلى منزل صديقه الذي

اعتاد أن يسهر معه، ثم يستلقي في النهاية وينام حيث هو على (الكرويتة) في المقعد حتى الصباح... ولكنه لم يفعل لأنه لم يستطع أن ينسى أنه قد دفع خمسمئة ريال فضة. مئة منها من أمه... ومئتان من (حرماله) جمعها خلال عام بطوله من أجر كان يدفعه له أخوه الأكبر لقاء عمله بعد العصر في الدكان... والمئتان من أخويه، فلا أقل من أن (يحلّل) هذا المبلغ الكبير... أن يدخل بها، وقد فعل، وفي نفسه هاجس أن لا يجدها عذراء، فيسترد كامل المهر ويعتق رقبته من مؤجّل الصداق الرهيب... ويتزوج غيرها... ورغم خيبة أمله تماماً فقد ظل طوال ذلك اليوم وحتى المساء يفكّر في أن (يدّعي) أنه لم يجدها عذراء... لقد فعل ذلك كثيرون قبله... فيتخلّص من هذه التي استقرت في ذهنه (معزة آدمية)... ولكن... يا للكارثة... فقد فوجىء بأن المسألة ليست بهذه البساطة... إذ كانت الفتاة قد سلّمت أمّها (بياض وجهها) صبيحة ليلة الدخول بها... أحس عندئذٍ أنه قد كتب عليه أن يعايش هذه المعزة الآدمية، بالطريقة نفسها التي تتعايش فيها الأسرة مع المعيز في دكة الدهليز... موجودة في البيت، أي نوع من الوجود... تأكل وتشرب... المعيز تدر اللبن، وهذه مستعدة دائماً لتلبية طلبات الأم والأخوات التي لا تنتهي... وعلى الأخص تلك الأخت الكبرى التي كانت تتفنّن في إرهاقها بالطلبات، ومنها مثلاً، البحث عن (اللبانة) التي كانت تمضغها ثم وضعتها في مكان ما... ومكان ما هذا لا يعرفه غيرها... ثم كنس البيت كله مرات عديدة... و(النحاس) لا بد أن يعاد غسله حتى ولو بدا كالمرآة المجلوة... والجلوس إلى طشت الغسيل ثلاث مرات في الأسبوع، والسهر الطويل على كي الملابس، مع شرط الاستيقاظ مع أذان الفجر... أما إذا حدث وانكسرت زجاجة الفانوس الهندي أو اللمبة التي تعلق في الجدار أثناء تنظيفها، فتلك هي المصيبة، التي

لا ينتهي لها أثر، إلا إذا اشترت بدلاً عن المكسور من ذلك المبلغ الصغير الذي نفحها به أبوها من مهرها.

وما كان يشحن صدره بالغيظ، ويمزّق أعصابه، هو أنها لم ترفع قط صوتها احتجاجاً... لم تطلب قط الطلاق... بل لم يحدث قط أن شكت واقعها إلى أبيها... كانت أمها حين تزورها مرة أو مرتين في العام بطوله، لا تملك أن تمسك دموعها، وهي تودّعها حزناً على ما تراه من واقعها... ثم تقول: (بكرة لمّا ربّنا يرزقك الولد... يعرفوا قيمتك).

ورزقها الله الولد، والثاني والثالث، في أقل من خمس سنوات... ولكنهم بدلاً من أن (يعرفوا قيمتها) كما ظلت تقول أمها... ازدادوا قسوة وشراسة وعنفاً... ولكنها من جانبها ـ بعد الولد الثالث استطاعت أن يكون لها لسان، وأن يرتفع لها صوت مع الجميع إلا زوجها... عرفت كيف تقاوم الإهانات وترفضها... وكيف ترفض غسل ملابس الأخوات... وكيف تترك (النحاس) لتغسله إحداهن... ولكن معه هو، كانت صخرة من الصمت... حتى عندما ينفجر في وجهها لأسباب تافهة مثل أن تنسى ترتيب وضع نعاله بحيث يرتفقه دون أن ينحني أو أن يلتمس انزلاق قدميه فيه... حتى في هذه الحالة كان ما تلوذ به هو الصمت المطبق... كأنها كانت تدرك أن هذا الصمت هو الذي يمزّق صدره، فيزداد سخطه، وانفجاره، حتى ليبدو مضطرباً يتخبّط ويكاد يسقط وهو يهبط السلم الخشبي المهترىء من تلك الغرفة المسقوفة بالصفيح على السطح إلى الدهليز.

وهذه التي جاء بها من مصر، وقد سمعت أن هناك زوجة، يرفض أبوها أن تسكن معها... دارت رأسها... واشتد ما يشبه الضباب يغلّف ما حولها... كادت تسقط... ولكنها ظلّت تحاول أن تتماسك...

عناقيد الحقد

(٣)

وكانت حالة الجو في هذه اللحظات، بل منذ غادروا السفينة إلى القارب الذي نقلهم إلى الرصيف أو الميناء شيئاً يزهق الأنفاس... حرارة الشمس شعرت ضحى كأنها تشوي وتمزق الجلد، وهذا مع ما يتصبب من العرق الذي يتجمع على الجبهة وفي الوجه، ويتقاطر حبات لا بد أن تزاح ليتاح فتح العين... لا أثر أبداً لنسمة هواء، تجفف هذا العرق مع رطوبة في الجو تضاعف الإحساس الخانق بضيق الأنفاس... دارت رأسها وأحست بالغثيان يكاد يقذف كل ما في جوفها... حاولت أن تتماسك... ولكن كيف؟ دارت بعينها حولها عسى أن تجد مقعداً تلوذ به... ولكن... فجأة سقطت بطولها حيث هي على الأرض المبتلة بمياه قذرة... وقد كانت واقفة خلفه، على وجهها هذا الحجاب الأسود الصفيق الذي لا تدري كيف جاءها أبوها به يوم سفرها إلى السويس... وكيف ظل يهمس في أذنها، أن تسدله على وجهها ثم لا ترفعه بعد ذلك أبداً ما دام هناك رجل غير زوجها، فتلك رغبة (الرجل) وتلك تقاليد الإسلام وقد أكرمها الله سبحانه بأن تكون زوجة رجل يعيش في البلد الذي لا يتسامح أبداً في الحفاظ على هذه التقاليد.

لم تفقد وعيها في اللحظات التي تهاوت وسقطت فيها على الأرض، سمعت هذا وذاك ممن كانوا يقفون يرددون ما يعبّر عن المفاجأة والدهشة بسقوطها وسمعت آخر يصيح يطلب لها ماء... أحست بزوجها ينكفىء في اتجاهها... وهو يقول (إيش بك؟) ثم لا شيء بعد ذلك... غابت عن الدنيا تماماً...

لا تدري كيف نقلوها إلى هذه الغرفة المظلمة وأضجعوها على مرتبة بدون وسادة أو غطاء. دارت بنظراتها حولها... لم يكن هناك أحد قط، من بعيد أصوات صبية قدرت أنهم في الشارع، وأنها هي في غرفة في الطابق الأرضي...

ترى أين هي... وأين هو؟... لا يهم فهي الآن تحت سقف... في غرفة. هناك نسمة خفيفة باردة لا تدري من أين تجيء... دارت بنظراتها مرة أخرى... هناك نافذة عريضة مغلقة الدرف، ولكن النسمة كانت تأتي من الشقوق في ألواح الخشب المهترىء... تنفست ملء رئتيها... تحركت قليلاً... لتشعر كأنها ملفوفة في ثياب مبتلة. تذكرت المياه القذرة التي سقطت عليها في الميناء... رفعت يدها تتحسس الطرحة السوداء. كانت هناك على رأسها وحول عنقها مبتلة أيضاً... يظهر أنهم رشوها بالماء لتفيق من اغتمائها... وفجأة كاد يصعقها صوت نهيق حمار كأنه معها في نفس الغرفة... غير معقول... وما كاد يفرغ الحمار من النهيق حتى سمعت نهيق حمار آخر ولكن من بعيد... لم تفهم شيئاً... ظلت في ضجعتها حيث هي وقتاً لا تدري كم طال... من شقوق الخشب يتسلل جزء من شعاع الشمس... وأصوات الصبية لا تزال تتردد حاولت أن تفهم شيئاً مما يتصايحون به... كانت صيحاتهم أحياناً

شتائم... صعقها أن بينها لعنات وألفاظاً تصف الأم والأخت بأوصاف قذرة جدّاً. كيف؟... لا تدري... ولكنها رجحت أنها ربما في حي من هذه الأحياء التي يهبط فيها مستوى سلوك الصبية وتصرفاتهم... ما عليها... المهم أين هي؟... وأين هو؟ زوجها وأولئك الذين قال إنهم إخوانه الذين استقبلوه في الميناء... وذلك الرجل الذي أنذره بأن ابنته لن تسكن مع (الطبينه)... وأن عليه أن يجد لنفسه بيتاً يسكن فيه معها هي التي جاء بها من مصر... وطاف بذهنها ذلك البيت الكبير الذي تحدث عنه أبوها وهو يقنعها بأن توافق على دخول زوجها بها في بيته وأفضل غرفة فيه، والأثاث الذي قال زوجها إنه على مستوى أين منه هذه الموبيليا (التعبانة) في مصر؟... كل ذلك في مكة طبعاً... فها هي في مكة الآن؟! مستحيل قطعاً... فملابسها وحتى الطرحة على رأسها وحول عنقها لا تزال مبتلة بمياه الأرض التي سقطت عليها... وهذا المكان الذي وجدت نفسها فيه يستحيل أن يكون غرفة في فندق... يستحيل أن يوافق هو على أن يتركها أو أن يسكن معها في هذا المكان... ليس عليها إلا أن تنتظره... لا شك أنه سيجيء في أي لحظة...

استطاعت أن تجلس... رأت هناك على ضوء الشمس عند الباب المغلق الحقيبتين اللتين جاءا بها من مصر وإلى جانبهما لفة البطانيتين اللتين افترشاها وظلا يرتفقانها طوال الأيام الثلاثة على السطح المكشوف في الباخرة... تذكرت عذاب قضاء الحاجة في الباخرة وتلك الأبواب المغلقة وطابور المنتظرين... كيف يمكن أن تقضي حاجتها هنا... ماذا وراء هذا الباب المغلق؟!... ليس في المكان أي باب آخر... نهضت... حاولت فتح الباب... اكتشفت أن عليه من الخارج قفلاً

كبيراً. تلصصت من الفجوة... رأت ممراً طويلاً... وفي نهايته هناك رأت حماراً... لا شك أنه الذي سمعت نهيقه قبل قليل... وحوله مجموعة من المعيز وعدداً من الدجاج... أنها قطعا في زريبة... فليكن... المهم الآن أين تقضي حاجتها؟؟!... ولكن تحت قدمها على الأرض أحست ووجدت المفتاح... فهمت أنهم أغلقوا الباب بالقفل وتركوا لها المفتاح... وعليها أن تحاول فتح القفل... ولم يكن الأمر صعباً... استطاعت فعلاً أن تفتح القفل وأن تخرج إلى الممر الطويل... ولكن أين الحمام؟... الروائح الكريهة التي تملأ الممر أكدت أنها ستجده... ولم يطل بحثها... وجدته ودخلت فعلاً ولكن هذا الباب لا يغلق... هناك كتلة كبيرة من حجر، فهمت أنها التي تستعمل لإغلاق الباب.

طال انتظارها بعد أن خلعت ثيابها المبتلة وارتدت غيرها... حزمة أشعة الشمس أخذت تغيب... لا شك أنه الغروب... تلاشت صيحات الصبية... بعد لحظات سمعت آذان المغرب... وليس بعد ذلك إلا الليل والظلام في زريبة للحمير والمعيز والدجاج... عصر قلبها الرعب والخوف من المجهول...

أحست بلذعة الجوع... كان كل ما تبلغت به من الغذاء قطعة الجبن وشريحة صغيرة من الرغيف قبل رسو الباخرة في الميناء... ثم لا شيء بعد ذلك حتى الآن فليكن ليس الصبر على الجوع مشكلة... ولكن الظلام في الزريبة... ولا أثر لزوجها أو لأي مخلوق مع هذا الصمت الذي أطبق على كل ما حولها... المهم أين هو؟؟...

لم يسعها إلا أن تعود إلى المرتبة في وسط المكان... أحست ليست

بالوحشة والخوف فقط، وإنما بالضياع في عالم لا تعرف عنه أي شيء. سوى الزوج الذي بدا لها الآن أن أباها قد ارتضاه زوجاً لها، لأنه الوحيد الذي تقدم لها وقد تجاوزت الخامسة والعشرين من العمر... تلك الحكايات عن عائلته وبيته الكبير، وحتى عن الصلاة... كلها أخذت تفقد بريقها، منذ وجدت نفسها معه على السطح المكشوف في الباخرة... والآن ها هي تراه مخلوقاً. يتركها في هذه الزريبة وراء أربعة جدران، وفي الظلام... وحدها... ثم ما الذي جعله يفكر في الزواج منها، وهو متزوج، وربما له من زوجته أولاد؟؟؟ لم تكن تنسى أن والدها كان قد حرّم عليها دائماً ما تتمتع به كل فتاة من زميلاتها من المكياج... حتى شعرها كان يرفض أن تذهب لتصفيفه كما تذهب الأخريات... اعترفت بينها وبين نفسها أن وجهها حين تواجه نفسها في المرآة كان يغلب عليه الشحوب ومسحة من الكآبة والحزن... فما الذي فيها وجعل هذا الرجل يتقدم لخطبتها وزواجها ويترك المئات غيرها من الفتيات الجميلات؟ وما أكثرهن في القاهرة... وحتى في كلية الآداب التي قال أبوها أنه يدرس فيها... واستوقفها هذا السؤال وكأنه أيقظها من غفلة طويلة لم يخطر لها أن تسأل: كيف يتفق أن يكون طالباً في كلية الآداب، ويتزوج، ثم يقرر العودة بالزوجة إلى الحجاز... لم يقل أبوها إنه يحمل الماجستير، أو حتى البكالوريوس كل ما قاله عنه، إنه طالب من الوافدين... طالب، ويتزوجها، ويعود معها إلى الحجاز لتسكن في البيت الكبير. وفي أفضل وأعظم غرفة فيه... كيف لم يخطر لها أن تناقش أباها... أو أن تسأله هو خلال الأيام التي قضتها معه في بيتها عن المؤهل الذي يحمله، أو عن السبب في عودته إن كان لا يزال طالباً...

واشتد الظلام... لم يعد يتسلل إليها أي بصيص من الضوء... ظلام دامس رهيب... وصمت مطبق... حتى الحمار لم يعد ينهق... لاحظت أنها تركت الباب مفتوحاً... غاص قلبها وهي في مكانها لا تدري كيف تصل إليه فتقفله... كيف تغلقه من الخارج وهي في الداخل... تسمرت في مكانها حتى الحركة لا تستطيعها في هذا الظلام؟ ولكن إلى متى؟؟!...

عناقيد الحقد

(٤)

تراءى لها، وهي مسمرة في مكانها. أن الشقوق في درف الشباك تسرِّب ضوءاً خافتاً قدَّرت أن مصدره في الشارع... أدارت نظرها لحظات فأيقنت أن في الشارع ضوءاً... وهذه الدرف المغلقة ما الذي يمنع أن تعالج فتحها لترى هذا الشارع... ليست إلا خطوة أو خطوتين، فتكون عند الشباك، نهضت مرعوبة مضطربة، وطال وقوفها حيث هي فوق المرتبة... كانت المشكلة التي واجهتها هي كيف تفتح هذه الدرف... لم يسبق قط أن رأت مثلها لا في شقتها في القاهرة، ولا في بعض بيوت أقاربها التي زارتها مع والدها في الريف... ولكن فتح هذه الدرف أصبح عندها مسألة حياة أو موت... ليس للضوء فقط وإنما ليسمع صوتها في الشارع إذا ما حدث ما يضطرها إلى الاستغاثة... ورجح في تقديرها الآن، أنها ستضطر إلى هذه الاستغاثة حتماً... قفزت من مكانها... وارتطمت بحرف مصطبة تتقدم موقع الشباك والدرف... وملأها صوت الخشب الذي ارتطمت به رعباً قاتلاً... ولكن لا بد من فتح الدرف... مدت يديها تتحسس سطح المصطبة... اطمأنت حين لمست عليها سطحاً ناعماً... قفزت وجلست حيث هي وأخذت تعالج فتح أي درفة من

الدرف... لم يكن الأمر يستحق كل ما خامرها من خوف إذ ما كادت تتحسس أطراف إحدى هذه الدرف حتى وجدت ما يضبط إغلاقها... وما كادت تعالجه حتى طاوعها، فإذا بالدرفة لا تنفتح باستدارة في أحد الاتجاهين لجميع درف النوافذ وإنما بالسقوط العنيف إلى سطح المصطبة وربما إلى ما تحتها... المهم أن الدرفة قد انفتحت واستطاعت أن تبصر أمامها ما ظلت تتوهم أنه ذلك الشارع الذي يلهو فيه الصبية... لم يكن في الواقع إلا ممراً ضيقاً ترى الجدار الموازي لموقعها وحين دارت ببصرها يمنة ويسرة... رأت هناك في آخر الممر، مصدر الضوء الخافت الذي شجعها أو هو قد أغراها بأن تحاول فتح الدرفة... كان شيئاً يشبه فوانيس العيد، ولكنه كبير الحجم... مسود الزجاج... فيه مصباح هو الذي يضيء الممر... هناك أبواب صغيرة قصيرة... قدرت أنها أبواب زرايب أخرى كالزريبة التي وجدت نفسها فيها... وصوت النهيق البعيد، الذي سمعته... لا شك أنه لحمار آخر في واحدة من هذه الزرايب... ولكن أين يسكن أولئك الأطفال والصبية الذين كانت ضجتهم تملأ المكان... لا أثر لأي مخلوق... فاجأها مواء قطة يبدو أنها كانت هناك، فما كادت تشعر بوجودها حتى أخذت تتسول... جائعة بالطبع... مثلها تماماً... أحست كأن الجوع يتسلل إلى تفكيرها، لم تعد تستطيع أن تنسى أنها لم تأكل شيئاً... بل ولم تشرب ماء منذ الصباح في الباخرة... حسناً... إذا كان زوجها قد رضي لها المقام في هذه الزريبة، فهل عجز أيضاً عن أن يترك لها مع الحقيبتين، ولفّة البطانيتين، طعاماً تأكله عندما تفيق من إغمائها... وبعد أن خلعت ملابسها المبتلة، أخذت تشعر بالظمأ... حتى الماء لم يفكر في أنها يمكن أن تحتاج إليه... تذكّرت أن في المرحاض الذي قضت فيه حاجتها زيراً فيه

ماء... ولكن حتى هذا كيف يمكن أن تصل إليه مع هذا الظلام المتربّص بها والمطبق عليها في هذا المكان.

فجأة أحست أن في الغرفة حركة... شيئاً يتحرّك... تحت هذه المصطبة حركة خافتة... تتوقّف لحظات ثم... لا تكاد تتبيّن الشيء أو المخلوق الذي يتحرك، حتى ترى القطة الجائعة تتسلّق متجهة إليها... بل ها هي تواجهها... كادت تصرخ... ولكن القطة كانت أسرع منها... اندفعت إلى داخل الغرفة كالصاروخ... وفي الظلام الحالك، كانت عينا القطة تتوهجان كمصباحين صغيرين وهي تتربّص لحظات، ثم تنقض... لم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء لتدرك أنها المعركة الخالدة بين القط والفأر... فالمكان مسرح للفئران إذن؟؟؟ أحست بالعرق البارد يتصبّب في ظهرها... والرعدة تهز جسمها... تجمّد حركتها كلياً... طوال حياتها كانت لا تطيق رؤية الفأر حتى في الصور... وحين كان يحدث أن تراه في المطبخ أحياناً، كانت تصرخ وتستنجد بمن يسمع صراخها في المنزل... بلغ بها الرعب مرة وهي في الثانية عشرة، أن أصيبت بإغماء، واحتاج الأمر إلى علاج بضعة أيام... والآن ها هي الفئران، وليس فأراً واحداً وتعيش في هذا المكان... ظلّت حيث هي... ومع أن المعتاد أن تصرخ في مثل هذا الموقف، فقد وجدت كأن صوتها يحتبس، وفي نفس الوقت شغلتها حركات القطة، التي كانت ترى منها عينيها وهي تطارد فريستها... وكادت تقفز من مكانها رعباً، وهي ترى نظرات القطّة كأنها مصوبة في اتجاهها... ماذا لو أن الفأر الذي تطارده لجأ إلى مكان حولها على المصطبة... كارثة... وحتى لو صرخت، فمن الذي يمكن أن يخف لنجدتها.

نبّهتها من انغماسها في مخاوفها، أصوات بشر... رجال يتكلمون ويقتربون فيما بدا وكأنه مدخل الزقاق... أنصتت بكل جوارحها... وألقت نظرة إلى حيث مصدر الأصوات... هناك رأت ثلاثة أشخاص... رجال دون شك، وعند مرورهم تحت الفانوس استطاعت أن تتبيّن بينهم زوجها... لا يزال في بذلته الإفرنجية... ومعه اثنان، لم تشك في أنهما من إخوانه الذين استقبلوها على رصيف الميناء... خطر لها أن ترفع عقيرتها بصرخة تستعجل بها إسراعه إليها. ولكنّها فضلت التزام الصمت، فهم يتحدثون بأصوات يغلب عليها الهمس، ولكن في انفعال ظاهر كأنهم يتناقضون حول موضوع هام... واقتربوا أخيرا بحيث استطاعت أن تسمع حتى الهمس الدائر بينهم... حاولت أن تلتقط أي كلمة من الكلمات التي كانت تتدفّق، وتتقاطع بين زوجها وبين الأخوين... ولكن... أي لغة هذه التي يتحدّثونها؟؟؟ كلا ليست اللغة العربية... وكذلك ليست الفرنسية أو الإنجليزية أو حتى اليونانية التي لا تفهمها، ولكن تستطيع أن تمايز بينها وبين غيرها، فالقاهرة وشوارعها لا تخلو في الغالب من الخواجات، الذين يتكلمون هذه اللغات واللغة الفرنسية بالذات، لا تخفى عليها، فقد كانت مقررة في جميع سنوات مرحلة الثقافة العامة... لم تسمع قط هذه اللغة التي يتحاور بها زوجها مع أخويه... ومع ذلك فحين اقتربوا من الشباك الذي تجلس خلفه، استطاعت أن تلتقط وأن تفهم ثلاث كلمات عربية، جعلت تتردد في الحديث الهامس... هي كلمات: (مدير... كفيل... شرطة)... تذكّرت أنه قال لها ذات مرة وهو يتحدّث عن المملكة أن الشرطة فيها تتمتع بهيبة، يتحسّب لها الكبير قبل الصغير... وحين سألته عن معنى الكلمة، قال: (إنها التي تسمونها «البوليس»).

فالمسألة إذن مسألة بوليس... وغيابه طوال هذا الوقت لا بد أن تكون له علاقة بالبوليس ولكن أي علاقة، أو أي مشكلة يا ترى؟؟؟ لا بد أن تكون مشكلة معقدة، وإلا فكيف يمكن أن يغيب عنها، وهي ملقاة في هذه الزريبة، ودون أن يبعث من يتفقد أحوالها طوال النهار.؟؟؟ وانقطع الحوار لحظات، ثم سمعته يقول: (حتى النور لم يفكّر محجوب أن يتكرّم به... جالسة في الظلام...) وأجابه أحد أخويه: (كان المفروض أن نسافر إلى مكة قبل المغرب... لم يكن أحد يدري أننا نتعطل كل هذا الوقت وإلى الآن...) وقال زوجها: (وسيارة البريد لا تقوم) إلا بعد صلاة الصبح... يعني لا بد أن نقضي الليلة في جدة.)... وأجاب أحد أخويه: (الأمر لله... عسى خير...).

وكانت المعركة بين القطة والفئران لا تزال تدور... وحين ألقت نظرة إلى المكان، كانت القطة على مقربة منها... على المصطبة... وكان واضحاً من حركة تربّصها أنها تحاول أن تنقض على فريسة أمامها... ربّما في موقع بجانبها... لم تستطع أن تكتم صرخة خافتة، لفتت إليها نظر زوجها... فإذا به ينتفض منفعلاً وهو يقول: (أنت؟؟؟. والنافذة مفتوحة؟؟؟ هكذا بوجهك... وبدون شيء على رأسك؟؟؟).

وقبل أن تجيب بشيء... قبل أن تقول له إنها تكاد تموت من الخوف في هذا الظلام... بل قبل أن يرتفع صوتها بالصرخة الخافتة... رأته، يندفع إلى باب يبدو أنه كان أمامه... وفي لحظات كانت تسمع وقع خطواته، مع أخويه في الدهليز الطويل... يظهر أن أحدهم ارتطم في طريقه بدجاجة، أو ربّما بالديك، الذي ارتفع له صوت تابعته أصوات الدجاج في ضجة سرعان ما خفتت، عندما شعل أحدهم عود كبريت ظل

ممسكاً به مشتعلاً وهو يتجه إلى المكان الذي تجلس فيه. رأت على ضوء عود الكبريت المشتعل زوجها في بذلته الإفرنجية، وعلى عينيه نظارته السميكة التي بدا لها أنها تراها لأول مرة... كان يتعثر في مشيته... كاد يسقط حين ارتطم بصفيحة ملقاة في طريقه... سمعته يلعن ويشتم... وانطفأ عود الكبريت ليشعل أخوه عوداً آخر وهو يقول: (انتظرني في المقعد... محجوب لا بد أن يكون فوق... عسى أن يكون عنده فانوس زايد...)

سمعت زوجها يدخل الغرفة وهو يهدر: (في الروشان؟؟؟ وبوجهك في الشارع؟؟؟ ورأسك هكذا مكشوف؟؟؟)... ماتت قصتها مع هذا المكان، في حلقها... لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة... فالمسألة عنده، أنها في الشباك المفتوح، بوجهها وبدون طرحة تغطي شعرها... ولا شيء غير ذلك على الإطلاق. لا شيء عن الظلام وبدون عود كبريت... ولا عن الجوع... ولا عن الظمأ... أما عن الفئران والقطة، فحكاية لا طعم لها مع الخطيئة التي ضبطها متلبسة بها...

ولم يطل غياب أخيه، فقد عاد وفي يده الفانوس يشعّ هذا الضوء الذي بدا وكأنه ضوء الشمس بالنسبة لها... وما كاد زوجها يراها في مكانها على المصطبة حتى صرخ: (وما تزالين في الروشان؟؟؟) ولم تكن ضحى تعرف الروشان؟؟؟ ولكنّها فهمت أن عليها أن تغادر مكانها وأن تقف له حيث وقف في وسط الغرفة، ويده تبحث في جيبه عن علبة السجاير... وما كاد يخرج واحدة ويمسكها بين أصبعيه حتى أسرع أخوه يشعلها له بعود الكبريت.

وارتمى بطوله على المرتبة المطروحة في وسط الغرفة... كان واضحاً

أنه مرهق لعلّه لم يجد مكاناً للراحة أو الجلوس طوال فترة غيابه كلها. . . ورأته على ضوء الفانوس وقد وضعه أخوه حيثما اتفق. . . أكثر من حزمة من شعر رأسه تكاد تغطي نظارته السميكة ووراءها عيناه. . . وكان الهواء أو النسمة التي تهب من النافذة قد احتبس تماماً. . . فالحر والرطوبة الخانقة والعرق الذي يتفصّد من كل جسم بغزارة، يحبس الأنفاس إلى حد الإحساس باختناق تام. . .

جلست على الأرض، أو على هذا البساط المخطط الممزق، وهي تتوقع أن يقول شيئاً عن سبب غيابه وفي نفسها هاجس الكلمات الثلاث التي التقطتها من الحوار الهامس بتلك اللغة الغريبة. . . اعترفت في أعماق ضميرها أنها لم تشعر قط، حتى بالعطف عليه، فضلاً عن حبّه والقلق عليه. . . والآن وهو متمدد على المرتبة ببذلته وحتى بحذائه الذي لم يخلعه، أحسّت أنه مخلوق لا تربطه بها أي رابطة سوى عقد الزواج. . . ولكن الأهم هو مستقبلها معه، وقد اتضح لها الآن، أنه طريق لا يختلف الظلام فيه عن الظلام، الذي عاشت فيه منذ الغروب، ولا يختلف الضيق به، عن هذا الضيق الذي يتزايد مع الحر والرطوبة وانعدام نسبة الهواء. . . وقطع أخوه حبل الصمت الذي التزمه الجميع وهو يقول: (أنا أمشي الآن. . . هل تريد أي. . .) فإذا بزوجها يقاطعه بعنف:

ـ تمشي؟؟؟ ومن ينقل الحقائب في الصباح؟؟

ـ سأكون عندكم، قبل شروق الشمس

ـ ولكن محجوب. . .

ثم صاح بعنف، وكأن صوته يختنق: ـ حتى فنجان الشاهي لم يفتكرنا به.

ـ الشاهي... والعشا... كل شيء سيجيئكم به... لا تقلق.

ـ قل له نحتاج إلى مراوح...

ـ حاضر... ومراوح... وكل ما تحتاجون إليه.

قال أخوه هذه الكلمات، وهو واقف... ثم استلم الباب وخرج. فتابعه زوجها رافعاً صوته:

ـ لا تتأخّر في الصباح... المدير ينتظرنا قبل الظهر في مكة...

ولم يسمع من أخيه ردّاً فقد ابتلعه الظلام، وابتعد وقع خطواته في الدهليز... والتفت إليها، وهو يقول: هل عرفت طريق المرحاض؟؟؟

عناقيد الحقد

(٥)

وما كاد يعود من قضاء حاجته، حتى ارتمى بطوله، وببذلته الإفرنجية، وحذائه، على تلك المرتبة اليتيمة، التي ألقيت عليها ضحى وظلّت ترتفقها طوال النهار. وانتزع نظّارته عن عينيه ومدّ يده بها إليها... فهمت أنه اعتزم أن يستسلم للنوم... خطر لها أن تنبهه إلى أنه لا يزال يرتدي البذلة والحذاء، وأن هذا الحر الذي يزهق الأنفاس يمكن أن يزهق أنفاسه فعلاً إذا ظل على هذه الحال... ولكن رأته يغمض عينيه ثم يستدير ليتمكن من إحكام ضجعته على جنبه في اتجاه الجدار.

ومع الظلال التي ترامت على سحنته مع الضوء الخافت من الفانوس، خالجها إحساس غريب، بالوحشة، وليس بالاشمئزاز، وإنما بالنفور والضيق، بحيث وجدت نفسها تتساءل: كيف عميت عن مشاعرها وأحاسيسها هذه، في الأيام التي قضتها معه في القاهرة ثم في الباخرة التي ارتفقاها إلى جدة. ودارت بعينيها في أرجاء الغرفة، لترى تلك الدرفة المفتوحة في الشباك، وقد بدت كأنها جدار أصم لا تتسلّل منه تلك النسمة التي عرفتها قبل الغروب... وكانت القطة على المصطبة هناك أيضاً... شبعت بعد معركتها مع الفيران، فتكعكت على نفسها في نوم عميق...

هي وحدها التي كتب عليها أن تظل هكذا إلى جانب المرتبة التي تمدد عليها زوجها... فجأة رأت يده ترتفع قليلاً ثم تنقض على جبهته... إنه البعوض الذي استقر على هذه الجبهة السمراء، وكانت قد عرفت أنه يملأ الغرفة ويقع على الوجه واليدين، فلا تكف عن هشّه، كما جرّبت أكثر من مرّة لسعاته التي يظل أثرها ويتزايد كلّما حاولت هرش موقع اللسعة في اللسعة في الجسم.

سمعت وقع خطوات تقترب من الغرفة عبر الممر... رجّحت أنه أخوه، عاد ربّما بالعشاء والشاي الذي قال إن (محجوب) سيجيئه به... ولكن توقّف وقع الخطوات لحظات، ثم سمعت صوتاً يردد (يا الله... يا ساتر)... فهمت إنه غريب يعرف أن في الغرفة امرأة ويريد أن ينبّه إلى وجوده... لم تعرف كيف تتصرف؟؟؟ خافت إن هي خفّت للاستفسار عمّا يطلب، أن ترتكب خطيئة فاحشة، بل أكبر فحشاً من تلك التي أثارت عليها غضب زوجها حين سمع صوتها وهي في الشباك... اضطرت إلى التزام الصمت، فعاد الصوت يردد (يا الله... يا ساتر)... فمدّت يدها إلى كتف زوجها تلمسه برفق... وربما هزته عسى أن يتنبّه... فإذا بيده تنقض عليها، فانحرفت عنها، وما كادت، حتى جلس وفي عينيه شحنة من الرعب وهو يقول: (ماذا؟ من هناك؟؟؟)... وأجابه نفس الصوت بنفس العبارة: (يا الله... يا ساتر)... ورفع زوجها صوته يقول:

ـ صبي العم محجوب.

ـ خير...

ـ الشاهي والعشا.

ـ خلّيه عندك وروح.

ـ طيب... شوفه عند التنكة.

* * *

كان النعاس يكاد يغلبها، عندما تناهى إلى سمعها عن بعد صوت أذان الفجر... فركت عينيها، وأفرغت من صدرها المحتقن بالغيظ آهة طويلة ولكن في حذر، إذ سبق أن رآها تتنهّد أو تتأوه أثناء تناول العشاء، فانتهرها بغلظة بالغة... وكان مما قاله: (لم تأكلي... ومنذ جئت ووجهك مقلوب... وجه النحس) وحرّك شفتيه في بصقة تعبّر عن القرف... لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة... وكأنّه لمح في عينيها الدموع فاستشاط غضباً... وقال في حردٍ وغيظ (تبكين؟؟؟ ابكِ... ولكن أقلبي وجهك عني. وجه النحس).

ولم تستطع أن تفهم لماذا يصمّم هكذا على أن وجهها (وجه النحس)... همّت بأن توقظه من نومه، وهي تذكر أن ما سمّوه (سيارة البريد) تسافر إلى مكة قبل شروق الشمس... ولكنّها خشيت أن يغضب، فالتزمت الصمت... قدّرت أن أخاه سيجيء كما وعد لحمل الحقيبتين ولفّة البطانيتين، فلتتركه نائماً إذن، وتحاملت على نفسها، وانطلقت إلى الممر المظلم تضيئه بالفانوس في يدها، لتتوضأ لصلاة الفجر. واستروحت في مشيتها، مع روائح المرحاض الكريهة هبوب نسمة باردة، وما كادت تخطو بضع خطوات حتى صعقها نهيق الحمار في آخر الممر، ومعه ضجة الدجاج وثغاء المعيز... أذهلها إحساسها الغريب بأن هذه المخلوقات تقول لها شيئاً... ربّما تواسيها وتخفّف عنها ما تجد من الوحشة والضيق والأسى.

وحين عادت من الوضوء، وجدت زوجها قد استيقظ وجلس على المرتبة التي ظل نائماً عليها منذ استلقى عليها البارحة... أدركت أن نهيق الحمار هو الذي أيقظه... وحين رآها عبر نظّارته السميكة، وهي تجفّف وجهها ويديها من ماء الوضوء قال: (اسرعي... اخرجي لي من الحقيبة ثوباً... لم يخطر لك قط أن تذكريني بخلع هذه البذلة... أكاد أموت من الحر...) قال ذلك ثم نهض وأخذ الفانوس في يده، وانطلق في الممر هو أيضاً يريد قضاء الحاجة والوضوء...

لم يطل انتظارهما لأخيه... سمعا معاً وقع خطواته في الممر ـ، ثم سمعاه يرفع صوته بسعلة مصطنعة، ينبّه إلى أنه في الطريق إلى الغرفة... رفع زوجها صوته يقول: (تعال... تعال.)... والتفت إليها يقول: (ما تزالين عارية الرأس... وشعرك منبوش...) ثم رفع صوته بلهجة آمرة منتهرة: (هيّا... ماذا تنتظرين؟؟).

وأحسّت ضحى أنها تواجه مشكلة لم يسبق لها أن واجهت مثلها قط... فالفستان الذي ارتدته أمس، بعد أن خلعت ملابسها المبتلة، ليس فستاناً وإنما هو قميص النوم... ليس من ذلك النوع الشفّاف، فأبوها حين رافقها مع ابنة خالتها لشراء بعض الملابس لها قبل الزفاف أصرّ على أن تكون أقمصة النوم الثلاثة من هذا النوع (الحشمة)... ولكن كيف تخرج بقميص النوم إلى الشارع... وهذه (الطرحة) التي جفّت فعلاً، تبدو كأنها ممسحة بلاط... كيف يمكن أن تلف بها رأسها ووجهها... وهي تمشي معه وفي الشارع.

لاحظ أنها لا تتحرك... فعاد ينتهرها: (أنت يا وجه النحس... ماذا تنتظرين؟؟ قلت لك غطي رأسك، وتجهزي...)... وتدخّل أخوه

بصوت خفيض متحسّب يقول: (طوّل بالك... ما يزال الوقت مبكّرا...) ولاحظت هي أن هذا يتكلم ووجهه إلى الجدار، متحرّجاً أن يراها وهي مكشوفة الرأس (منبوشة) الشعر.

ماذا تقول له؟؟؟ وكيف تتصرّف؟؟؟ تستطيع أن تخرج من الحقيبة فستاناً ملائماً... ولكن مع جو الإرهاب هذا الذي ينفثه حوله كيف تستطيع أن تنبس حتى بكلمة واحدة... أدركت على أي حال أنه لا يلاحظ حكاية الحرج في خروجها إلى الشارع بقميص النوم... والطرحة التي تبدو كأنها ممسحة بلاط؟؟؟ لفّت بها رأسها، وأسدلت أحد طرفيها على وجهها... وكان هو قد فرغ من الصلاة... وتعمّدت أن تقف أمامه كما هي، بكل ما تصورته من تهافت وهو أن مظهرها... لم يبد عليه أنه يستنكر شيئاً... فقالت: (أنا جاهزة...)

وحمل أخوه الحقيبتين... وحمل هو لفة البطّانيتين... وانطلقوا في الممر الطويل وقبل أن يصلوا إلى حيث يقف الحمار والمعيز والدجاج، وراء حاجز قصير... خرجوا من باب إلى ممر آخر شديد العتمة، انتهى بهم إلى باب الخروج إلى الشارع. واستقبلتهم نسمة هواء بارد منعش، نسيت معها ضحى كل شيء عن مظهرها وعن لحظات الهوان التي أصبحت تعيشها وهي تمشي خلفه، بينما أخذ هو في الحديث بتلك اللغة التي لم تسمعها من غيرهما قط.

الشوارع التي ظلّوا يغشونها واحداً بعد الآخر كانت شبه خالية... هناك مجموعات من الناس تخرج من المسجد... وهناك مجموعة أخرى، وقفت أمام دكان انتصبت في واجهته جرّة الفول... لاحظت أن البيوت التي تمر بها في الشارع العريض نوعاً ما، أخذت تتميّز بارتفاعها وبهذه

(المشربيات) من الخشب المزخرف، يغلب عليها اللون الأزرق الفاتح، أو البني... لفت نظرها أن المعيز سارحة في جميع الشوارع... بل هناك أيضاً كلاب تواصل نباحها وهي تطارد بعضها البعض. استغربت أن لا ترى أثراً لما اعتادت أن تراه في شوارع القاهرة... لا أثر للسيارات، أو عربات الترام، أو أعمدة النور... أو حتى للعمارات الشاهقة متعددة الأدوار... ثم كان أشد ما استغربت له أن أرض الشوارع لا تزال على طبيعتها... تغوص في بعضها الأقدام... طين أو رمال...

كان زوجها لا يزال يواصل حديثه مع أخيه بتلك اللغة التي لا تفهمها... ومرة أخرى استرعى انتباهها أنه يردد هو، وأحياناً أخوه كلمة (الشرطة..) ثم (المدير)... فلم تعد تشك في أن هناك مشكلة لها علاقة بالشرطة التي عرفت أنها (البوليس)... وأن زوجها يواجه هذه المشكلة... وربطت في ذهنها بين المشكلة، وبين أنها (وجه النحس)... فلم تحتج إلى تفكير طويل أو ذكاء لتدرك أنّه واجه هذه المشكلة، أو هي قد واجهته بعد زواجه منها...

وأخيراً رأت مجموعة من الناس، وقفوا حول سيارة نقل (لوري)... وسمعته يقول لأخيه: (أسرع... ضع الحقيبتين قبل أن يزدحم السطح بحقائب الركاب...)... ثم توقف لحظة ليتابع قائلاً: (ولكن... هذا العسكري... هل رأيت العسكري؟؟؟)

كان أخوه يكاد يختنق بأنفاسه التي تتلاحق، وقد أرهقه حمل الحقيبتين... إحداهما على رأسه والأخرى في يده... بدا، كأنّه لم يسمع شيئاً عن (العسكري)... فتوقّف زوجها مكانه وعاد يقول: (أقول لك هذا عسكري... هل تراه؟؟؟).

أيقنت ضحى أن المشكلة ضخمة، رهيبة جداً... استدعت أن يوجد هذا العسكري الذي ملأ زوجها رعباً... كان واضحاً أنّه لم يعد يملك أعصابه، صاح في أخيه يقول (لا تمشي... انتظر...) وتوقّف أخوه عن المشي... وألقى الحقيبة التي في يده على الأرض... ثم ألقى بالأخرى التي على رأسه... وانتفض يقول: (لا أدري...)... ثم صعّد زفرة ملأت وجهه وهو ينفثها ليقول: (يعني إذا كان هذا العسكري معنا... هل يمكن أن تمتنع عن السفر؟؟؟).

عناقيد الحقد

(٦)

لم تستطع ضحى أن تصدق أن هذه السيارة اللوري هي التي تسافر فيها معه إلى مكة. لم يسبق قط أن رأت أو ارتفقت مثلها ولكن هذا الذي حدث فعلاً، إذ انتهى تردده وجدله حول العسكري الواقف هناك إلى أن يعود أخوه إلى حمل الحقيبتين، ويستأنف هو حمل لفة البطانيتين، ثم يمشي. وتمشى خلفهما إلى أن وقفوا مع الواقفين حول السيارة... فهمت من الحوار القلق بين هؤلاء أن السائق (والمعاون) لم يظهرا بعد، ولذلك لا يسمح لأحد بأن يضع قدمه أو حاجياته في السيارة إلى أن يجيئا... ولكن لم يطل الانتظار، فقد سمعت من حولها يبشر بأن السائق قد جاء ولكن ما كاد يفتح باب سيارته، حتى بدأت بين الركاب معركة سباق رهيبة لتحميل الحقائب، على سطح السيارة، وللركوب أيضاً... زوجها وقف وقد بدت عليه الحيرة والترقب لأن العسكري الذي كان لا يزال واقفاً لم يبد منه أن له أي علاقة به... استطاع أخوه أن يقذف بالحقيبتين ولفة البطانيتين إلى السطح... وأن يصعد بعد ذلك لربطها بحبل في يده... واستغرقت العملية كلها بضع دقائق... وكان زوجها لا يزال واقفاً في مكانه، عندما رأت السيارة تزدحم بالركاب بحيث بدا لها أنه لم يبق فيها

مكان لهما أو لغيرهما ومع ذلك سمعت السائق يصيح ـ ما تركب يا أخينا، وأنتي كمان يللي معاه ـ ... وكانت عملية دخولهما، ثم العثور على ما يجلسان عليه في داخل السيارة بالنسبة لها عذاباً ليس فقط بسبب الازدحام بالركاب، وإنما الأهم من ذلك هو الحرج الذي ملأ مشاعرها وهي بقميص النوم هذا الذي لم يكن يليق قط أن تظهر به، وهذه الطرحة السوداء التي لا فرق بين شكلها وبين أي ممسحة بلاط... ثم كانت المشكلة في المكان الذي يمكن أن تجلس فيه وهي امرأة، وجميع من حولها رجال... وصاح أحدهم بزوجها.

ـ أنت يا أخينا... شوف للولية مكان ورا... ما يسير توقف بها بين الرجال، ولم يجب زوجها بشيء... كان المكان (ورا) يستلزم أن يجد كل منهما طريقه بين الأجسام المتزاحمة وما لا يعد ولا يحصى من اللفائف والصفائح الصغيرة في أيدي وبين أرجل هذه الأجساد.

وأخيراً استطاعا أن يصلا إلى مؤخرة السيارة حيث جلس وجلست هي إلى جانبه بحيث فصلت بينها وبين عجوز جالس، صفيحة ثقيلة مغلقة، اتضح فيما بعد أن فيها ثقباً ظل يتسرب منه على قميصها عسل أو شيء يشبه العسل... أما زوجها فقد جلس ملاصقاً لها يلاصقه بدوره من الجانب الآخر رجل ضخم... يحتل مكاناً قد يكفي ثلاثة أشخاص... وكان الحر واحتباس الهواء مع الرطوبة اللزجة مع أنفاس الركاب، في سيارة ليس فيها نوافذ كافية... حالة كرب، وخيل إليها أنها لا بد أن تنتهي بموتها... كانت الطرحة السميكة مسدلة على وجهها... وقد أخذت تلتصق بوجهها فتحبس قدرتها على التنفس... تساءلت بينها وبين نفسها ما الذي سوف يفعله يا ترى، لو أنها تخلصت منها؟؟؟ فليفعل ما

يشاء... ورفعتها عن وجهها... أدهشها أنه التزم الصمت ـ ربما تظاهر بأنه لم يرها... ولكن لم تمض لحظات حتى لكزها بكوعه لكزة أحست كأنها تهشم أضلاعها... فهمت أنه يطلب منها أن تسدل الطرحة على وجهها... ولكن... كيف مع هذا الكرب.

فجأة ارتفع صوت تحرك السيارة وانطلقت تخترق الشوارع... ولم تمض دقائق حتى كانوا يستقبلون طريق مكة... أو هذا ما استطاعت أن تفهمه من همهمة الركاب، حين أخذوا يحمدون الله... وأخذ يبدو بعضهم وكأنه يفرغ صدره من ذلك الهواء الرطب اللزج، الذي امتلأت به رئته ليستنشق هواء الصحراء...

* * *

طوال الوقت الذي ظلت فيه السيارة تنطلق إلى غايتها لم ينبس زوجها بكلمة... كان غارقاً في دوامة من التفكير دون شك... ولكن فيماذا كان يفكر؟؟

ما هي المشكلة التي جعلته يتهيب وجود العسكري عندما رآه مع الواقفين حول سيارة البريد؟؟

استطاعت مع هذا الهواء الذي أصبح يملأ السيارة جافاً منعشاً... استطاعت أن تتذكر أن أخاه ليس معهما... وأن العسكري أيضاً لا وجود له... ترى هل بقيا في جدة؟؟

المهم الآن أنها معه وفي الطريق إلى مكة... إلى ذلك البيت الكبير الذي ستجد فيه الغرفة، بالأثاث الذي قال (أين منه تلك الموبيليا التعبانة) التي رفض هو ومعه أبوها أن تفكر فيها حتى مجرد تفكير... لاحظت أن

بعض الركاب في أردية الإحرام... وهناك في أحد مقاعد المقدمة رجل لفت نظرها أنه لم يكف عن سواك أسنانه، فإذا انقضت فترة يخرج فيها المسواك من فمه ثم يدير رأسه إلى النافذة، ويبصق... تكررت هذه العملية منه مرات تناثر مع إحداها رذاذ البصقة على وجه جاره ومن يليه من الجالسين... تقزّزوا بالطبع، ولكنهم التزموا الصمت... سمعت صوت زوجها يرتفع عالياً وهو يقول: (يا أخينا... عيب عليك...) ولكن (أخينا) هذا بدا كأنّه لم يسمع... أو لا يريد أن يسمع... فإذا بالرجل الضخم بجانب زوجها يضحك في قهقهة عالية بصوت لا يتناسب مع حجمه... صوت امرأة... التفت إليه زوجها وهو ينتزع نظارته السميكة عن عينيه ويأخذ في مسحها... لا شك أن رذاذ البصقة قد استقر على وجهه... ثم عقب يقول في صوت هامس: (يعني عاجبك؟؟)، فإذا بالرجل الضخم يرسلها قهقهة عالية أخرى بذلك الصوت الرفيع المسلوخ ويقول: (أصلها عادته... ما يقدر يستغني عن المسواك ولا عن...) ثم يضيف: (ولو تشوفه معانا في البيت... جاب لنا الأوا) ثم نفس الضحكة العالية، بذلك الصوت الأنثوي المسلوخ. وقبل أن تستقر النظارة على عيني زوجها فوجىء الجميع بزلزال ظلّت ضحى تستغرب أنه لم ينقطع قط منذ خرجوا من منطقة العمران... ارتطمت رؤوسهم بسقف السيارة ارتطاماً شديداً، وفي محاولتها التماسك، انزاحت الطرحة عن وجهها... وقبل أن يلكزها بكوعه تلك اللكزة اللعينة، أسرعت تثبتها... واستمرت حركة الزلزال، تكاد لا تنقطع، ولكن دون أن يبدو على الركاب أو حتى على زوجها أنهم يتأذّون أو يتضايقون... أدركت أن الحالة مألوفة عندهم... وفي نفسها قالت: (يا بابا... أنت فين يا ترى)... وزحم صدرها التحسر والأسى، وطافت بنظراتها حولها، لتشعر بحرقة الغربة

والضياع... ليس إلاّ زوجها الذي يستطيع أن يتصرف معها على هواه، وهذه الصحراء المترامية تحت شمس بدا لها كأنها تنتقم من الأرض كلها، فلا تترك فيها إلا تلال الرمل، وتلك الجبال تلوح عن بعد بزرقتها الداكنة وتكتلها المتلاحق المهيب.

❊ ❊ ❊

لأول مرة منذ ركبوا هذه السيارة اللوري، التفت إليها وقال بصوت فيه نبرة ود:

ـ خلاص هذه مكة...

ـ وصلنا؟؟؟

ـ خلاص... هذه أبوابها...

وأضاف: هذه المنطقة اسمها جرول

ولم تتوقّف السيارة بهم، وإنما ظلت تنطلق، وظل هو بين فينة وأخرى، يذكر لها أسماء المعالم والشوارع التي يمرون بها... (القشلة... بيت الوزير... ريع الرسّان... حارة الباب... الخ... الخ...

وأخيراً وقفت السيارة أمام مبنى سمعته يقول... وهذا هو البريد... وهذه الحارة اسمها (القشاشية).

كان يخيّل إليها أن هناك سيارة... أو حتى حنطور ينقلهم إلى (البيت الكبير)... ولكن خاب ظنّها... فقد أسرع يستنزل الحقيبتين ولفة البطّانيتين... ألقاهما من سطح السيارة على الأرض... وعندما هبط، التفت إلى عدد من الأشخاص وهو يقول: (هيا يا بويمن... شيل...)

وأسرع أبويمن هذا، يرفع ويضع على رأسه إحدى الحقيبتين، وتقدَّم آخر حمل الحقيبة الثانية. . . أمّا لفة البطانيتين، فقد حملها هو. . . وتقدَّم يمشي أمامها. . . أدركت أن أمامهما مشواراً كذلك الذي مشياه في جدة من الزريبة إلى سيارة البريد.

لاحظت وهي تمشي خلفه، أن بعضهم من المارة، كان يلتفت إليه. . . ربّما كانوا من معارفه. . . يكتفون بهز رؤوسهم. . . أو برفع أيديهم، دون أن يستوقفوه. . . ولم يطل عجبها فقد أدركت أنهم يتحرّجون الكلام معه، وهو يتقدم امرأة ربّما كانت من أقاربه. . .

التفت إليها، وقال: (تعالي. . . أمشي معي. . .) فتقدمت وأخذت تمشي إلى جانبه. . . سمعته يقول لها. . . (انظري إلى يمينك. . . هذه أبواب الحرم. . .). . . تمنّت أن تقف وأن تدخل الحرم، وأن ترى الكعبة. . . ولكنه كان يمشي. . . وكان عليها أن لا تتوقف. . . فجأة قال لها بصوت هامس مرعوب: (وهذا المبنى على يسارك التكية المصرية. . . والآن هذا المبنى الذي يقف فيه الجنود. . . و. . .) واحتبس صوته تماماً. . . فالتزم الصمت.

طوال مشوارها إلى جانبه كانت تحاول أن تتصوّر (بيته الكبير). . . خيّل إليها أنه كهذه البيوت التي رأتها شاهقة مهيبة بمشربياتها العريضة التي تكسو البيت بطوله. . . خالجها شيء من الاطمئنان. . . طافت بذهنها (الغرفة) التي قال عنها إنها أفضل غرفة في بيته الكبير.

وطال المشوار. . . وظلّت تمشي إلى جانبه. . . وهي تفكّر كيف تقابل أسرته، وهي بقميص النوم.

عناقيد الحقد

(٧)

أخذ شكل البيوت المكسوّة بالمشربيات الفخمة على واجهاتها يتغيّر... والشوارع الضيقة أصلاً والخالية من السيارات أو الترام، بدت أكثر ضيقاً، والطريق المترب في بعضها يرتفع صعوداً فترة ثم يأخذ في الانحدار، وكان ما جعلها تكوّن صورة للبيت الكبير وللغرفة فيه أولئك الرجال الذين رأتهم وعلى أكتافهم ما يشبه عصا طويلة تتدلّى من طرفيها أمام الرجل وخلفه صفيحة ما... جرؤت أن تتكلم فتسأل زوجها عن هذا الذي تراه فتظاهر بأنه لم يسمع... ثم بعد لحظات قال: (السقا)... ولم يزد، وحين رأت رجلاً عجوزاً أسود يحمل على ظهره قربة سوداء كبيرة قال لها... (وهذا كمان... سقاء)... إذن فالماء ينقل إلى الدور بهذه الطريقة... تذكرت حارة في أحد الأحياء الشعبية في القاهرة، كانت رأتها مع أمها التي قامت بزيارة لمريضة من أقاربها... هناك رأت السقّاء بقربته يفتح فوهتها ويرش الأرض أمام أبواب بعض البيوت... وفي بيت القريبة المريضة، رأت السلالم الضيقة المظلمة، التي انتهت إلى الشقة وفيها غرفة المريضة بنافذة مكسوة بمشربية عريضة... كهذه التي رأتها في جدة... ثم تراها الآن في مكة...

وقف أخيراً واستوقف الشيالين وهو يقول: (هنا يا بو يمن...) ووقف الاثنان معاً ورأته يتجه نحو باب صغير لبيت، وعلى جانبي الباب، شباك صغير تكسوه مشربية صغيرة... كان الباب مفتوحاً... التفت إليها قبل أن يدخل وهو يقول: (ادخلي...)... ما كادت تخطو خطوتين حتى رأت رغم العتمة، مصطبة عريضة طويلة تغطيها تشكيلة من النفايات، منها أعواد برسيم وربّما ملوخيّة بلا ورق، والرائحة الكريهة، وروث المعيز، أكدت لها أنها هنا أيضاً تدخل زريبة للمعيز وربما الحمير أيضاً كتلك التي غادرتها اليوم في جدة... لم يخطر لها أن هذا هو البيت الذي يأوي إليه معها إلا عندما التفت يقول (ادخل وهات الشنطة يا بويمن...) وألقى هو لفة البطانيتين على المصطبة المعمورة بروث المعيز وبقايا البرسيم وكسر الخبز الجاف وأعواد الملوخية... وطلب من (أبويمن) أن يضع كل منهما الشنطة التي يحملها إلى جانب اللفة... دخل مع الشيالين في حوار طويل عن الأجر، انتهى بأن دفع قطعاً نقدية في يد كل منهما... ثم انتهرهما بغلظة وقسوة... توقفا لحظات، بدا كأنهما يهمّان بضربه أو الاشتباك معه... ولكن أحدهما قال للآخر... (امش... حشمته عشان الحرمة اللي معاه...)

أغلق الباب خلفهما حين خرجا... وما كاد حتى فوجئت بثلاث نساء يتقدّمن نحوهما... كانت إحداهن عجوزاً تجر خطواتها جراً... والثانية تحمل على صدرها طفلاً بادى الضعف والهزال وهي نفسها قصيرة هزيلة الجسم تنسدل على كتفيها وصدرها ضفيرتان من الشعر الأسود الطويل الذي بدا كأنه يصل إلى ما تحت خصرها النحيل... أما الثالثة فلم تشك ضحى أنها أخته... لها نفس اللون الأسمر الداكن، ونفس العينين الواسعتين الجاحظتين... الثياب التي يرتدينها تنم عن أنهن لا يتعلّقن

بالأزياء الحديثة... كن حافيات أصابع أقدامهن تحت ذيول فساتينهن... يظهر أنهنَّ لا يحفلن أبداً بالمظهر ولا حتى بزينة الوجوه كما هي الحال في مصر... أدهشها أنهن وقفن صامتات كأنهن ذهلن لرؤيته معها... أو رؤيتها هي معه. وأدهشها أكثر أنه التزم الصمت من جانبه أيضاً... وأخيرا ظهر صوت العجوز وأخذت تتكلم ولكن ليس باللغة العربية... بل بتلك اللغة التي سمعتها، ولم تعرف أي لغة هي حين سمعته يتكلم مع أخيه في جدة. بدا صوتها ضعيفاً مرتعشاً... لعلّها جدته... بدت بضفيرة الشعر الأبيض الطويل أيضاً... وبوقفتها المرتعشة، وكأنها في التسعين من عمرها... ورأتها ضحى تتحدث بهذه اللغة، وتشير بيدها إليها... أدركت أن الحديث عنها هي... ترى ماذا تقول... واحتدم صوتها ولهجتها بالتدريج... واضح أنها تؤنّبه... ثم أخذت تشير إلى المرأة التي تحمل الطفل... وإلى الطفل... وهنا تدخّلت هذه بصوت محقن وقالت كلاماً بنفس اللغة، ولكنها ممزوجة بأكثر من كلمة عربية... منها (أبويا... ولمّا يجي وأمي جيّة كمان). أمّا تلك التي قدّرت أو حزرت أنها أخته، فقد ظلت تلتزم الصمت، ثم جلست القرفصاء على الأرض حيث هي، وقد وضعت كفّها على وجهها... ولكنّها لم تكف عن النظر إلى ضحى... نظرات طويلة متمعّنة... من جانبه هو ظل يستمع أكثر مما يتكلّم... وأخيراً بعد أن أطال الاستماع إلى العجوز... التفت إلى ضحى... ومد يده إليها... وقال كلاماً بتلك اللغة ثم انطلق وهو يقول: (تعالي... امشي نطلع فوق)... تلاحقه العجوز بصوتها المحتدم الغاضب.

كانت السلالم إلى (فوق) خشبية خيِّل إلى الضحى أنها تتقصّف تحت قدميها في كل خطوة وكان ضوء النهار يفترشها... ولم تكن طويلة أو

عديدة الدرج... بضع خطوات وكانا معاً في سطح مسوّر بالصفيح... مشى أمامها... ودفع باباً خشبياً صغيراً ودخل لتدخل خلفه هي وقد أيقنت أنها تدخل تلك الغرفة التي حدّثها عنها في مصر... في البيت الكبير...

* * *

فضّلت، وهي في وسط الغرفة بجدرانها من الخشب والصفيح، أن لا تقول شيئاً... أن لا تلفظ أي كلمة... حتى دموعها لم تجدها... ظلّت واقفة لا تدري ماذا تفعل وأين تجلس، وهي لا ترى في هذه الغرفة إلاّ مراتب مفروشة على امتداد أحد جانبي الغرفة المستطيلة، وإلى الجدار فوق هذه المراتب صف من الحشايا عرفت فيما بعد أنهم يسمونها (مساند)... والأرض يكسوها بساط مزخرف... سجّادة... عرفت اسمها فيما بعد أيضاً... إنهم يسمونها (جلالة)... ثم لا شيء بعد ذلك... لا مقعد، ولا كرسي... ولا مناضد... لا شيء على الإطلاق.

ظلّت واقفة لا تتكلم... ولا تتحرك... بينما أسرع هو ينزع غطاء رأسه، ويخلع حذاءه وجواربه ثم يستلقي على الأرض وهو يرسل زفرة طويلة... وبكمّ ثوبه الأبيض، مسح العرق المتصبّب على وجهه وجبهته... وإذ رآها واقفة لا تتحرك، قال: (إيه... رايحة تفضلي واقفة كده؟؟؟ ما تجلسي ألين يطلعوا الشنط...)

لم تجب بشيء... إذ لم يكن عندها ما يمكن أن تقوله... فالحقيقة هي هذه التي تراها ولا شيء غيرها... لم يكن هناك مجال لتتخيّل أو تحلم بتلك الغرفة في البيت الكبير... كل شيء حدّثها عنه في القاهرة، وجعل أباها يقنعها بأنه أفضل ألف مرة من الموجود في مصر... كل

شيء هو هذا الذي تراه... ومعه هذا المخلوق المستلقي على الأرض أمامها... زوجها... وهذا الجو الخانق كان وحده كافياً ليجعلها تشعر أنها تواجه كارثة، لم تخطر لها على بال قط... خلعت الطرحة عن رأسها وألقتها حيثما اتفق... اضطرت في النهاية أن تجلس على طرف إحدى هذه المراتب، وأن تخلع حذاءها بكعبه العالي... وجوربها... تحرّجت أن تترك الحذاء حيث خلعته... ولكنها لا تجد مكاناً آخر... تركته أمامها... ازدحم صدرها بما يشبه شحنة من تراب أو رماد... هكذا أحست... أخذت تسعل... ولكن السعلة تلاحقت قوية شديدة التدفق متسارعة الاندفاع من صدرها بحيث يكاد يشق حنجرتها وبلعومها... التفت إليها... وحين استمرت الحالة نهض بشيء من الاهتمام... رأى عينيها جاحظتين... ووجهها محتقناً... أسرع يخرج من الغرفة وهو يصرخ... يطلب لها ماء... وعاد إليها... بدا عليه الارتباك... لم يجئه أحد بالماء الذي طلبه... ونوبة السعال مستمرة... أسرع يخرج من الغرفة، وهو يكرر صرخاته بطلب الماء... ثم سمعت وقع خطواته على السلم الخشبي يهبط إلى الدور الأرضي... لم تجد أنفاساً تشهقها أو تزفرها... دخل مسرعاً وفي يده قلّة ماء وكأس مملوءة ـ أسرع يضعها على فمها لتشرب... ولكن السعلة لم تترك لها سبيلاً للشرب... دلق الماء على وجهها... التقطت أنفاسها... وارتمت وهي تميل إلى الأرض... وسمعها تقول: يا بابا... أنت فين يا بابا؟؟؟ ثم أغمضت عينيها وجعلت أنفاسها تتسارع وهي تردد في كلمات متقطعة... أنت فين؟؟؟ أنت فين..؟؟ يا بابا.

عناقيد الحقد

(٨)

لفت نظرها وهي تتأمّل العجوز ومعها المرأة الهزيلة والطفل المتشعلق على صدرها، وتلك التي أيقنت أنها أخت زوجها، أنه كان يقف يتحدث بتلك اللغة التي لا تفهمها إلى شاب لم تشك أيضاً في أنه أخ آخر، غير الذين رأتهم معه في الميناء... نفس اللون حاد السمرة، والعينين الجاحظتين ولكنه أقرب إلى الهزال... لم تفهم ما الذي يجعله يضحك وهو يصغي إلى حديث زوجها... بينما كان هذا يبدو جاداً، أو حتى محتدماً غاضباً... أتراه يكايده ويغيظه بهذه الضحكات تعليقاً على ما يسمع... تقدمت العجوز منها بخطواتها المرتعشة وفي يدها كأس من النحاس طويلة منقوشة كانت ضحى رأت مثلها عند قريبة زارتها مع أمها بمناسبة عودتها من الحج... قدّمت العجوز الكأس إليها دون أن تنطق بكلمة واحدة... لم تملك ضحى أن ترفض تناولها، ولكنها توقفت عن شرب ما فيها... وارتفع صوت العجوز تقول:

ـ اشربي... يفكك اللبطة

ـ سأشربه على مهل... شكراً.

ـ لا... لا لا... اشربيه الآن... هذا ورد وكتيّرة... اشربيه قبل أن يبرد.

ووجدت ضحى نفسها تشرب الورد والكتيرة، وإن كانت لم تفهم شيئاً ذا بال... استراحت لعناية العجوز بها... أحسّت أنها تعامل بلمسة رفق وحنان لأول مرة منذ فارقت بيتها في مصر... كانت رائحة الشراب مقبولة، فيها من عبق الورد فعلاً... لم تكمل كل ما في الكأس... وضعته إلى جانبها على الأرض... وعادت تلاحق زوجها وهو لا يزال يتحدث إلى من قدَّرت أنه أخوه، وهذا لا يكاد يتماسك من زحمة الضحك... وفجأة... رأت زوجها يرفع يده وقبل أن ينهال بصفعة على وجه الشاب، كان هذا يبتعد... خائفاً مرعوباً... المرأة الهزيل أم الطفل المتشعلق على صدرها التفتت مذعورة... ثم سمعتها تقول:

ـ دايماً هوة كده... ما يرجّع له عقله غير الكف...

والتفت زوجها، وصاح منتهراً غاضباً:

ـ أنتي تنكتمي بالمرة... فاهمة؟؟؟

ولكن هذه لم تنكتم... وقفت والطفل متشعلق على خاصرتها... وأخذت طريقها إلى الباب وهي تقول:

ـ ولمتى أنكتم واصبر على هادا الحال... دا مجنون، ورايح يجنّن الكل.

تركها زوجها تخرج، ثم التفت إلى أخيه يقول في نبرة تهديد مرعدة

ـ فتّح عينك... ترى المرستان والحج حسين ما هو بعيد.

فإذا بالشاب، يتقدم من زوجها وينحني على يده يقبّلها... بل كاد يركع ليقبل قدميه... فلم يزد زوجها على أن قال:

ـ خلاص... أنت ما تعتّب المحل اللي يجلسوا فيه أبداً... عندك دكّة الدهليز نضفها واجلس فيها... الغنم أكلها عند الباب، وخلّيهم يسرحوا في الزقاق... فاهم... ونهض الشاب... وقف مضطرباً وهو يقول:

ـ خلاص... أنضف دكّة الدهليز وأجلس فيها... بس اقرع عني العيال...

ـ أبشر... أقرعهم عنّك... بس أنت كمان لا تأخذ وتعطي معاهم...

وما كاد الشاب يخرج من الغرفة، حتى اندفع داخلاً وهو يقول:

ـ وكيل العمدة وواحد عسكري عند الباب.

ورأت وجه زوجها يمتقع... كأن الدم قد انسحب منه، فبدأ مصفرّاً وتلجلج، واضطربت شفتاه وهو يقول:

ـ قول له... أنا... أنا جي حالاً.

ورأته ضحى يسرع إلى ارتفاق غطاء رأسه على الكوفية البيضاء... والتفت إلى العجوز وإلى أخته يقول:

ـ لا تخافوا... ما في شي... كلمتين مع المدير... لا تخافوا...

وخرج من الغرفة مسرعاً... بينما ظهر على وجه العجوز أنها لم تقتنع بما قال... وقالت أخته:

ـ ما دام العسكري مع العمدة... لازم...

وقبل أن تكمل جملتها قالت الأم العجوز

ـ أيوه... ما دام العسكري مع العمدة... لازم مسألة كبيرة

وكان الشاب قد خرج خلف زوجها، فعاد وهو يلهث ويقول:

ـ أخدوه... العمدة والعسكري ماشي جنبه على طول... سمعت العمدة بيقول: مهدي بك... ولم يكد يذكر هذا الاسم حتى انتفضت العجوز ووجهها قد ازداد شحوباً... وقفت، وهي تلتفت إلى أخته وهي تقول:

ـ مهدي؟؟؟ يعني إيه؟؟؟ هادا المنام اللي شفته قبل كم يوم...

وقالت أخته:

ـ طيب، هادا غايب عن البلد... يعني حصل منه شي في مصر؟؟؟

وكانت هذه المرة الأولى التي توجّه فيها الحديث إلى ضحى... وأردفت تقول: وتابعت العجوز تقول:

ـ أيوه يا بنتي... إن كان تدري عن شي قولي لنا...

لم تنسَ ضحى، الحوار الذي دار بين زوجها وأخيه تحت النافذة باللغة التي لا تفهمها في جدة وكلمات (الشرطة... والمدير... والكفيل)... ولم تنس أيضاً أنه سمّاها (وجه النحس) وتفكر كيف تسمّر في موقفه حينما رأى ذلك العسكري واقفاً مع الواقفين حول سيارة البريد... كل هذا ارتبط في ذهنها بما يقع اليوم... ولكن لا تدري شيئاً عن هذا الذي حصل منه في مصر... عن هذا الذي تتساءل عنه أخته وهذه العجوز... وحين طال صمتها عادت العجوز تقول:

ـ يا بنتي قولي... إيش اللي حصل منه في مصر؟؟؟

وقالت ضحى بعد صمت لحظات بدا على العجوز وعلى أخته خلالها أنهما تتلهفان على أي معلومة:

ـ لا أدري عن أي شيء... منذ تزوجنا وهو يستعد للسفر إلى هنا... وقد سافرنا ووصلنا مكة والحمد لله.

ـ ولكن متى تزوجتم؟؟؟

ـ كتب الكتاب قبل شهرين... لكن الفرح... أقصد

قالت أخته ملاحقة:

ـ الفرح؟؟؟ يعني إيه؟؟

وقاطعتها العجوز تقول:

ـ الفرح عندهم في مصر... يعني (الدخلة)... أيوه متى حصلت الدخلة...؟؟؟ قالت ضحى:

ـ قبل ما نسافر بعشرة أيام.

قالت أخته:

ـ يعني كان مقرر يسافر... قصدي يرجع مكة، قبل الدخلة، ولا قبل كتب الكتاب...

قالت ضحى، وهي تحاول أن تتذكر مسلسل أحداث خطبته، والعقد، ثم الدخلة كما سمعتهم يسمونها:

ـ لا.. قرر يسافر.. نسافر أنا وهوّه بعد كتب الكتاب.

قالت العجوز:

ـ طيّب يعني ما تعرفي يا بنتي، ليه قرر يسافر؟؟

ـ هوّه دا.. اللي أنا باسأل عنه... ليه يسافر وهوّه بيدرس؟؟ يمكن أنتو عارفين.

ـ وانتي يا بنتي كنتي معاه في المدرسة؟؟؟

ـ أبداً... أنا سمعت من بابا بيدرس عندنا... لكن... ماني متأكدة

وتابعت أخته تقول:

بس يعني ما حصل منه شي بعدما اتجوّزتو؟؟

ـ أبدا... ما سمعت أنّو حصل منه شي أبداً...

وأفرغت العجوز من صدرها زفرة طويلة وهي تقول:

ـ ما دام مهدي هوة اللي طالبه، لازم حصل شي... شي... ربّنا يستر واستطاعت ضحى أن تستجمع شجاعتها لتتساءل:

ـ لكن مين مهدي دا؟؟

وقبل أن تجيبها العجوز، انبرت أخته تقول:

ـ مهدي؟؟؟ هوّه إنتي عمرك ما سمعتي بمهدي؟؟؟

ـ لا... عمري ما سمعت عنه مين هوّه

وتدخلت العجوز تقول:

ـ هادا يا بنتي... قولي... الله يكفينا شرّه... دا

وقاطعتها أخته تقول:

ـ دا... لكن... إنتي إيش اسمك...

ـ اسمي أنا؟؟؟ اسمي ضحى.

ـ دا يا ضحى اللي بيسمّوه مدير الشرطة... المصايب كلها ما تيجي إلا منه.

وقطع الحوار أخوه الذي دخل مندفعاً وهو يلهث ويقول:

ـ العمدة وضابط يقولوا... عندهم أمر يفتشوا...

عناقيد الحقد

(٩)

عقلت المفاجأة ألسنة النسوة لحظات، والشاب الذي فجّر الخبر الرهيب ظل واقفاً يلتزم الصمت هو أيضاً، ولكن يضع يده على فمه يحاول أن يحبس ضحكاً أثار دهشة ضحى جعلها تبدد حالة الصمت الذاهل المفجوع الذي أخرس الأخريات... وجدت نفسها تقول للشاب:

ـ يعني الكلام اللي قلته مش صحيح؟؟؟ بتضحك ليه؟؟؟

وتلاحقت أصوات العجوز، وأخت زوجها تقول:

ـ أيوه صحيح... بتضحك ليه؟؟؟

وقبل أن يجيب، انفجر بالضحك الصاخب وهو يقول:

ـ اضحك عليكم...

وقالت ضحى، وهو لا يزال يقهقه:

ـ يعني الكلام اللي قلته مش صحيح؟؟؟

ـ كلام إيه؟؟؟ أنا ما قلت شي...

وهنا انفجرت العجوز، وهي تنهض من مكانها لتقول:

ـ ما قلت شي؟؟؟ يعني ما في ضابط والعمدة والتفتيش؟؟؟ ما تهرج...

ـ العمدة والضابط، عند الباب... (ضحك متواصل)... بينتظروا...

ـ بينتظروا؟؟؟ ينتظروا إيه؟؟؟

وتدخّلت ضحى لتقول:

ـ طوّلوا بالكم شويّه... خلّونا نفهم... قل لي من فضلك... بينتظروا إيه؟؟؟

ـ بينتظروا الشنطة، واللحاف وسجادة الصلاة.

ـ شنطة؟؟؟ أي شنطة؟

ورفعت أخت زوجها صوتها صاخبة تقول:

ـ أيوه أي شنطة؟؟؟ وعشان إيه اللحاف وسجّادة الصلاة؟؟؟ ما تهرج يا طاهر...

ـ هوّه قال الشنطة... واللحاف، وسجّادة الصلاة وبس.

وقالت ضحى:

ـ ما قال أي شنطة؟؟؟ وعشان إيه اللحاف وسجّادة الصلاة؟؟؟

وقالت أخته:

ـ يمكن شنطة السفر اللي...

وتدخّلت العجوز، وهي لا تزال واقفة لتقول بهدوء:

ـ أيوه هيّه الشنطة اللي جابها معاه... شنطة السفر... واللحاف وسجادة الصلاة...ولم تكمل، إذ احتقن صوتها ورأت ضحى في عينيها الدموع، ثم رأتها تتهالك جالسة على الأرض ثم قالت:

ـ مسكين والله يا ولدي...

والتفتت إليها أخت زوجها، وفي وجهها وعينيها موجة رعب وقلق، لتقول:

ـ فهمت.. يعني حبسوه.. بس.. بس يعني.

ـ وهنا تدخّل طاهر، وقد بدا عليه هو أيضاً أنّه خائف، وقال:

ـ حبسوه؟؟؟ اعطوني الشنطة واللحاف والسجادة... أنا أروح مع العمدة وأجيب لكم الخبر. ونهضت ضحى إلى حقيبة زوجها، وكانت لا تزال مفتوحة تتلامح فيها كتب ومجلة اللطائف المصورة. أغلقت الحقيبة بإحكام، ثم طوقتها بالحزامين من الجلد... والتفتت إلى طاهر:

ـ هادي الشنطة...

وأسرعت العجوز تقول:

ـ قومي يا رقية... أدّيله اللحاف النضيف الأصفر، ولا تنسي تعطيه مخدتين كمان... والسجّادة... هادي السجّادة اللي هنا.

حمل طاهر الشنطة والسجادة، ومشى وراء رقيّة التي تقدمته في مشية متخاذلة مرهقة... سمعت ضحى وقع خطواتهما على السلم الخشبي في طريقهما إلى الدور الأرضي... والتفتت العجوز إلى ضحى وهي تقول:

ـ بس إيش اللي حصل منه؟؟؟ إيش اللي يخلّيهم يحبسوه؟؟؟ يعني إنتي يا بنتي ما تعرفي إيش اللي حصل؟؟؟ وما قال لك هوّه قبل ما تسافروا... ما قال لك شي؟؟؟

ولم تكن ضحى أقلّ إحساساً بتعقيد الموقف من الآخرين... أحسّت لأول مرة، أنها تعيش أحداثاً ضخمة هانت بالنسبة لها فجيعتها في البيت الكبير وغرفة النوم، وقد انتهت الأحلام التي ظلّت تنتظرها إلى هذه الغرفة بجدرانها وسقفها من الخشب والصفيح... وإلى هذا الموقف المشحون بالتوتر والخوف من المجهول الذي لا تدري هي... ولا يدري الآخرون عنه أي شيء... ورددت بينها وبين نفسها كلمة (حبسوه)... وأحزنها

فعلاً، أن يقع هذا في ظرف زواجها... أدركت أنه بدأ يحمل هم المشكلة التي تورط فيها بعد زواجه منها... فإذا سمّاها (وجه النحس) كما سمعته يردد أكثر من مرة، فلا يلام... إنها فعلاً (وجه النحس)... وها هو النحس يطبق على حياته، وحياتها معه، بل وحياة الأسرة كلّها... التفتت إلى العجوز التي استرخت في مكانها، وأسندت رأسها إلى المسند خلف ظهرها وقد أغمضت عينيها، وعلى خديها الشاحبين بقية الدموع التي ذرفتها... التزمت الصمت... وأبرق في ذهنها خاطر تمنّت لو تجد من يسمعها لتقول له إنها (وجه النحس) فعلاً... وإنها لا ترى ما يمنع أن تخرج من حياتهم... ليست مشكلة... إنها لا تزال في أول الطريق ولا يبدو أنها قد حملت منه... يستطيع أن يعيدها إلى القاهرة... والأمر لله... ولكن حتى لو أقنعته بهذا الذي يجول بذهنها، كيف؟؟؟ كيف تقنعه أو تفاتحه في الموضوع، وهو محبوس... واضح أنها هنا في بلد لا تعرف عنه أي شيء سوى أنه بلد الله... بلد الكعبة والحج... أحسّت أن العجوز تحاول النهوض في إعياء وتهالك بحيث بدا كأنها تعجز عن الحركة... خفّت إليها وهي تمددها وقالت:

ـ أي خدمة؟؟؟

ـ عشت يا بنتي... بس لو تقولي لهم، يجيبولي الدوا... هم عارفينه...

أسرعت ضحى تخرج من الغرفة إلى السلم الخشبي... استطاعت أن تلاحظ في ساحة السطح قبل أن تهبط كثيراً من نفايات الصفيح الصدىء، وألواحاً من الخشب، وعلى حبل الغسيل، فساتين وثياباً وملابس داخلية، ينسفها الهواء، ويكاد يلقي بها على الأرض... أخذت تهبط على السلّم

الخشبي إلى أن وجدت نفسها في الدور الأرضي... لم تر أحداً ولكنّها سمعت ضجّة أطفال وراء أحد الأبواب... ترددت في الدخول لحظات... ثم طرقت الباب... سمعت صوت أم الطفل ولعلّها أم الأطفال الذين تسمع ضجتهم... سمعتها تقول في ضجر وضيق:

ـ ما يبغالك تدق الباب... هادول الشياطين صكّوه... قوم يا واد افتح...

ولم تنتظر ضحى من يفتح لها الباب... دفعته فانفتح ودخلت تقول:

ـ لامؤاخذة... الست الكبيرة فوق عايزة ميّه...

لاحظت أن الأطفال بهتوا لدخولها... اثنان منهما، في سن السابعة وربما التاسعة لم ترهما من قبل... تحركوا ليتجمّعوا حول أمهم... لم تكن ضحى تشك في أن أم الأطفال هي ضرّتها التي صاح أبوها يذكّر زوجها في لحظة استقباله عند قدومهما، بأن ابنته لن تساكن (الطبينة)... سمعت المرأة تقول:

ـ عندك الشراب... خدي وحدة... والكاسات هنا على الرف... خدي وحدة...

ولم تفهم ضحى ما هي (الشراب)... وقفت مترددة حائرة... وإن كانت قد رأت الكاسات على الرف وتقدمت تأخذ واحدة منها... وفي التفاتتها رأت عدداً ممّا يسمى في مصر (قلّة)... أدركت أن (الشراب) هي (القلل)... فاتجهت إليها في ركن ساحة صغيرة... أخذت واحدة كما قالت لها أم الأطفال... قبل أن تتجه إلى الباب قالت أم الأطفال:

ـ استرحت دحّين؟؟؟

ـ بتكلميني؟؟

ـ لأ... باكلّم نفسي...؟؟؟ (ضحكة ساخرة)... بأقول لك استرحت دحين؟؟؟

ـ مش فاهمة.

ـ شوفيه محبوس... إنتي جيتي معاه من هنا... وهوّه راح الحبس من هنا.

ـ برضه مش فاهمة

ـ بالطبع ما تفهمي... إيه اللي يهمّك إنتي؟؟؟ المصيبة على دماغي أنا والعيال...

أيوه... أنا والعيال... هادول اللي أنت شايفاهم... مين لهم لمّا أبوهم ينحبس.

ـ بس أنا ذنبي إيه؟؟؟ زعلانة مني ليه؟؟؟

ـ بس... بس لا تطوّلي الهرج... روحي ودّي المويه... تلاقيها رايحة تنزل إذا تأخرتي عليها. وبالفعل... لم تطول ضحى... حملت (الشربة) والكاسة... وخرجت... وحين دخلت الغرفة وجدت العجوز، مستلقية، وقد بدا وجهها أشد شحوباً... دهشت ضحى حين رأت العجوز لا تلتفت إليها، وقد أغمضت عينيها... تقدمت منها بكاس الماء... انحنت ويدها ممدودة تساعدها على الجلوس... ولكن لا... لا حركة، ولا استجابة... كأنها لا تشعر بوجودها... اضطرت أن تعود بكاس الماء إلى حيث وضعت الشربة... المشكلة أنها لا تعرف اسمها... لا تعرف كيف تناديها... قالت

ـ يا ست... يا ست.

ولكن الست ظلّت لا تتحرك، ولا يبدو أنها تسمع... عيناها

مغمضتان... تذكّرت ضحى أمّها... نفس المشهد الذي فوجئت به يوم دخلت عليها، تظنها نائمة، فإذا بها استولى عليها ذهول... أحسّت كأن ساقيها لا تحملانها... عادت تنادي العجوز

ـ يا ست... يا ست... إنتي يا ست...

ولكن الست ظلت لا تجيب ولا تتحرك.

عناقيد الحقد

(١٠)

لم تجد ضحى أمامها سوى أن تهرع فتستدعي الأخريات من الدور الأرضي... قضت وقتاً طويلاً في محاولة العثور عليهن... أم الأطفال حملت الطفل الصغير على خاصرتها وأسرعت معه تصعد السلم الخشبي وهي تنتهر الطفلين اللذين أخذا يلحقان بها... والتفتت إلى ضحى تقول:

ـ خلّي رقية تيجي... خلّيها تيجي قوام

ولكن أين رقيّة هذه؟؟؟... لم يطل انتظارها وانتهت حيرتها وهي ترى رقيّة قادمة وقد خرجت من باب كانت تقف هي أمامه... وقالت:

ـ إيش تبغي؟؟؟ إيش بها تجري على فوق؟؟؟

ـ ألست الكبيرة... مش عارفة... عايزاك قوام

ـ لكن الدوا... الدوا حقها... فين الدوا؟؟؟

أدركت ضحى أن حالة العجوز، ليست جديدة... لها علاقة بالدواء، الذي لا تدري أين تجده... لم تجب بشيء وهي ترى رقيّة تستلم السلّم الخشبي... مشت وأخذت تصعد درجات السلم خلفها لترى أم الأطفال، تهبط والطفل على خاصرتها وهي تقول في لهجة بالغة الانفعال:

ـ الدوا... الدوا فين؟؟؟

أجابتها رقيّة بقلق:

ـ فوق الرف، اللي بتجلس جنبه في الديوان...

* * *

أفاقت العجوز من إغمائها، وأخذت تدير حملاقيها فيمن حولها... كانت رقيّة تمسح وتجفف وجهها بفوطة صغيرة من الماء الذي ظلّت ترشّه إلى أن أفاقت، كان الطفلان هناك في أحد أركان الغرفة وقد جلسا صامتين... استقر عليهما نظر العجوز... جعلت تتأملهما فترة ولم تلبث أن قالت:

ـ تعالو... تعالو هنا...

أسرعا إليها، فاحتضنتهما، واغرورقت عيناها بالدموع... ثم التفتت إلى رقية وهي تقول:

ـ هوّه طاهر لسّه ما جا؟؟؟

أجابتها ضحى وقد أدركت أن العجوز، تمر بأزمة قلق ورعب شديدين... بدا لها أن تطمئنها فقالت:

ـ زمانه جي...

تدخلت ضرتها أم الأطفال وقالت:

ـ طاهر ما جا... والمقاضي كمان ماني شايفة أحد جابها وقالت رقيّة:

ـ ومين في حال مقاضي اليوم؟؟؟ ناكل الموجود

ـ الموجود؟؟؟ يعني تبغي البزورة يتغدّوا عيش وجبنة؟؟؟

ـ ياكلو زي ما ياكل البيت كلّه...

ونهضت أم الأطفال، والطفل على خاصرتها وهي تقول:

ـ يعني ماني شايفة عمّهم اليوم...

ـ يمكن يكون في الحميدية معاهم.

وما كادت أم الأطفال تخرج من الغرفة، حتى التفتت رقيّة إلى العجوز وهي تقول:

ـ حالها زاد بالمرة...

ولم تجب العجوز بشيء... وأخذت تربّت رأس الطفل الأصغر بيدها، ثم قالت:

ـ هيّا قومو معايا ننزل تحت...

وعندما أخذت تنهض أسرعت إليها ضحى ورقية تساعدانها على الحركة... واستطاعت أن تقف وأن تبدأ مشيتها المرتعشة والعكاز في يدها... وقبل أن تخرج من الغرفة التفتت إلى ضحى وهي تقول:

ـ تعالي معانا يا بنتي... لا تقعدي لحالك...

* * *

بعد الغروب من ذلك اليوم كانت ضحى مع الأخريات حيث يجلسن في الديوان... وكان طاهر والأخ الكبير، الذي رأته يستقبل زوجها في جدة، يجلسان هما أيضاً في أحد جوانب المكان... وكل ما تجمّع من أخبار زوجها أنهما لا يعرفان عنه شيئاً، أكثر من أنه (محبوس) في (كراكون) الصفا... ولا تعرف ضحى شيئاً عن كراكون الصفا هذا، ولكن

كلمة (كراكون) لم تكن غريبة على سمعها... قدّرت أنه مركز من مراكز البوليس... وأنه يقع في منطقة اسمها (الصفا) قال الأخ الكبير بعد أن ظل يلتزم الصمت وقتاً طويلاً:

ـ ما دام في كراكون الصفا، تبقى المسألة بسيطة... لو كان في (الفرن)... وقاطعته رقية تقول في ذعر...

ـ في الفرن؟؟؟ وهو فيه ناس بيدخلوهم الفرن؟؟؟

فرقع طاهر ضحكة صاخبة وهو يقول:

ـ أيوه... يعجنوهم، وبعدين يخبزوهم

والتفت إليه الأخ الكبير وهو يضحك ويقول:

ـ أيوه، أصلك أنت مجرّب... بس يظهر عجنوك ونسيو يخبزوك...

وأرسلها ـ طاهر ضحكة صاخبة أخرى تكاد لا تتوقف أو تنتهي... ثم قال:

ـ لا أنت الصادق... عجنوني وخبزوني... وبعدين أرسلوني للحج حسين...

والتفتت العجوز تقول:

ـ يعني ما تعرفوا تهرجو غير هادا الهرج... يعني مبسوطين؟؟؟

وكان طاهر لا يزال يضحك... وكان واضحاً أنه يضحك دون سبب... ليس هناك ما يضحك أحداً... وقال:

ـ وعند الحج حسين يا أمي... ما فضل على ضيوفه إلاّ ياكلوني ويمرمشوا عضامي وضحك أخوه الكبير... وهو يقول:

ـ طيب هيّا كفاية تضحك... قل لي... أنت شفته في الكراكون؟؟؟

ـ أيوه شفتوه... بس من بعيد... الظابط... قال تقدر تشوفو من بعيد لكن أصحى تقرّب منّه أو تكلّمه...

وقالت العجوز: ـ يعني أنت ما رحت تشوفو في الكراكون يا عبد السميع؟؟؟

ـ جيت أدخل الكراكون عشان أشوفه... العسكري النوبتجي... منعني... مع أني قلت لهم إني أخوه...

واجتمع الجميع حول ما سمّوه (الصفرة)... وهي قطعة مستديرة واسعة من نسيج سعف النخل... وضعوا في الوسط منها، قصعة كبيرة، ممتلئة بالفول، مغمور بالسمن الذي كانت رائحته تؤكد أنه السمن البلدي الحر... وحول القصعة أرغفة الخبز... ووعاء آخر ممتلىء إلى حافّته بسائل بني اللون، سمعتهم ضحى يقولون إنه (الصالونة)... وبدأ الجميع يغمسون الكسرة من الخبز، في طبق الفول... ولقمة أخرى في (الصالونة)... لم تر أحداً منهم يستعمل ملعقة أو شوكة أو سكيناً... جميع الأيدي تغرف بأصابعها... لاحظت بعضهم يلحس أصابعه، بعد أن يلتهم اللقمة... تحرّجت ضحى أن تطلب ملعقة أو شوكة... ترددت قليلاً... ثم... لم تر بدّاً من أن تأكل بالطريقة التي يأكلون بها... كانت جائعة... بل كانت قد أحست كأن الجوع يمزّق أمعاءها...

بعد أن فرغوا من الأكل... نهضت أم الأطفال (ضرتها)... ترفع (الصفرة) والأوعية وبقايا الأرغفة... ولكن قبل أن تحمل شيئاً... التفتت إلى ضحى تقول:

ـ يعني ما تبغي تتحركي؟؟؟ يعني تبغينا نخدمك إنتي كمان؟؟؟

عناقيد الحقد

(١١)

خلال الفترة التي قضتها ضحى حول مائدة الطعام، ثم بعد ذلك، وهي تساعد ضرّتها على رفع ونقل الأطباق، وبقايا أرغفة الخبز، إلى تلك الساحة الصغيرة بجانب الديوان، ويسمّونها (المطبخ) كان لا يشغل ذهنها شيء سوى المكان الذي ستنام فيه هذه الليلة، والليالي التالية، التي لا تدري متى تنتهي، وزوجها غائب عن البيت... لم يخطر لها أن تسأل ضرّتها إذ قدّرت أنها غاضبة متوتّرة، فلا سبيل إلى التحدث إليها في شيء أو شأن من هذه الشؤون... ولم يساورها شك في أن العجوز، وقد اتضح لها أنها أم زوجها وأخوانه، وأنها إلى ذلك قد أظهرت ما عبّر عن شيء من طيبة القلب والرقة في حديثها إليها، لم يساورها شك في أنها تنام حيث جلست بعد تناول العشاء... في هذا المكان الذي عرفت أن اسمه الديوان... ترى هل تنام إلى جانبها، على إحدى هذه المراتب المبسوطة على صدر الديوان وأحد جانبيه؟؟؟ أما النوم في تلك الغرفة العليا من الصفيح والخشب، فهو ما كانت تخشاه ضحى إلا إذا كانت ستنام معها فيها رقيّة أو حتى الضرة وأطفالها... استوقف ذهنها مع هذه الهواجس، إنها لم تشعر قط بالغيرة من هذه المرأة... لقد عرفت أنها

ضرّتها منذ اللحظة التي سمعت فيها ذلك الرجل الذي أنذر زوجها بأن ابنته لن تسكن (مع الطبينة)... وطوال الوقت منذ تلك اللحظة، وحتى الآن وبعد أن رأتها، كان ما يدور في نفسها، إنها لا تملك أن تفعل شيئاً على الإطلاق، فهي زوجة رجل مسلم، له أن يتزوّج اثنتين أو حتى أكثر من زوجتين، فإذا كان لها أن تفعل شيئاً، أن ترفض الزواج، أو حتى أن تحتج، أو أن ترفض السفر معه مثلاً، فقد انتهى وقت مثل هذه التصرفات الآن... لم يعد يجدي أن تقول شيئاً من أي نوع... وأبوها،؟؟؟ هل كان يعلم أنه متزوج في بلاده، وهو أب لعدد من الأطفال؟؟؟ ولكن حتى إذا كان لا يعلم شيئاً من هذا، فما الذي يمكن أن يغيّر من الواقع بعد أن تم الزواج فعلاً، وها هي الآن هنا بعيدة عن أبيها، وعن كل قريب أو صديق يمكن أن تلجأ إليه أو تلوذ به...

كان عبد السميع قد ترك المكان، ولا تدري إلى أين... أمّا طاهر، فقد رأته يحمل لحافاً ومخدّة، ويخرج من الديوان... فقدّرت أنه سينام هناك... في (دكّة) الدهليز التي ربّما قام بتنظيفها كما طلب إليه زوجها. ولم يبق في المكان سواها، مع العجوز جالسة في مكانها ذلك في الركن، ورقيّة أخت زوجها، وقد جلست أمام مرآة صغيرة موضوعة على رف محفور في أصل الجدار، وهي تمشط شعرها، وتجمعه فيما يشبه الكرة خلف رأسها... لاحظت ضحى أنه شعر غزير طويل وخطه الشيب... وكان الأطفال بمن فيهم الرضيع الذي لا يرى إلا متشعلقاً على صدر أمه أو على خاصرتها... كلّهم كانوا نائمين هنا وهناك على هذه المراتب، وعلى وجوههم قطرات العرق تفصّدت من جباههم... وحانت منها التفاتة إلى الرضيع فرأت على صفحة وجهه أكثر من بعوضتين استقرّتا تمتصان

الدم في نهم صامت... نهضت من مكانها، واقتربت منه، وبهشّة من يدها طارت البعوضتان... دخلت أمه في هذه اللحظة، وقد لفّت رأسها بفوطة أو منشفة كبيرة، وقطرات الماء على وجهها، يبدو أنها كانت تستحم... وقفت لحظات قبل أن تقول:

ـ الحر قتلنا... يعني متى رايحين ننام في السطوح؟؟؟

والتزمت العجوز الصمت بينما أجابتها رقيّة:

ـ ومين اللي مانعك تنامي في السطوح؟؟؟

ـ طيب يعني أنام والبزورة لوحدنا؟؟؟

ـ خلاص... تنتظريه الين يجي من الكراكون... وبدال ما تتركي الأطفال يرتع فيهم الناموس كان نصبتي لهم الناموسية، ودخّلتيهم فراشهم من بدري.

ـ يعني ما تبغيني أعشّيهم؟؟؟ دول قعدوا جيعانين طول النهار.

ـ أصله إنتي ما عاد أحد يعرف يكلّمك... كنتي تقدري تعشّيهم وتدخّليهم فراشهم ساعة طاهر ما جاب الفول والصالونة والعيش.

ـ يعني ما تدري إننا كنا نبغاهم يتعشّوا «كباب ميرو»... من الصبح وهمّ نفسهم في الكباب.

ـ خلاص... اللي حصل... طاهر نسي... يعني ما هو عاجبك الفول والصالونة؟؟؟ شوفي طبينتك، أكلت اللي أكلناه، وما نطق لسانها بكلمة وحدة.

ـ وكيف ينطق لسانها بكلمة، وهيّه شايفة اللي معاها؟؟؟

ـ يعني إيه؟؟؟

ـ يعني الآدمية... إيش بدّي أقول؟؟؟

ـ لا... قولي... اللي تبغي تقوليه...

ـ اللي أبغا أقوله... إنها جاءت لبختها الأسود... ليومها اللي ما تدري عنه... ما تدري إنها رايحة تدوق الويل وويل الويل.

واحتدمت رقية... وكانت قد فرغت من عملية جمع شعرها كرة خلف رأسها... قذفت بالمشط أمام المرآة... وبالتفاتة حادة قالت:

ـ وبعدين معاكي... يعني ما تبغي تسكتي؟؟؟

والتفتت إلى العجوز وهي تقول:

ـ يعني عاجبك كده يا أمّي؟؟؟

ولم تلتفت العجوز إليها... كانت نظرتها على الرضيع، الذي اتجهت أمه إليه، واحتضنته وأخذت طريقها إلى الباب وهي تقول:

ـ أنا عارفة... ماني عاجبة أحد... لكن الخطا ما هو عليكم...

وازدحم صوتها كأنّها تهم بالبكاء... وخرجت من الباب المشرع أمامها ليبتلعها الظلام... والتفتت العجوز إلى رقية تقول:

ـ ما تخليها في حالها... يعني ما هو مكفيك اللي بتشوفه منّه... ما هو مكفّيك إنه جاب بنت الناس هادي، وهوّه على باب الله...

ولم تجب رقية بشيء... التزمت الصمت لحظات، ثم التفتت إلى ضحى تقول:

ـ إنتي لمّا اتجوّزتي ما تدري أنو متجوز وأبو عيال؟؟؟

وسرعان ما تدخّلت العجوز تقول:

ـ سيبي بنت الناس هادي في حالها... شوفي فين رايحة تنام...

ـ فين رايحة تنام؟؟؟ تنام محل ما يعجبها...

ـ بس كيف تنام بلا ناموسية؟؟؟، دا الناموس هرانا...

ـ والله يا أمّي، ما أحد قال له يجيب آدمية بدون ما يستعدلها بفراش وناموسية...

ـ وهوة كان يتأخّر لولا أنهم أخدوه

وهنا دخلت أم الأطفال... انحنت على الأصغر منهما وحملته واتجهت نحو الباب... وهي تقول:

ـ الله يخلّيكي يا ستي... قوميه خلّيه يلحقني... ما عاد فيّه حيل أشيله...

ـ دحّين أقومه ويجيكي... بس قوليلي... ما عندك الناموسية القديمة اللي كان ينام فيها قبل ما يتجوّزك؟؟؟

وقفت أم العيال، وهي تحمل الطفل... والتفتت إلى العجوز... ثم إلى ضحى... ثم إلى رقيّة وبلهجة لا تخلو من سخرية قالت:

ـ ما هو عند ستيته ناموسيتين... ما في بنت اتجوّزت وأخدت معاها ناموسيتها القديمة. وبدا كأن العجوز قد تذكّرت فقالت بارتياح:

ـ أيوه صحيح!! قومي يا رقيّة هاتي واحدة من الناموسيتين... شوفيهم أنا مطبّقتهم وحطّاهم في الخزانة... فوق السحّارة الكبيرة. وتعالي انصبيها هنا... تنام ضحى... موكدة اسمك ضحى يا بنتي؟؟؟ أيوه ضحى تنام معايا هنا...

ثم التفتت إلى حيث ينام الطفل... وقبل أن تقول شيئاً رأتها ضحى تحاول النهوض من مجلسها... أسرعت تساعدها... وهي ترى نظرات

رقيّة تتابعها... ولم تنهض العجوز... استقرت حيث هي وقالت:

قوّميه يا رقيّة... الولد رقبته معووجة... قوّميه خلّيه يروح لأمه...

وتدخلت ضحى تقول:

ـ هوّه اسمه إيه؟؟؟ أنا أقوّمه...

ـ عبد الحي... اسمه عبد الحي يا بنتي... عساكي تسلمي...

ولكن رقيّة كانت أقرب إلى الطفل، فمدّت يدها إليه تخفق كتفه بلطف وهي تقول:

ـ عبد الحي... عبد الحي... يا عبد الحي... مسكين... دا توبه ينعصر من العرق.

ـ هو الحر والعرق بسْ؟؟؟ دا الناموس هراه...

وتقدمت ضحى من عبد الحي... وأخذت هي أيضاً تربّت كتفه وتناديه... فتح الطفل عينيه دار ببصره حوله... ودون أن يتكلّم، نهض واتجه نحو الباب بخطوات متأرجحة... وسمعت العجوز تقول:

ـ تقوم معاكي ضحى... تمسك لك الفانوس... تجيبي الناموسية يا رقيّة... خلاص لازم ننام... نحن طول النهار، الله يعلم بحالنا.

ونهضت رقيّة... وأخذت بيدها الفانوس ورفعت شعلته المخفضة... مشت وراءها ضحى، وهي تشعر ربّما لأول مرة منذ شغلها هاجس النوم في الغرفة العليا وحدها بأن مشكلة مستعصية قد حلّت... تنفست الصعداء... ولم يستغرق وصولها إلى الخزانة أكثر من لحظات... كانت وراء باب قميء... مغلق... لم تلتفت إليها رقيّة ولكنّها مدّت يدها إليها بالفانوس ثم دفعت الباب... تناولت ضحى الفانوس ومشت ربّما خطوة

أو خطوتين لتفاجأ بشهقة عالية... شهقة رعب أرسلتها رقيّة ثم توقّفت عن المسير وهي تقول:

ـ طاهر؟؟؟ حسبي الله عليك.

وحين تقدّمت ضحى تقف إلى جانبها رأت طاهر... رأت رأسه ووجهه فقط... بينما قد لفّ جسمه بقماش أبيض رأت جزءاً طويلاً منه منسدلاً على الأرض بينما وقف هو محملقاً مرتبكاً يقول:

ـ الناموس هراني في الدكّة... والغنمة الكبيرة مع الجفرة والتيس بيزعّقه عند الباب.

رأسهم وألف سيف لازم يدخلوا الدكّة... طردتهم... لكن...

ـ طيب اطلع نام فوق... ضحى تنام مع أمي...

ـ كده؟؟؟ يا شيخة الله يبشّرك بالخير...

عناقيد الحقد

(١٢)

الأصوات التي استيقظت ضحى مرعوبة على ضجيجها، في وقت قدّرت أنه الفجر، كانت ثغاء عدد من المعيز، وتيسين يتصاعد نبيب الكبير منهما بنوع من التجاوب المتلاحق مع نبيب الصغير... لم تصدق عينيها لأول وهلة، وهي ترى مجموعة منها تتحرّك في ساحة الديوان الصغيرة، ولكن سرعان ما تذكّرت، أنها تنام على فراش في داخل الناموسية التي جاءت بها مع رقية، إلى جانب فراش العجوز... ولم تستطع وهي في غمرة الدهشة من تواجد هذه الحيوانات هنا، في الديوان إلاّ أن تدور بيدها على جبهتها وعنقها وصدرها تتحسّس ما ظل يفرزه جسمها من العرق، إلى الحد الذي تبدو معه، وكأنّها قد خرجت لتوّها من البحر... تذكّرت أن (طاهر) حين فاجأها هي ورقية بوجوده في الخزانة، كان قد لجأ إلى ذلك المكان الذي لا منفذ فيه للهواء، هرباً من أصوات هذه المعيز التي قال إنها (راسها وألف سيف... لازم تدخل الدكّة)، التي كان أخوه ـ زوجها ـ قد أمره أن ينظفها وينام فيها.

ولم يتوقّف ضجيج الثغاء والنبيب، حين ارتفع صوت العجوز وهي في فراشها تنادي: (رقية...) كان صوتها لا يخلو من رعشة الشيخوخة،

وتقطعها، ولكنه ـ مع ذلك ـ قوي لا بد أن يسمع، أو أن تسمعه (رقيّة...) حيثما تكون... ولكن بدا أن أحداً لم يكن يريد أن يسمع في ذلك الوقت المبكّر من سويعات الفجر... وتكرّر النداء... ليتكرر معه ثغاء ونبيب المعيز والتيسين اللعينين... فلم تجد ضحى بدّاً من أن تقول للعجوز وهي تهم بالخروج من الناموسية:

ـ أروح أنا أشوف هيّه فين؟؟؟

ـ هيه فين؟؟؟ هيّه يا بنتي في الأوضة اللي جنبنا... لو كانت تبغا تسمع... كانت سمعت...

وعادت ترفع صوتها بالنداء: (يا رقية... يعني ما بتسمعيني؟؟؟).

ولم تسمع رقيّة... فلم يظهر لها أثر... ولكن طاهر رفع صوته بسعلة مصطنعة...

أدركت ضحى أنه ينبّه إلى وجوده خلف الجدار عند مدخل الديوان... هتفت به العجوز:

ـ الله يرضى عليك يا طاهر يا ولدي... شوف لك دبرة مع الغنم والتيسين.

ـ يعني أدخل؟؟؟ ما في أحد قدّامي؟؟؟

ـ أنا وبنت الناس في الناموسية... أدخل يا ولدي... أنا ماني دارية مين اللي فلتهم على الديوان...

ـ أنا يا أمّي... أيوه أنا... أصلي نزلت... فتحت لهم الباب، عشان قال لي عقلي لازم عطشانين... دول عند الباب من أمس العصر... وما فتحت الباب، ورحت أملّي لهم السطل إلاّ وانفلتوا زي الجنود دخلوا الديوان... ما قدرت أجري وراهم...

ـ طيّب بس... خلاص... لا تطول الحكاية... خرّجهم وخلّصنا من زعيقهم.

ـ بس يعني... يعني أخلّيهم في دكّة الدهليز... ولاّ

ـ لأ... يا طاهر... يا طاهر لا تطوّل الكلام... أنت عارف أنّو أخوك يبغاك تنام في الدكة... والغنم في الزقاق...

ودخل طاهر، وشرع يطارد المعيز من الساحة الصغيرة... إحداها طاب لها أن تقفز إلى حيث تنام ضحى والعجوز... فكأنها قد أغرت الأخريات بالحركة نفسها... وطالت المعركة بينها وبين طاهر... إحداها اندفعت إلى فراش العجوز... مزّقت الناموسية... وكادت تتلاحم وأخيراً، وبعد ما يشبه مطاردة حامية، خلا الديوان من المعيز، وخرج طاهر خلفها يلاحقها وهو يلهث... ثم عاد وهو يقول:

ـ أنا لازم ألحق أودّي الفطور في الكراكون... تبغي شي من السوق؟؟؟

ـ لا... لا يا ولدي... روح أجري... وخد هادي ريالين... اشتري له كم بكت من الدخان اللي يشربه...

ـ بس عسى ما يكونوا نقلوه من الكراكون... عسى ما يكونوا ودّوه الفرن.

ـ وهوّه الفرن هادا بعيد يا طاهر؟؟؟

ـ أبداً... هادا أقرب من الكراكون... وراء الحميدية... يعني اللي يوصل الحميدية كأنّه وصل الفرن.

ـ طيب، وليه أنت خايف لا يكونوا نقلوه إلى الفرن؟؟

وهنا عاودت طاهر حالته العصبية، التي يظهرها الضحك... انفجر ضاحكاً... ضحكات عالية متواصلة... يحاول خلالها أن يتكلّم فيزحمه الضحك... فلا يستطيع أن يتم جملة واحدة... ومع ذلك استطاع أن يقول:

ـ اللي ينقلوه إلى الفرن، ما...

ما... ما... يندّروه إلاّ بعد... بعد... ما ينخبز.

ـ ينخبز...؟؟؟ كيف يا طاهر؟؟؟ كيف بني آدم وينخبز؟؟؟ ما تقول كلام غير هادا.

ـ أصلهم ما يودّوه الفرن إلاّ بعدما يخمر

وما كاد ينتهي من الجملة الأخيرة، حتى تلاحقت ضحكاته العالية... إلى حد أصبح يضطره أن يضع يده على بطنه... وقد دمعت عيناه... وهو يقول:

ـ بعد ما يخمر يا أمّي... يعني بعدما... إيش أبغا أقول؟؟؟ كيف أفهّمك؟؟؟

ورغم حرصها على ألاّ تتدخل في أي حوار بين اثنين من الأسرة، وظلت تلتزم ذلك منذ كانت في ذلك البيت الذي قضت فيه الفترة منذ وصولها إلى أن ركبت مع زوجها سيارة البريد من جدة... وجدت ضحى الآن، وفي زحمة الموقف الذي تشهده بين طاهر والعجوز، أنها تستطيع أن تتدخّل بكلمة تطمئن بها العجوز، أو تساعدها على أن تفهم ما يريد أن يقوله ابنها فقالت:

عندنا في مصر اللي بينقلوه من القسم اللي بتسموّه الكراكون، بيكونوا حكموا عليه بالحبس.

هوّه الحبس عندكم بتسمّوه (الفرن)؟؟؟

ولكن ما كادت تنتهي من هذه الكلمة، حتى رأت العجوز، وهي لا تزال قابعة في الناموسية تصفع وجهها بيدها وهي تقول مرعوبة ثائرة:

ـ حكموا عليه بالحبس؟؟؟ إنتي بتقولي حكموا عليه بالحبس يا ضحى يا بنتي؟؟؟

وارتبكت ضحى، وأحسّت أنها قد تورّطت في مشكلة لا تعرف كيف يمكن أن تحل... فاستجمعت أعصابها لتقول:

ـ أنا ما قلتش حكموا عليه بالحبس... أنا اللي عايزة أقوله... عندنا في مصر لمّا بحكموا على المجرم بينقلوه...

ولكن العجوز، في انفعال الرعب الذي سيطر عليها، عادت تصفع جبينها مرة... ثم مرة أخرى وهي تقول:

ـ مجرم؟؟؟ هوّه أخوك سار مجرم يا طاهر؟؟؟ ما تتكلم يا ولدي... ما تهرج...

وكان طاهر قد كفّ عن الضحك بعد تأزم الموقف، فأخذ يقول:

ـ يا أمّي طولي بالك شويّة... هيّه بتقول لك عندهم في مصر... عندهم في مصر بيسمّوا المكان اللي بينقلوا إليه المجرم...

ومرة أخرى أخذت العجوز تصفع جبينها... وتصرخ:

ـ مجرم؟؟؟ أنت كمان بتقول عن أخوك... حبيبك... أخوك اللي خرّجك من المرستان... أخوك اللي طول عمره بيحامي لك، ويدافع عنّك، ويتخاصم مع إخوانه عشانك... تقول عن أخوك... مجرم؟؟؟

واضطرت ضحى أن تتدخّل مرة أخرى لتقول:

ـ يا نينه محدّش قال عن... عن جوزي مجرم... أنا باقول عندنا في مصر... مش... وعقّب طاهر مقاطعاً:

ـ أيوه يا أمّي هادا الكلام عندهم... عندهم في مصر... أمّا عندنا وقاطعته ضحى:

ـ لو سمحت يا سي طاهر... عايزة أعرف، هوّه أنتو هنا بتسمو الحبس، فرن؟؟؟

ـ لأ... الحبس عندنا اسمه الحبس... بس الفرن حاجة تانية.

ـ يعني عندكم فيه حبس... واسمه حبس؟؟؟

ـ هوّه كدة عليكي نور... عندنا حبس واسمه حبس... ودا في الغزّة... وكمان فيه واحد يقولوا... يقولوا إنّه في القلعة... قلعة جياد... واللي في الغزّة اسمه (المحروق)

ـ المحروق.؟؟؟ يعني إيه؟؟؟ قصدي ليه بيسموه كده... ليه واحد فرن... والثاني المحروق؟؟؟

وسرعان ما عاودت طاهر نوبة الضحك... فأرسلها ضحكات عالية متلاحقة... واستطاع أن يقول بجهد ومعاناة، تقاطعها ضحكاته المتوالية:

ـ سمعت ـ والله أعلم ـ أنّو الفرن سمّوه (فرن) عشان كان في أيام الأتراك والشريف كان فرن يخبزو فيه عيش العسكر... وسمعت كمان... ـ والله أعلم ـ أن المحروق سمّوه كده علشان كان من زمان... في أيام الشريف عون... كان قصر كبير... وانحرق، ولكن الطبقة التحتانية سلمت... وهيّه اللي بيحبسوا فيها الناس.

وهنا تدخّلت العجوز، وقد هدأ روعها قليلاً... وأخذت تتحرك لتخرج من الناموسية: وهي تقول:

ـ يعني طاب لك الحال... قاعد تضحك وتهرج... ما تروح تودّي الفطور لأخوك

ـ طيب ما تنبشي...

ـ ما أنت آخد ريالين... إيش تبغا كمان؟؟؟

ـ الريالين لأربعة بكتات أبو جنيه... طب بأيه أشتري الفطور والشاهي؟؟؟

ـ طيّب... خد... هادا ريال... وجيب لنا معاك (تميز) وجبنة وفول... وتقدم طاهر منها وقد خرجت من الناموسية... وتناول الريال... ولاحظت ضحى أن نظراته متجهة إليها... نظرات قلقة، ولكنها تكاد لا تتحول عنها... فأدارت وجهها عنه... وهي تسدل على كتفيها وصدرها (الشرشف) الذي كانت تتغطى به.

وقبل أن يغيب بجسمه عبر الباب... كانت أم الأطفال، تدخل والرضيع كالعادة متشعلق على خاصرتها... وقالت:

ـ أبويا له ساعة بيدق الباب... وما أحد فتح له... يقول يبغا يتكلم معاكي يا ستي... وبيسأل عن عبد السميع... متى يجي هنا؟؟؟

وفي محاولتها الهبوط، إلى الساحة الصغيرة أمامها، قالت:

ـ طيب... يا بنتي يا ضحى... قومي اطلعي فوق وإنتي خلّي رقية تيجي ترفع الفراش والنموسيات... وبعدما تطلع ضحى فوق، خلّيه يدخل وينتظرني عبال ما أتوضّا لأن الشمس قرّبت تشرق وأنا ما صلّيت الصبح.

عناقيد الحقد

(١٣)

سبقته (نحنحته) وسعاله المصطنع بغرض التنبيه إلى وجوده ومجيئه، كما سبقته ابنته أم العيال والرضيع على خاصرتها، ولم يطل وقوفه في الساحة الصغيرة من الديوان، إذ سرعان ما اتجه إلى الصدر، ولملم أطراف معطفه الطويل، وجلس وهو يصلح وضع عمامته على رأسه... ثم مد يديه وذراعيه وهو يقول:

ـ هاتيه...

ـ بس زي ما أنت شايف يا بويا... مدهمل، ولسّه ما غسلت له وجهه ويدّينه.

ـ هاتيه... تعال يا حبيبي... تعال

وأخذ الطفل بين ذراعيه، وأجلسه في حضنه... ولكن الطفل سرعان ما زعق، وأخذ يتخلّص منه متجهاً إلى أمّه... فلم يملك جدّه إلا أن يتركه لها... فعادت تحمله على خاصرتها وابتعدت قليلاً... لتقول:

ـ قبل ما تيجي ستّي، يا ريت يا بويا ما تقول لها، من اللي سمعته عنّه... يعني... إذا كنت سمعت شي.

ـ ما هو اللي سمعته هو اللي خلاّني أجي في هادي الصبحية... هرج الناس كتير، ويخوّف يا زينب.

ـ يخوّف يا بويا؟؟؟

ـ أيوه يا بنتي... دول بيقولوا أنّو كتب كلام مو طيّب، في جريدة واحد نصراني في مصر.

ـ نصراني... قلت نصراني يا بويا؟؟؟

ـ أيوه واحد نصراني... من الأقباط في مصر...

ـ أعوذ بالله... يعني ما لقي جريدة يكتب فيها إلاّ جريدة النصراني.

ـ لأ... والمصيبة... يا بنتي يا زينب، الكلام اللي كتبه... يقولوا كلام موطيّب...

ـ لا بد أنّه كلام نصارى... صاحب الجريدة النصراني، ما يكتب في جريدته إلا كلام النصارى يعني يا بويا تظن أنّه أبو دحماني... سار نصراني؟؟؟

ـ أعوذ بالله... إيش هادا الكلام...؟؟؟ يا بنتي قولي خير... أبو دحماني عمره ما يترك فرضه... حتى ليلة دخلتك... صلّى بنا العشا جماعة... يعني كان هوّه الإمام...

ـ لكن يا بويا... أنا سمعته يقول لمّا يروح مصر، رايح يتعلّم إنجليزي...

ـ طيب وفيها إيه... أنا بنفسي باتمنّى لو أتعلّم الإنجليزي... واللي بيشتغل عندي الصبي الجديد في الدكان... عشان يعرف إنجليزي، بيقدر يقرأ الكلام المكتوب على علب مربّة الجنزبيل اللي بيورّدوها من الهند.

ـ بس برضه يا بويا، لا تقول لستي شي... دي تتجنّن... وتجنّنا معاها.

ـ يعني عبد السميع، ما قال لها شي؟؟؟

ـ أبداً... كل اللي قاله عبد السميع وحتى طاهر... أنّو في الكراكون...

ـ لأ... دا كان في الكراكون... لكن فيه ناس شافوه، وهمّا آخدينه على الفرن.

ـ وإيش يسوّو في اللي ياخدوه على الفرن.

ـ ولا شي... سليمان الخليفي رجّال طيّب... وابن حلال... بس ما أحد يدري عاد متى يخرج من الفرن... فيه ناس قاعدين من زمان...

وقبل أن يتم أبو زينب جملته، كان صوت العجوز يسبقها وهي تقول:

ـ يا رقية... الشاهي قوام لعمّك عبد الموجود.

ودخلت، وهي ترتعش في مشيتها، بحيث اضطرت زينب إلى أن تسرع إليها تساعدها إلى أن أجلستها في مكانها... في ذلك الركن الذي تلازمه دائماً، فلا يحتله أحد سواها... وقبل أن تتمكن من جلستها رحّبت بعبد الموجود، وهي تقول:

ـ عبد السميع قال لك أبو دحماني فين... موكده؟؟؟

ـ وإنتي الصادقة... عبد السميع ما شفته من ساعة ما وصلنا من جدة... أنا نزلت وتركته في السيارة مع صاحبه اللي ركبنا معاه... بس أنا سمعت أنو أبو دحماني في الكراكون وبعدين... جارنا البخاري، جاني بعد صلاة الصبح اليوم... وقال أنّو شافهم ودّوه الفرن وكعادتها في

مثل هذه الظروف... صفعت جبهتها بكفّها وهي تقول:

ـ الفرن؟؟؟ جارك شافه وهمّ بيودّوه الفرن؟؟؟

ـ هادا اللي قاله... وعشان كده جيت أسمع منّكم... أبغا أعرف إيش الحكاية.

ـ الحكاية؟؟؟

ـ أيوه يعني... إن كان فهمتوا من أبو دحماني السبب اللي خلاّهم يطلبوه يودّوه الكراكون من ساعة ما وصل مكة... في الحقيقة عبد السميع، كان باين عليه وهوّه معايا في السيارة أنّو فاهم وعارف السبب اللي خلاّه يترك المدرسة في مصر، ويجي مكة لكن فضل ساكت... ما قال لي أي شي... يمكن عشان كان معانا صاحبه، اللي جابنا في سيارته.

ـ سار كده؟؟؟ عبد السميع يدري وما قال لنا شي...

وتدخّلت زينب تقول:

ـ يا ستي يمكن، أبو دحماني هوّه اللي قال له أنو ما يقول لنا شي.

ـ ولمّا يقول له كده... يعني الحكاية كبيرة... ما يبغانا ندري عشان لا نخاف...

طيب... يعني نفضل ساكتين؟؟؟ يعني... نخلّيه كده بدون ما نسوّي أي شيء؟؟؟

وعادت زينب تقول:

ـ بس يعني إيش نقدر نحن نسوّي يا ستي؟؟؟ لما تكون الحكاية كبيرة زي ما بتقولي ما يقدر أحد يسوّي شي...

ـ طيب... يعني نفضل ساكتين؟؟؟

وهنا تنحنح عبد الموجود، وهو يقول:

ـ أيوه... أيوه يا أختي... لازم نفضل ساكتين الين نعرف أصل الحكاية... الين نعرف إيش اللي حصل من أبو دحماني، لما كان في مصر... يعني إيش سوّا هوّه هناك.

وسكت لحظات ليضيف:

ـ هيّه اللي جايبها معاه... ما تدري عن شيء؟؟؟

ـ ضحى؟؟؟ يا عيني عليها... ما تدري عن شي... هيّه نفسها ما تدري إيش اللي حصل ولا إيش اللي رايح يسير... ما أدري إيش اللي خلاّه جابها معاه... ما كان أحسن يخليّها عند أهلها، ما دام عارف أنّو لمّا يوصل مكة رايح يروح الكراكون.

والتزم عبد الموجود الصمت، وشرع يلملم أطراف معطفه الطويل... وهي حركة تنبىء عن رغبته في إنهاء المقابلة... ولكنّه قبل أن ينهض من مكانه قال:

ـ على كل حال، أنا دحّين أروح الفرن... أحاول أشوفه وأتكلم...

وما كادت العجوز تسمع كلمة (الفرن) حتى قالت بصوت مرعوب:

ـ تروح الفرن؟؟؟ همّا ودّوه الفرن؟؟؟

ـ هوّه إنتى ما تدري؟؟؟ يا ريت ما غلطت وقلت... أيوه يا أختي... ودّوه الفرن... بس ليه إنتي خايفه من الفرن... دا... أحسن من الكراكون... على الأقل فيه ناس يهرج معاهم... ويمكن يسمحوا لنا نشوفه ونتكلم معاه. أما في الكراكون... بيكون لوحده... وما يسمحوا

لأحد لا يتكلم معاه ولا يشوفه أبداً... عشان يستنطقوه... وقاطعته ابنته زينب تقول:

ـ يستنطقوه؟؟؟ يعي زي ما يستنطقوا الحرامية... والناس اللي يتهموهم بالقتل. ولم تملك العجوز وهي تسمع زينب تقول ما قالته إلاّ أن تخفق صدرها، وتصفع جبينها بالأخرى وبدا كأنها تتماسك، وتحاول أن تتكلم فلا تستطيع... وأشارت بيدها... تطلب شيئاً فهمت زينب أنه الدواء الذي يسعفونها به في مثل هذه الحالة... نهضت زينب مسرعة وجاءت بزجاجة الدواء، وضعتها أمامها... ثم أسرعت تجيئها بالماء...

وبدا على عبد الموجود أنه قد ارتبك، وخالجه الخوف من الموقف فقال:

ـ الله يهديك يا زينب... صحيح أنّو المنطق سعادة... أصلك ما تعرفي تهرجي... طول عمرك تدردبي الكلام اللي زي الآجور... الحكومة تستنطق كل واحد تبغا تعرف منه الحاجة اللي تبغا تعرفها... حتى اللي يتضاربوا مع بعض يستنطقوهم، عشان يعرفوا مين اللي ضرب التاني...

وبعد أن ابتلعت العجوز حبّة الدواء وشربت عليها جرعتين من الماء، بدا كأنها قد استروحت وعاودها شيء من الهدوء... فقالت...

ـ خلاص يا عبد الموجود يا خويا... ما دام أنت رايح تشوفه في الفرن... تقدر تتعدّى علينا وتقول لي اللي تسمعه منّه...

وكمن تنبّهت إلى أمر نسيته قالت:

ـ هو طاهر لسه ماجا؟؟؟ قومي شوفيه يا زينب...

وقبل أن تنهض زينب من مكانها، سمع الجميع سعلة طاهر المصطنعة خلف الجدار وهو يقول:

ـ ادخل؟؟؟ ما في أحد قدّامي.

وقالت العجوز، وعبد الموجود معاً بلهجة استعجال:

ـ أدخل... أدخل يا طاهر

وكان الرضيع وهو على خاصرة أمه، قد ملأ المكان عويلاً مزعجاً... فنهضت به تريد الخروج بينما دخل طاهر ووقف، وفي يده أرغفة التميز عليها (زبدية) الفول المدهونة، وجعل يدير نظراته بين أمّه، وبين عبد الموجود... ثم بشيء من التردد والتلعثم قال:

ـ ودّوه الفرن... ويقول لكم كلّكم... هوّه بخير... بس اصحو تسوّو شي واصحو تروحوا الحميدية إلاّ لمّا هوّه يقول لكم على اللي تسووه.

مسرحية الأغلال

«مترجمة»

الفصل الأول

المنظر

حجرة جلوس، قطع الأثاث الرئيسية على المسرح: مائدة وسطية وهي الآن معدَّة لثلاثة أفراد و«بوفيه» جانبي من الخشب إلى اليمين. في مؤخرة المسرح باب ذو درفتين كبيرتين يسدل عليه ستار يخفى جزءاً منه ويؤدي هذا الباب إلى غرفة أخرى داخلية، وإلى اليسار باب زجاجي يؤدي إلى باقي أجزاء المنزل والمطبخ، قطع الأثاث تختلف قليلاً من ناحية الطراز، فإلى أحد جانبي المدفأة يوجد مقعد ذو ذراعين من القش المجدول، بينما المقاعد الأخرى وهي خمسة، ثلاثة منها قد وضعت إلى المائدة واثنان بحذاء الجدار مصنوعة من الخشب الخيزراني، والبوفيه مصنوع من خشب الماهوجاني. أما السجادة المفروشة فوق قماش من المشمع فهي من نوع عادي غير معروف وذات لون قرمزي فاقع. النوافذ مزينة بستائر من الدانتيل والجدران عليها صور من بينها صورة حفل زفاف وأخرى لفريق من لاعبي الكركيت وفوق رف المدفأة ساعة منبهة من النحاس، ومعها تحفة للزينة أو أكثر وبجوار النافذة منضدة فوقها ماكينة خياطة يدوية وعلى حافتها بعض الأصص، كما يوجد على منضدة أخرى صغيرة في الجانب الآخر من

النافذة أصص أيضاً تحتوي على شتلات نباتية وفي الجدار، فوق ماكينة الخياطة، رفان للكتب، وتتوسط مائدة الطعام «فازه» مليئة بالزهور.

ليلى، تستكمل إعداد المائدة باهتمام شديد، وهي شابة صغيرة السن ذات قوام نحيف ووجه جميل ترتدي «بلوزة» فاتحة اللون، وقميصاً داكناً، وفوقهما مئزر كبير. يسمع صوت الباب الأمامي للمسكن وهو يغلق، ويدخل رفيق، وهو نموذج عادي لموظف المدينة، يرتدي «الجاكيت» الفراك الطويلة، والسروال الأسود والقميص الأبيض الذي يبدو جزء كبير من أساوره خارجاً من كمَّيه، علاوة على الياقة البيضاء العالية.

ليلى: لقد حضرت إذن (ترفع وجهها إليه ويتبادلان قبلة سريعة) يبدو لي أنني سمعت صوت أستاذ شوقي معك.

رفيق: تقابلنا عند السلم الخارجي.

ليلى: صدفة ظريفة! جميل جداً.. سنتناول الطعام إذن في الحال.

رفيق: (يخلع عن رأسه قبعته، ويضعها فوق البوفيه، ثم يتمطى ببطء في استمتاع واضح) اليوم هو السبت والحمد لله! (يقصد أن غداً عطلة).

ليلى: (وهي تضحك في خفة) مسكين أنت!

رفيق: (وهو ينظر شزراً نحو قبعته الرسمية السوداء) لشد ما أتوق إلى إلقاء هذه القبعة اللعينة في النهر (يهدد القبعة بقبضة يده، ثم يمد رقبته كما لو كان يريد تخليصها من الياقة البيضاء المرتفعة، ويهز أسورتي قميصه إلى أسفل حتى يبدو منهما جزء كبير، ثم يتأملهما ملياً) ما أسخفهما.

ليلى: (في قلق) ما الذي يضايقك منهما؟ أهما متسختان؟

رفيق: متسختان! كلا إنهما ناصعتا البياض بما فيه الكفاية.. يا له من زي بغيض.

لقد حضر اليوم أحد الموظفين إلى المكتب مرتدياً ربطة عنق حمراء، فأشبعه يوسف العجوز لوماً وتهديداً وسأله عما إذا كان يسارياً متطرفاً. وأجابه الموظف بأنه ليس يسارياً ولا متطرفاً... ولكنه فقط يحب اللون الأحمر. فأجابه الرئيس يوسف «إنني أيضاً أحب اللون الأحمر، فهل يعني ذلك أن أرتدي في المكتب ربطة عنق حمراء..؟ أو أن أسير في المدينة مرتدياً ثياب الجولف»! قال ذلك وهو يظن نفسه خفيف الظل مما جعل أشرف يثور ساخطاً.

ليلى: ومن هو أشرف؟

رفيق: إنه أشرف سالم ولقد صاح في يوسف قائلاً إنه سوف يرتدي ما يحلو له.

ليلى: ولكنها حماقة منه... أليس كذلك؟ إنه يشغل وظيفة جيدة، تؤمن له حياته.

رفيق: إن ذلك ما قاله وبعد أن فكر في الأمر ملياً.. ابتلع ما حدث. حسناً.. هل أعددت الطعام؟

ليلى: إنه في الانتظار.

رفيق: (وهو يخرج) سأعود في الحال.

(تتجه ليلى نحو المدفأة، وهي تسمع خطوات شوقي في الخارج، وهو يصفر بفمه جزءاً من لحن «دعنا نرحل إلى». يدخل شوقي، وهو شاب عريض الكتفين ومن الطراز الذي يشعر بالخجل في حضرة النساء).

شوقي: الطقس جميل اليوم يا أستاذ محيي.

ليلى: رائع.

شوقي: أحضرت لك الصحيفة، ولعلها تعجبك، إنها «الأخبار».

ليلى: آه شكراً أحب ما بها من صور، إن رفيق قد أصبح ينمو الآن نمواً جاداً ومخيفاً في قراءاته ولم يعد يبتاع الأخبار، فهو يحضر الأهرام، ويعتقد أن ما بها من مقالات عن فلاحة البساتين مادة جيدة.

شوقي: إنه مغرم بالترف.. فهي أغلى ثمناً.

ليلى: ولكنه يتقاسمها مع بعضهم! (فترة سكون).

شوقي: أصبحت مملة.. وأود لو تخلصنا من البسلة وغيرها من خضراوات ونباتات، وقمنا بتربية بعض الدجاج لأنه أكثر فائدة.

(تخرج ليلى يسحب شوقي خريطة من جيبه ويأخذ في دراستها، يدخل رفيق ومعه ليلى، وقد طرأ على رفيق تغيير رائع بعد أن أصبح يرتدي الآن حلة رمادية واسعة فاتحة اللون وقميصاً من الفانلة ذا ياقة لينة، رباط عنق زاهي اللون، وخفًّا قديم الطراز. بينما يطل غليونه من أحد جيوبه الأمامية، ومن جيب آخر تطل إحدى الصحف، يجلسون إلى المائدة. وتحاول ليلى ألا تبدي انزعاجها عندما أخذ رفيق يصارع شريحة اللحم التي قد أحضرتها معها ووضعتها أمامه. وقد تناثر بعض رذاذها بينما أخذت ليلى توزع الخضراوات).

رفيق: أعتقد أنني سأحظى عما قريب بكلب من كلاب محسن الصغيرة.

ليلى: حقاً! ما أجمل ذلك.

شوقي: لقد رأيت تلك الكلاب الصغيرة في الليلة الماضية.. إنها من سلالة أصيلة وتصلح للتربية في المنزل.

رفيق: إنها لازمة لنا، فمثل هذا الحي الهادئ الذي نقيم فيه يكون عادة عرضة لسطو اللصوص.

ليلى: أتظن حقاً أن أحداً قد يسطو علينا؟

رفيق: لقد سطوا على المنزل ٢٤ منذ ليال.

شوقي: ما الذي أرادوا سرقته؟

ليلى: رقم ٢٤؟ إنهم الساكنون الجدد، يا للفضيحة!!

رفيق: كان اللصوص وراء هدايا الزواج.

ليلى: ذكرت لي مدام نادية أن السكان الجدد يمتلكون تحفاً وصحافاً من الفضة الحقيقية.

رفيق: ثقي أن اللصوص يعرفون ذلك، فهم لا يغامرون بارتكاب جرائمهم من أجل بعض الأجهزة الكهربائية... وهكذا فإن أحداً لن يسطو علينا.

ليلى: رفيق، أنسيت أناء الحلوى والصينية اللذين نملكهما..؟

شوقي: وأين الكلب؟

ليلى: لا يوجد في الجيرة سوى كلب واحد.

رفيق: إنهم لا يقتنون كلاباً للحراسة في مثل هذا الحي، بل يقتنونها فقط للمشاجرات. ونحن كقوم محترمين لا دخل لنا في المشاجرات.

ليلى: أعتقد أنه تصرف دنيء جداً من اللصوص لو أنهم أقدموا على سرقة أناس مثلنا.

رفيق: (وهو ينفجر ضاحكاً) تريدين أن تقولي إن عليهم إذا أرادوا السرقة أن يذهبوا إلى حي ثري مثل حي..؟

ليلى: طبعاً إن السرقة جريمة خاطئة على العموم، ولكنها إذا ارتكبت في مثل ذلك الحي، فإنها تكون أقل ضرراً (تكف عن الحديث وقد بدا عليها بعض الارتباك).

شوقي: طبعاً.. هذا حق.

رفيق: (وهو مستند في استرخاء إلى مقعده) أأنت راحل يوم السبت؟.

شوقي: كلا... الواقع أنني..

ليلى: إن ماجدة قادمة بعد ظهر اليوم هل ندعو أسرة (...) للعب الورق الليلة..؟

رفيق: فليكن.. ولكن لا تجعليهم يحضرون مبكراً..

(ينظر خلال الباب الزجاجي إلى الحديقة) علي الآن أن أقوم لأوالي البسلة.

شوقي: أهي بسلة زهور، أم بسلة خضراء للأكل؟

رفيق: بسلة خضراء! أمثل هذه الرقعة الصغيرة؟ لشد ما كنت أود ذلك أيها الصديق العزيز..

ليلى: (وهي تحاول تقديم مزيداً من الطعام لشوقي) إليك دفعة أخرى؟

شوقي: كلا.. شكراً.

رفيق: (مستطرداً حديثه عن الحديقة) أضف إلى ذلك التربة... إنها تربة رديئة... علاوة على العصافير.

ليلى: إن بعض العصافير أليف جداً يا عزيزي ولا يبدو عليها أنها تبالي أبداً بقطة جيراننا.

رفيق: (في مرارة) إنها لا تبالي بشيء على الإطلاق وأنت التي عوّدتها

على ذلك (مخاطباً شوقي) إنها تقدم لها طوال الشتاء الخبز المنقوع في الماء.. ثم تنتظر مني بعد ذلك أن أنجح في زراعة الحديقة... يا إلهي!

(ليلى تجمع الصحون، ويخرج شوقي، ويتجه رفيق بعد أن يشعل غليونه نحو الباب المؤدي للحديقة ويظل مرتكزاً عليه وهو يدخل).

ليلى: إن الطفل الذي في المنزل المقابل لنا لطيف جداً يا رفيق.

رفيق: حقاً؟

ليلى: لقد خرجت الخادمة به هذا الصباح، وناديتها هنا.

رفيق: ولد أم بنت؟ (يبدو عليه أنه يتحدث دون اهتمام، وهو يتفحص الحديقة بنظره).

ليلى: ولد، وسوف يسمونه لطفي أمين رفاعي، وهو اسم طويل بعض الشيء... أليس كذلك؟

رفيق: وما سبب إطلاق كل هذا الاسم عليه؟

ليلى: الاسم الأول هو اسم والد الزوجة، والثاني اسم والد الزوج.. أما رفاعي فهو اسم العائلة.

رفيق: وما الداعي إلى إطلاق الاسمين عليه، كان الأجدر أن يحتفظا بأحدهما للطفل الثاني.

ليلى: تقصد رفيق!

رفيق: إنها غباوة منهما... ومع ذلك فهذا أمر لا يخص أحداً غيرهما.

ليلى: قد يكون المولود الثاني بنتاً.

رفيق: وماذا في ذلك؟ سيأتي بعدها أطفال آخرون.

ليلى: رفيق!

رفيق: وماذا يمنع يا فتاتي العزيزة..؟

ليلى: لا أحب منك أن تتحدث بهذه الطريقة.

رفيق: أنا.. (يكف فجأة عن الكلام، وينظر نحوها.. ويتقرب منها، ويمسك بوجهها بين يديه) أيتها الحمقاء.... (يقبِّلها).

(تخرج ليلى حاملة صينية فوقها الأطباق وهي تغني، ويشمر رفيق أكمامه ويخرج إلى الحديقة).

(يدخل شوقي، وهو يتلفت حوله، ويقترب رفيق من الباب الزجاجي ومعه معول).

رفيق: ما الأمر؟

شوقي: لدي أنباء لك.

رفيق: أهناك ما يضايقك؟

شوقي: كلا.. كلا.. الواقع أنني قد عزمت على أن أشدّ رحالي..

رفيق: (في دهشة) تشد رحالك! إلى أين؟

شوقي: لقد ضقت بكل شيء.. ولم أعد أحتمل.

رفيق: (محاولاً أن يفهم) هل تعني أنك قد تركت عملك في الشركة؟

شوقي: أجل.. لقد عزمت على مغادرة البلد وهكذا ترى أنني سأغادر مسكنكم.

رفيق: تغادر البلد؟ أوجدت عملاً في الخارج.

شوقي: أبداً.. لا شيء.

رفيق: لماذا ستسافر إذن؟

شوقي: لأنني ضقت ذرعاً بالبقاء في هذه البلد.

رفيق: إنني لا أقلّ عنك سأماً.. وكثيرون غيرنا ينتابهم هذا الإحساس. أتعني أن السبب الوحيد لمغادرتك البلاد، هو رغبتك في التغيير؟

شوقي: شيء من هذا القبيل، لقد أصابني من الضجر ما فيه الكفاية.

رفيق: حسناً.. وقد يصيبك الضجر حيث تذهب.

شوقي: إن الانتقال من ضجر إلى ضجر فيه نوع من التغيير..

رفيق: كندا؟

شوقي: كلا، أستراليا.

رفيق: (مبدياً دهشة) يا لها من رحلة طويلة... أليس هناك أصدقاء؟

شوقي: كلا.

رفيق: أليست هذه مغامرة منك؟

شوقي: طبعاً مغامرة. ولماذا لا أغامر بعض الشيء بدلاً من الاستسلام لهذا العمل المضجر الذي أؤديه يومياً منذ أعوام؟ ملل وسأم.. ملل وسأم.. ثم لا شيء في النهاية.. لعلك فهمتني؟ وهب أنني بقيت سوف يمنحونني علاوة بعد أخرى كل عام.. حتى يصبح مرتبي في نظرهم كافياً.. والمفروض بعد ذلك كما هي العادة، أن أتزوج، لأقيم في منزل بسيط.. وأعيش حياة.. على قد الحال.

رفيق: (متلفتاً حوله) مثلي (يسمع صوت ليلى وهي تغني في المطبخ).

شوقي: عفواً أيها الصديق.. لا أقصد إساءتك، إنها حياة تروق للبعض.. وهي تروقك، وقد تكون متعلقاً بها بعد أن ألفتها، أما أنا، فأريد أن أغامر بعض الشيء وأرى الدنيا قبل أن أستقر.

(يلتزم رفيق السكون، وينطفئ غليونه، ويظل محدقاً ببصره نحو الأرض) هذا ما دعاني إلى تلك المخاطرة، إن لديَّ بطبيعة الحال مبلغاً بسيطاً، ولن أهلك جوعاً منذ الوهلة الأولى على أية حال (لا يبدي رفيق على ذلك أية ملاحظات ويستمر شوقي في حديثه معتذراً) أشعر ببعض الذنب لأنني لم أكاشفك إلا الآن.. والحقيقة أن الأمر قد حدث بسرعة، وسأرحل يوم الاثنين.

رفيق: (رافعاً رأسه وناظراً في دهشة إلى شوقي) يوم الاثنين! إنه بعد غد.

شوقي: أجل، أعرف... والذي حدث هو أنني سمعت أن رجلاً.. رجلاً أعرفه سوف يسافر يوم الاثنين، فراودتني الفكرة على الفور، وقلت في نفسي «لماذا لا أرحل معه»؟ وقابلته يوم الجمعة الماضي، ولما أفض إليكما بشيء.. حتى أقابل مدير الشركة، وقد انتهى الآن كل شيء... وإني آسف لإخفاء الأمر عنكما على هذا الوجه..

رفيق: كلا.. أبداً، ليس في الأمر شيء. ولكن الأمر غريب غريب جداً. وماذا قال لك عزت؟

شوقي: ربت على ظهري قائلاً إنهم يرحبون ببقائي لديهم أي وقت أريد... وإلى ما شاء الله! وكان هذا في الحقيقة كرماً منه، ثم أردف قائلاً أنه يود لو استطاع أن يفعل مثلي، وينأى عن الشركة! وأبدى رغبته في أن أكتب إليه. (فترة سكون) أقول، أو أن تخبر مدام ليلى؟

رفيق: إنها في المطبخ (ينادي عليها) ليلى! ليلى!

ليلى: (من الخارج) نعم يا عزيزي.

رفيق: تعالي! ثمة أنباء.

(تدخل ليلى وهي تجفف يديها في مئزرها وتبتسم).

ليلى: ماذا؟

رفيق: (مشيراً بغليونه نحو شوقي) ماذا تظنينه سوف يفعل؟

ليلى: (وهي تفحص وقالت باهتمام) يفعل..!

شوقي: (في ارتباك) سوف أغادركم يا مدام ليلى.

ليلى: تغادرنا! (يشرق وجهها فجأة) أنت إذن ستتزوج!؟

شوقي: يا إلهي، كلا! ليس الأمر كذلك.

رفيق: وماذا جعلك تظنين ذلك؟

ليلى: وأي شيء آخر يستطيع أن يفعله؟

شوقي: سوف أرحل عن البلد.

رفيق: سيرحل سعياً وراء الثروة... يا له من رجل محظوظ.

ليلى: هل وجدت منصباً ممتازاً في الخارج يا أستاذ شوقي؟

شوقي: كلا.. لم أجد، سأرحل معتمداً على الحظ.

ليلى: وما الذي يدفعك إلى ذلك؟ ألا تعجبك الشركة؟

شوقي: أبداً، كانوا كرماء معي.. ولكنني سئمت الجلوس إلى المكتب.. سأرحل لأمارس الزراعة.

ليلى: ضارباً صفحاً عن وظيفة جيدة كوظيفتك؟

شوقي: إنني معك في أنها وظيفة جيدة.

ليلى: بل إنها ذات مستقبل أيضاً. . إنك على وشك أن تصبح رئيس قسم. . هذا أمر يدعو إلى الأسى.

شوقي: قد يكون في تصرفي بعض الحماقة. . أعرف ذلك.

ليلى: من الطبيعي أن تشعر أحياناً ببعض الملل، ولكن ليس معنى ذلك أن تترك وظيفتك هكذا كلية وأرجو ألا تندم على ما فعلته فيما بعد. إن رفيق يتولاه الضجر أحياناً من وظيفته. . أليس كذلك يا عزيزي.

رفيق: (من عند باب الحديقة) قليل من الضجر. . ما بين حين وآخر.

ليلى: كل إنسان ينتابه هذا الإحساس أحياناً على ما أعتقد. (مخاطبة شوقي) سيكون أمراً جميلاً جداً أن ترى أماكن أخرى من العالم، ولكن في استطاعتك أن تقوم برحلات خلال إجازتك وأنت محتفظ بوظيفتك.

شوقي: لا أظنك قد فهمت ما أرمي إليه تماماً. أنا لا أرحل لأنني أود أن أشاهد أماكن أخرى، ولكنني، مع تسليمي بأن مشاهدة أماكن أخرى متعة لا شك فيها. . راحل من أجل التغيير. . تغيير عملي.

ليلى: (وفي صوتها نغمة من العطف) إن العمل الرتيب مضن، ولا شك، ومما يدعو إلى السأم أن يظل الإنسان يكرر ما يفعله يوماً بعد يوم. . ولكن ساعات العمل ليست طويلة على ما أعتقد. . أليس كذلك؟

رفيق: (ساخراً) من التاسعة صباحاً حتى السادسة فقط! يتخللها ساعة للغداء وتناول الشاي. . فلتحص نعم الله عليك يا سامي (يقصد سامي إذ إن اسم شوقي الكامل هو سامي شوقي).

ليلى: (تؤنب رفيق وهي غاضبة) أنت تعلم يا رفيق أننا كثيراً ما تحدثنا عن ساعات العمل، ولقد أكدت لي مراراً أنها ملائمة.

رفيق: ومن قال غير ذلك؟

ليلى: (مخاطبة شوقي) ثم إن لديك الليل بأكمله بعد السادسة، كما أن الشركة تعطي إجازة لموظفيها صباح السبت.. أليس كذلك؟

شوقي: نعم.. كل ذلك صحيح، ولكني ضقت مع ذلك ذرعاً.. ويستطيع أي شخص أن يأخذ وظيفتي.

ليلى: آمل مرة أخرى ألا تأسف مستقبلاً.. فسيكون الأمر مزعجاً حقاً إذا لم توفق بعد تركك لوظيفة ممتازة كوظيفتك.. ونحن لا شك نشعر بالأسف العميق لأنك ستغادرنا يا أستاذ شوقي، فلقد كنت دائماً كريم الخلق.

شوقي: (مقاطعاً إياها في ارتباك شديد) أوه! أرجوك.. لا داعي لهذا..

ليلى: (مستمرة) وكانت علاقتنا معاً طيبة جداً.. وأنا واثقة من أنه سيصبح من العسير علينا أن نوفق إلى إنسان آخر في مثل صفاتك وأخلاقك.. ولكنك سوف لا تنسانا.. ولو حدث واستطعت موافاتنا بعنوانك فلسوف نستطيع أن نتراسل بين الحين والآخر.

(جرس الباب يدق)

رفيق: من هذا بحق السماء! (يدخل إلى الحديقة).

ليلى: إنها ماجدة على ما أعتقد (تخرج لتفتح الباب).

(يخطو شوقي نحو باب الحديقة ولكنه يجد نفسه قبل أن يدخلها

وجهاً لوجه أمام ماجدة وليلى. ماجدة فتاة ممشوقة الطول، رشيقة، حسنة الوجه دون جمال فاضح).

ماجدة: (وهي تصافح شوقي) كيف حالك؟

ليلى: ما رأيك يا ماجدة، إن أستاذ شوقي سيغادرنا، خمني لماذا!!

ماجدة: ليتزوج.

رفيق: (من عند باب الحديقة) يا للسماوات، مرة أخرى «ليتزوج».

ماجدة: هاللو رفيق! أأنت هنا؟

ليلى: أستاذ شوقي سيسافر إلى الخارج.

ماجدة: يا له من محظوظ.

ليلى: محظوظ، ولكن ليس له عمل هناك!

ماجدة: (مخاطبة شوقي) هل ستهاجر؟

شوقي: نعم، سأرحل إلى أستراليا لأجرّب حظي.

رفيق: أليست هذه حماقة منه؟

ماجدة: أوتظن ذلك؟

رفيق: وماذا أظن، إن كان سيترك وظيفة جميلة ومريحة لدى الشركة، ويندفع هكذا نحو مكان مليء بالمستعمرات يزخر بالعمال وفيه بطالة.

ماجدة: (مخاطبة شوقي) أستذهب حقاً معتمداً على حظك؟

شوقي: نعم.

ماجدة: ما أجمل هذا.

ليلى: ولكن.. يا ماجدة، فكري في المخاطرة.

ماجدة: لا يهم.. فهو رجل.

ليلى: لو أنه كان عاطلاً، لاختلف الأمر.

ماجدة: على العكس، فذلك يفقد المغامرة رونقها، إنني معجبة بشجاعته.

ليلى: إنه لا يعول أحداً على كل حال، وهو وحده الذي سوف يعاني.

ماجدة: إنني أراك غير مشجعة يا ليلى.. لقد سمعت عن رجل متزوج قام بنفس المغامرة.

رفيق: (متلهفاً) من هو هذا الرجل؟

ليلى: رجل أحمق.

ماجدة: ولكنه لم يكن يجد عملاً.

ليلى: إن الأمر هنا يختلف، ومع ذلك فحتى إذا..

ماجدة: لقد ذهبت زوجته وأقامت مع أسرتها. ورحل هو إلى المستعمرات حيث أعد لها بيتاً.

ليلى: (في شك) وكيف استطاع أن يفعل ذلك؟

ماجدة: لا أعرف.. إنك غير مقيد بأحد يا أستاذ شوقي. وأنت حر نفسك.. أليس كذلك؟ ترى ما هو إحساسك حيال ذلك..؟

شوقي: إن الفكرة لم تراودني إلا أخيراً جداً، وما إن طرأت على ذهني حتى قررت الرحيل.

(رفيق الذي ظل ينصت إلى ما يجري من حديث، يتحول الآن ببطء، مبتعداً عنهم).

ماجدة: أنت سعيد الحظ لاكتشافك الفكرة في الوقت الملائم.

شوقي: في الوقت الملائم..؟

ماجدة: قبل أن يتقدم بك العمر ولا تستطيع أن تفعل شيئاً.

(فترة سكون)

رفيق: (متحدثاً إلى أحدهم في الطريق وهو واقف في الباب المؤدي للحديقة) تسلّق السور، ثم ضع قدمك على غطاء صندوق القمامة وتأكد وأنت تفعل ذلك أن الغطاء، محكم الغلق).

شوقي: (مخاطباً ماجدة وليلى) إنه شفيق سأترككم (يخرج).

(شفيق يدخل من باب الحديقة، وهو رجل ضخم، أشقر، حليق الوجه، كسول، ولكنه طيب القلب، ويتبعه رفيق).

شفيق: لقد كدت أهشم زوجك يا مدام ليلى وأنا أقفز من سور الحديقة، ودست فوق بعض النباتات فقتلتها تماماً.

رفيق: إذا لم تقتلها أنت فسوف تقتلها العصافير، وإذا لم تقتلها العصافير، قتلتها الحشرات والديدان.. أو تظن أن شيئاً ما يمكن أن ينمو في هذه الحديقة؟

شفيق: لماذا؟ إنها حديقة صغيرة رائعة.. كيف حال الجزر..؟

رفيق: جزر! أي جزر؟ لم يبق سوى أن تقول كيف حال الخوخ أيضاً! هيا.. هيا يا أستاذ شفيق. إن الأوراق في الحجرة المجاورة (رفيق يزيح الستار وينفذان إلى الحجرة الأمامية).

ليلى: أخشى أن يكون رفيق مرهقاً، فهو اليوم متوتر الأعصاب.

ماجدة: وأنا أيضاً متوترة الأعصاب منذ عدت من عملي إلى المنزل (ترفع ذراعيها وهي تبتسم في وجه ليلى) سأظل شهراً أو شهرين لأذهب إلى المتجر يا ليلى.

ليلى: (في انفعال) هل أزمعت الزواج من الأستاذ فريد؟

ماجدة: (تومئ برأسها).

ليلى: أوه ما أجمل ذلك وما أجدرك بالزواج! إنني سعيدة جداً يا عزيزتي.. وماذا قالت أمنا.

ماجدة: تكاد تطير فرحاً.

ليلى: كل شخص سيطير فرحاً.. بالطبع يا عزيزتي. لا شك أنك متيمة به.

ماجدة: كلا.. لست متيمة به.. تماماً.

ليلى: (في دهشة) ماجي.

ماجدة: (وهي تروح وتغدو في عصبية) والآن.. ها قد تحوَّل الموقف ليصبح مضحكاً، لم أقصد ما قلت، لقد خرجت الكلمات مني عفواً (فترة سكون) ما أغرب ذلك! (فترة سكون أخرى) حسناً.. إنها الحقيقة على كل حال أو لعلها نصف الحقيقة على الأقل.. إنه لطيف.. (في ضجر وحده) ماذا دعاك إلى إثارة هذا الموضوع يا ليلى؟

ليلى: (في هدوء ورقّة، وهي تأخذ قبعة أختها ومعطفها) إنك مرهقة بعض الشيء يا عزيزتي.. وسنتناول الآن قدحاً من الشاي.. هل حصلت على خاتم الزواج؟ (ترفع ماجدة يدها اليسرى) ما أروعه! إنه من الياقوت الأزرق لا بد أنه ثري يا ماجي.

(فترة سكون)

ماجدة: كنت أود لو أنني ملمّة جيداً بالأعمال المنزلية يا ليلى.

ليلى: سرعان ما سوف تلمّين بكل شيء يا عزيزتي.. ومع ذلك فإن مدبرة منزله السابقة لم تكن ماهرة تماماً.

ماجدة: ليس هذا ما أعنيه ولست أفكر فيه.

ليلى: ولكنك تحدثت عن أعمال المنزل، يا عزيزتي.

ماجدة: لو كنت أجيد الطهو، لتركت المتجر منذ وقت.

ليلى: ولكنك ستتركينه بعد أن تتزوجي.

ماجدة: لو كنت أجيد أعمال المنزل الأخرى.. ولكنني لا أصلح لمساعدة إحدى ربات المنازل إلا إذا كنت أعرف كيف أغسل الملابس.

ليلى: لست أفهم ما تقصدين يا ماجي.. إنك لن تطالبي بغسيل أية ملابس. والأستاذ فريد كما نعرف جميعاً رجل ثري، ولسوف يرسل بالملابس جميعاً لتغسل خارج المنزل (تتنهد حسداً) ما أجمل أن يستطيع المرء أن يغسل ملابس الأسرة خارج المنزل.

ماجدة: (فجأة) سمعت منذ أيام أن فتاة اسمها سعاد جمال.. إنك تعرفينها.. سمعت أنها رحلت إلى كندا.

ليلى: كندا!! لم نكن نتحدث عن كندا، وما صلة ذلك بأمر زواجك؟

ماجدة: إنني حسدتها.. لقد كنا زميلتين في المتجر.

ليلى: (في صبر نافد) أجل أعلم أنكما كنتما زميلتين.. حسناً.. قد ضمنت لنفسك مستقبلاً أفضل من مستقبلها بكثير يا ماجي، إن كانت قد سافرت إلى كندا.. إنها لن تعمل هناك سوى مجرد خادمة في منزل، وماذا عساها تستطيع أن تعمل غير ذلك؟ وستتزوج في نهاية المطاف أحد الفلاحين وتظل بعد ذلك تشقى طوال حياتها وتكدح، لقد سمعت عما يصيب النساء اللاتي

يذهبن إلى هناك، وكم كنت أود لو أنها لم تغادر البلد... بينما.. ها أنت على وشك أن تتزوجي من رجل ثري يعبدك عبادة، ولسوف تعيشين في ترف ورغد.. وتكون لك خادمتك الخاصة.. الحقيقة يا ماجي..

ماجدة: (تنفرج أساريرها قليلاً، وتبتسم) إنها فعلاً حياة فاخرة.. (كمن تعود إلى نفسها) حسناً.. ربما أكون قد تأثرت بما سوف يقدم عليه أستاذ شوقي.. ما كان يجدر به أن يسمح لتلك الأفكار الجنونية أن تستولي على عقله.

ليلى: إنه مجنون حقاً.. وإلا لما ألقى في البحر بوظيفة ممتازة مثل وظيفته، وأقول لك يا عزيزتي ببساطة إنه.. رجل غبي.

رفيق: (وهو يزيح الستار متقدماً ومعه شفيق) لا حاجة بك إلى الانصراف سريعاً هكذا.

شفيق: كلا.. سأنصرف.. إن زوجتي غائبة هذه الأيام، وقد تركتني وحيداً، وسأبقى حتى تعود، أرملاً مسكيناً ونسياً منسياً!!!

ليلى: (ضاحكة) أوه! أيها المسكين أستاذ شفيق.

شفيق: لقد فكرت في أسعد ما يمكن أن يحدث لرجل أيتها الآنسة ماجدة.

ليلى: كلا.. ليس الزواج هو سبب مغادرته لنا.. إنه سيسافر إلى الخارج.

شفيق: هل نزلت عليه ثروة من السماء؟

ماجدة: كلا.. سيذهب ليجرّب حظه.. سوف يهاجر.

شفيق: ما أحمقه! لا بد أنهم فصلوه؟

ماجدة: كلا.. إنه هو الذي ترك وظيفته.

شفيق: يترك وظيفة دائمة ذات معاش.. كوظيفته؟ يا إلهي، إنه حمار.. حمار غبي! وهل من المعقول أن ألبي دعوتكم من أجل أن أشرب نخب.. حمار؟

ماجدة: تستطيع أن تحضر.. وتنشد لحناً جنائزياً إذن!

شفيق: في الغالب ما سوف أفعله.. ولكن دعونا نتحدث جدياً.. أحقيقة قد ترك وظيفته وأزمع الهجرة؟ لا شك أنه قد عثر على عمل له هناك؟

رفيق: أبداً.. كل ما في الأمر أن معه مبلغاً بسيطاً قد أدخره، فهو رجل مستقيم ومقتصد.

شفيق: هو إذن على وشك أن يلقي بهذا المبلغ في الهواء.. ولا شك عندي في أنه لن يجد عملاً هناك، خصوصاً وأننا ما برحنا نسمع عن البطالة في المستعمرات! إن مثله مثل من يصعد سلماً خشبياً بنجاح، ثم لا يلبث بعد أن اقترب من القمة أن يترك السلم ويركله بقدمه عامداً متعمداً.

رفيق: لست أوافقك على ما تقول.. إنني أعتقد أنه سعيد الحظ لأنه يستطيع أن يفعل ما يحلو له، كما أنه على شيء من الشجاعة.

ليلى: ما هذا يا عزيزي؟ لقد ذكرت قبل الآن أن تصرفه يتسم بالحماقة.

شفيق: (مخاطباً ليلى وهو يضحك) احذري يا مدام ليلى ولاحظي زوجك جيداً.. حتى لا يفر هارباً (مخاطباً رفيق) والآن.. إلى اللقاء يا صديقي، سأعود إليكم الليلة، وما عليك إلا أن تذكرني بطرقة أو طرقتين على الجدار، فأقفز إليكم من فوق السور وستندم فيما بعد

على نباتات الفول التي أدوسها بقدمي كلما قفزت (يخرج من باب الحديقة) (فترة سكون يتبعها صوت شيء يتحطم).

شفيق: (صوت) (آتياً من بعيد) لقد هشمت صندوقاً مليئاً بثمار الطماطم! (ليلى وماجدة تضحكان وتخرجان إلى الحجرة الأمامية) (يتجه رفيق إلى المدفأة، ويظل واقفاً وهو يتأمل شارداً في النار).

(يدخل شوقي)

شوقي: أنا ذاهب الآن إلى محلات.. ألا تريد شيئاً؟ لا شك أن شفيق لديه شيء كان يقوله عني؟

رفيق: لا شيء.. هو فقط لا ينوي أن يرحل معك (شوقي يضحك) لا يبدو عليك أنك تعرف كل شيء عن خطتك.. ولكن أظنك قد قررت أية مدينة سوف تقصد.. أهي سيدني؟

شوقي: كلا.. برسبين (يسحب خريطة من جيبه) الرجل الذي أعرفه ينوي تربية الماشية، انظرا (يفرد الخريطة فوق المائدة وينحني كلاهما فوقها وغليون رفيق المطفأ لا يزال في يده) سنتوجّه أولاً إلى برسبين، ثم نأخذ هذا الطريق (يشير إلى الخريطة بإصبعه ونعبر كوينزلاند، ثم نستمر في طريقنا إلى مارونوا حيث نقصد إلى قرية صغيرة اسمها يتراموا.. ومع ذلك فإنني لا أضمن شيئاً.. وقد لا أحصل على عمل.

رفيق: (وهو منهمك تماماً ويكاد يكون راقداً لفرط اهتمامه فوق الخريطة) أنت لا تهدف إذن إلى زراعة الفاكهة، إن زراعة الفاكهة هي أقرب إلى ميولي ومعلوماتي من تربية الماشية.

شوقي: كلا.. لا أفكر في الفاكهة.. إن كان ذلك هو ما يستهويك، فانظر

هنا إلى هذه المنطقة.. إنها بقعة طيبة وملائمة لذلك. ولقد سمعت أن رجلاً قد مارس زراعة الفاكهة بها ونجح، والوصول إليها يكون عن طريق الإبحار إلى سيدني أولاً.. إنها منطقة تزخر بالكروم وكل أنواع الفاكهة الأخرى التي تشدك زراعتها..

رفيق: أجل، أو قد يسلك المرء هذا الطريق (مشيراً إلى مكان في الخريطة بطرف غليونه).

(يسمع صوت ليلى وهي تنادي قائلة «رفيق» فيعتدل شوقي واقفاً).

ليلى: (تدخل ضاحكة) رفيق ماذا تفعلان؟

(يقفز رفيق منتصباً ويطوي شوقي الخريطة) هل تفحصان الخطة.

شوقي: سأنصرف (يخرج).

ليلى: هل انتهيت من أعمال الحديقة يا عزيزي؟

رفيق: (وهو يرتدي سترته) لا أشعر بميل للعمل بها.

ليلى: (وهي تقدّم إليه إحدى الصحف) انظر هنا يا عزيزي، إن ما جاء بها قد يلائمنا.

رفيق: ماذا جاء بها؟

ليلى: إعلان.. (تقرأ) «شاب يبحث عن إقامة كاملة مع أسرة في مكان هادئ قريب من المدينة. ويفضل الضواحي الغربية» ينبغي أن أرد على هذا الإعلان.

رفيق: انتظري أولاً رحيل شوقي.

ليلى: إن رحيله مؤكد يا عزيزي. وليس في الرد على الإعلان ضرر ما. علاوة على أنها فرصة طيبة قد لا تصادفنا مثلها فيما بعد. ونستطيع

أن نطلب من الأستاذ شوقي شهادة يثبت فيها، كالمتبع، مزايا المسكن الذي سيغادره نطلع عليها المستأجر الجديد.

رفيق: (في حدة) كلا.. لا تفعلي، إن في استطاعتنا ولا شك أن نعيش بمفردنا أسبوعاً أو نحوه.

ليلى: نعم في استطاعتنا طبعاً، ولكنني ظننت فقط أن هذا الإعلان فرصة لا ينبغي أن تفوتنا.. إنك على ما يبدو لا تود رحيل شوقي يا عزيزي؟ إن صحبته تروقك وتسليك.

رفيق: إنه شخص لطيف.. ولكن ليس معنى ذلك أن تفرضي علي مستأجراً آخر بحجة تسليتي.

ليلى: (ضاحكة) ما هذا الذي تقول؟ طبعاً لا.

رفيق: (يتقدم نحوها ويمسك بوجهها ناظراً في عينيها) أقول يا ليلى.. ألا تشعرين بالضجر؟

ليلى: كلا.. لا أكاد أشعر بأي ضجر.. فأمامي دائماً ما أفعله.. يا له من سؤال.

رفيق: ألا ينتابك الملل.. وتضيقين أحياناً بالحياة هنا؟ إنك تقومين معظم الوقت بأعمال شاقة (يتناول يديها ويتأمل فيهما. يربت عليهما لاشعورياً) يا إلهي! لقد أصبحتا خشنتين (يبعد يديها عنه في رفق).

ليلى: إنه الغسيل يا عزيزي.. الذي يسبب ذلك.

رفيق: (يتناول يديها مرة أخرى ويقبّلهما) لم تكونا خشنتين عندما تزوجنا.

ليلى: (وهي تشيح عنه في شيء من الخجل) طبعاً، أيها الولد الأحمق،

لم تكونا كذلك، فلم أكن أمارس الغسيل في بيت أبي. ما رأيك يا عزيزي؟ إن ماجدة ستتزوج.

رفيق: (دون اهتمام) من فريد؟

ليلى: نعم.. أليست محظوظة؟ إنه ثري جداً.

رفيق: إذن فلن تقوم بالغسيل.. هه! لن يأتي يوم أصبح فيه ثرياً.

ليلى: ولكنك ستصبح رئيس قسم.. ذات يوم.

رفيق: .. ذات يوم.

ليلى: وعند ذلك ستصبح لدينا خادمة.

رفيق: قد لا أصير رئيس قسم أبداً.

ليلى: أوه! كلا سوف تصير.

رفيق: لا أشعر بسرور شديد عندما تخالجني الفكرة.. فما رئيس القسم إلا شرطياً يراقب أعمال الموظفين.. حبذا لو بقيت كما أنا.

ليلى: ولكن.. مركزه أعلى.. ولا تنسَ المرتب أنه أيضاً أعلى بكثير (رفيق يومئ برأسه في اكتئاب) أين طموحك أيها العزيز...؟

رفيق: (وهو يتجه نحو باب الحديقة) إن طموحي على ما يرام.. لا تخافي.. فلن أفقده. إن الرجل الذي بنى المساكن على جانبي الطريق (يشير إلى الخارج خلال باب الحديقة) يستحق الشنق.

ليلى: إنها ليست جميلة.. لقد ذكرت لي نادية هذا الصباح أنهم سيرفعون إيجار مسكننا والمساكن المجاورة ارتفاعاً بسيطاً.

رفيق: (ملتفتاً نحوها في انزعاج) ماذا؟ إنهم يلجأون إلى ذلك بسبب ما فعلته الحكومة من تخفيض الأجور.. هذا ما كنت أتوقعه.

ليلى: لقد خطر لي هذا الصباح يا عزيزي، أننا ربما استطعنا أن نحظى بمستأجرين، بدلاً من مستأجر واحد لنتمكن من تحسين أحوالنا المالية بعض الشيء.. وتلك الحجرة الصغيرة الخلفية التي تقع فوق حجرة الغسيل يمكن تنسيقها وتزويدها بسرير للنوم.

رفيق: ولكنني احتفظ فيها بأدواتي وأشيائي.

ليلى: نعم يا عزيزي.. أعرف.. في استطاعتنا الاحتفاظ بأشيائك في مخزن الفحم، فإن فيه براحاً كافياً.

رفيق: لا أريد الاحتفاظ بأشيائي في مخزن الفحم.. وهل من الضروري أن يكون لدينا مستأجران؟

ليلى: سيرفع ذلك من دخلنا.

رفيق: ولكن ملء المنزل بطائفة من الغرباء أمر بغيض... ولا أخاله يروقك.. هل يروقك؟

ليلى: كلا يا عزيزي.. طبعاً لا.

رفيق: ولكن.. لا يبدو عليك أنك متضايقة من ذلك.

ليلى: إن الضيق لن يجدي شيئاً يا عزيزي.. وإذا كانت الضرورة تدعونا إلى تأجير مكان أو أكثر في منزلنا، فلنفعل ذلك بسرور ورضاء.

رفيق: سرور ورضاء؟ (في شراسة) كان الأجدر بك أن تشعري بالغيظ والكدر.

ليلى: (محاولة أن تحتفظ بصبرها) أنا لا أحب طبعاً هذا يا عزيزي، وكنت أفضل كثيراً لو كنا بمفردنا، وأن نحتفظ ببيتنا كله لنفسينا.. ومع هذا فالمستأجرون، لا يسببون في الحقيقة إزعاجاً كبيراً فهم طوال اليوم خارج المنزل، ويعودون ليلاً في وقت متأخر، وكل ما في الأمر أنهم يتناولون وجباتهم معنا.

رفيق: ومن ذا الذي يريدهم أن يتناولوا وجباتهم معه؟ إن كان ذلك يروقك. . . فهو لا يروقني.

ليلى: (في تأثر) أنت شديد القسوة. . . لأنني لم أقل لك مرة واحدة إنني أريدهم. . . وكل ما في الأمر أنني أسعى جاهدة لتيسير معيشتنا، وكان الأخلق بك مساعدتي. (تشيح عنه).

رفيق: (يبادر إليها ويربت على يدها) ستهدأ أعصابي فيما بعد. . . ولكنني ما زلت أقول إنه أمر لا أستطيع هضمه. وهم يقولون. . «إن منزل الرجل الإنجليزي هو قلعته» وهذا كلام يعجبني. يا إلهي إن المكان الوحيد الذي نستطيع أن نخلو فيه إلى بعضنا، هو حجرة النوم. . ويبدو أننا سنفكر ذات يوم أيضاً في تأجيرها يضحك ساخراً.

ليلى: (وقد صدمت) رفيق، ماذا تقول؟

رفيق: ها. . ها يا لها من مزحة، ومع هذا فاطمئني. . واعلمي أنني يوم نؤجر دورة المياه سوف أبادر بالرحيل. . إلى المستعمرات (يتوقف بغتة عن الكلام، كما لو كانت قد خامرته فكرة).

ليلى: يا لك من صبي أحمق.

رفيق: افرضي أنني فعلت. . هه؟

ليلى: إننا لن نؤجر دورة المياه. . . وعلى ذلك فلا مجال للفرض.

رفيق: (يجلس على ركن من أركان المائدة وهو شارد الذهن ويهمس قائلاً لنفسه): ولم لا؟

ليلى: أتقول شيئاً يا عزيزي؟

رفيق: (مجفلاً) ماذا؟ كلا. . كلا. . لا أقول شيئاً.

ليلى: (تخرج، وتغلق الباب من خلفها).

الفصل الثاني

حجرة الجلوس نفسها، ولكن باب الحجرة الداخلية ذا الضلفتين مفتوح هذه المرة عن آخره، والستائر الحمراء قد أزيحت عنه، وهكذا يمكن للمشاهد رؤية ما يجري في حجرة الجلوس كما يمكنه أن يرى أيضاً جانباً لا بأس به مما يجري في الحجرة الخلفية ومن أثاثها، وقد أضيئت الآن بأضواء قوية، وظهر جزء من البيانو كما ظهر أحد رفوف الزينة وفوقه صور فوتوغرافية وبعض الفازات، وظهرت أيضاً المدفأة، وفوق رفها ساعة رخامية أحدهم يلعب على البيانو وتبدو ليلى واقفة بالقرب منه (من البيانو) وهي تغني في صوت عذب ولكنه ضعيف بعض الشيء، أغنية «غنِّي حتى أنام». حجرة الجلوس خالية. يمكن مشاهدة شفيق مستنداً في الحجرة الداخلية إلى رف المدفأة. تبدو سناء، وهي فتاة جميلة شقراء كثيرة الضحك على كل شيء وأي شيء.. وقد جلس إليها، وعلى مقربة شديدة منها، بهاء، وهو شاب وسيم الطلعة ولكنه هزيل بعض الشيء، في الواحدة والعشرين تقريباً من عمره، بينما وقف شوقي بحذاء النافذة.

يدخل رفيق من الباب الأيمن في هدوء إلى حجرة الجلوس عبر الغناء، يشترك كل فرد في الغناء عندما تأتي ليلى إلى نهاية كل مقطع فيما عدا رفيق الذي يبقى في حجرة الجلوس الخافتة الضوء جالساً على المقاعد

وقد أشعل غليونه، تنتهي من أغنيتها وتجلس وسط تصفيق حاد وسيل من كلمات الإعجاب.

سناء: إني أحب هذه الأغنية حقاً.

بهاء: والآن فلتغن أنت شيئاً.

سناء: (تقهقه ضاحكة) لا أستطيع.. لا أستطيع حقاً أنت تعرف أنني لا أستطيع.

بهاء: بل تستطيعين.. تلك الأغنية الصغيرة اللطيفة، الشبيهة بأغاني الزنوج التي غنيتها ليلة أن كنا في منزل أسرة ريتشارد.

سناء: إني مصابة ببرد.

ماجدة: (وهي تترك العزف على البيانو مبتعدة عنه) أجل إنك مصابة ببرد حقاً.

سناء: (ضاحكة) إنها الحقيقة.. مصابة ببرد فعلاً علاوة على أني لا يمكنني الغناء بعد مدام ليلى.

ليلى: سناء، أرجو أن تغني من فضلك.

شفيق: نحن جميعاً في الانتظار.. يا آنسة سناء.

سناء: أوه من فضلك.. لا يمكنني.. دعوا أحداً غيري يغني قبلي.

(ماجدة توليهم ظهرها وتقبل نحو حجرة الجلوس التي يجلس فيها رفيق فتلمحه، وتدخل إليه، بينما سناء ما زالت تمتنع عن الغناء، وليلى وشفيق وبهاء يرجونها).

ماجدة: أنت هنا.. بمفردك؟

رفيق: هه!

ماجدة: ماذا بك؟

رفيق: لا شيء.

ماجدة: لماذا لم تحضر إلى الحجرة الداخلية؟

رفيق: أستطيع أن أسمع جيداً من هنا. أشعر ببعض الصداع وأحاول أن أصرفه بالتدخين.

ماجدة: كلا، ليس الأمر أمر صداع.. وإنما هو رحيل شوقي.

رفيق: (متضايقاً) لست حزيناً من أجله.. إن كان هذا ما تقصدين إليه.

ماجدة: لم أقل هذا... هل ضقت بكل شيء؟؟

رفيق: ضقت؟؟ إن في وسعي أن أتخلص من كل هذه الحياة المضجرة منذ الغد إذا.. (يكف فجأة).

(يسمع صوت ليلى من الحجرة الأخرى بوضوح).

ليلى: حسناً.. سنطلب من الأستاذ شوقي أن يغني أولاً.

سناء: أوه.. لا أستطيع حقاً أن أغني.

رفيق (في مضض): لماذا لا تغني الفتاة ما داموا يطلبون منها ذلك؟

ماجدة: تقول إنها مصابة ببرد (تضحك ضحكة قصيرة).

رفيق: هراء! إني أسمي ذلك تصنيعاً.

ماجدة: إن بهاء غارق لأذنيه.. ألم تلاحظ؟

رفيق: (في دهشة) معها؟

ماجدة: طبعاً.. إن ليلى هي التي جمعت بينهما.

رفيق: ولكنه لم يزل صغيراً.

ماجدة: في الواحدة أو الثانية والعشرين.

رفيق: وهل هذه سن يتزوجون فيها؟

ماجدة: كثيرون من الرجال يتزوجون في هذه السن.

رفيق: إنهم حمقى، يكبلون أنفسهم وهم لم يروا شيئاً بعد في هذا العالم.

ماجدة: (وهي تفكر) لست أفهم.. ولن أفهم ما الذي يدعو أي رجل إلى الزواج؟ أليست الفرصة متاحة أمامه عن آخرها لكي يرى كل شيء في العالم.. ولكي يفعل ما يشاء؟.. ولكنه يترك كل ذلك ويتزوج، وينتهي كل شيء ويصبح رب أسرة قبل أن يبلغ الرابعة والعشرين..

رفيق: التقاليد.

ماجدة: لو كنت رجلاً.. ما بقيت في إنجلترا أسبوعاً واحداً. ولظللت أجوب العالم طوال حياتي.

(يتململ رفيق في مقعده، ثم يقوم فيذرع الحجرة ذهاباً وإياباً، وتمضي ماجي في حديثها) لو كنت رجلاً..

رفيق: (مقاطعاً إياها) الرجال لا يستطيعون أن يفعلوا كل شيء.

ماجدة: أقول.. أليس مما يدعو إلى الإعجاب ألا يلقي أستاذ شوقي بالا إلى شيء.. وأن يقوم بهذه المغامرة؟

رفيق: لو كنت مكانه.. لفعلت نفس..

ليلى: (تقترب من الباب الذي بين الحجرتين ويسمعان صوتها) أين رفيق؟ أراهن أنه قد أشعل مصباحاً وراح يبحث عن الحشرات

والديدان التي تؤذي ما زرعه.. مستعد الآن للغناء يا أستاذ شوقي..؟

ماجدة: إني أتساءل.. عما قد تفعله ليلى.. لو أنك..

رفيق: (يعتريه الاضطراب ويمعن النظر في وجه ماجدة) لو أني ماذا؟ عما تتحدثين؟

ماجدة: ولماذا لا تفعل مثل شوقي؟

رفيق: أفعل مثل شوقي؟؟ أليست هناك آلاف الأسباب التي تمنعني؟

ماجدة: هناك ليلى بالطبع.. ولكن..

رفيق: إنها لن تفهم إذا ما حذوت حذو شوقي.. ستعتقد أنني هجرتها.

(فترة سكون)

ولكن.. ثمة أشياء أخرى.. إنني قد أستطيع إقناع ليلى.. غير أني أشغل وظيفة جيدة.. وظيفة تضمن لي الآمان حتى آخر العمر.. فهل ألقي بها ببساطة في البحر؟ ثم إن هناك أفراد أسرتك وما سوف يقولونه.. سيقولون إنني فررت من ليلى.. وسيبدو الأمر طبعاً كما لو كنت قد فررت منها فعلاً.. (يشرع شوقي في غناء أنشودة «فلنرحل إلى الدار البيضاء») (فترة سكون أخرى).

إنها مغامرة مستحيلة.. وقد لا أجد هناك عملاً.. فماذا يكون موقفي..؟ (تغطي على صوته أصوات الموجودين في الحجرة الأخرى وهم يرددون وراء شوقي مقطعاً يقول «ومعي حقيبتي مشدودة إلى ظهري»).

(طرقات على الباب الخارجي للمنزل).

ماجدة: أظن أحدهم يطرق الباب (تخرج من الباب الأيمن، ويتوقف رفيق عن السير في الحجرة، ويجلس على حافة المائدة، منصتاً إلى الغناء. تعود ماجدة بعد أن فتحت الباب يتبعها كمال. وهو رجل متوسط العمر، قصير القامة ونحيف، ذو تصرفات هادئة، تنعكس عليه صورة من صراع الأيام فهزمته.

ماجدة: لم يكن أستاذ كمال يريد الدخول عندما سمع صوت الغناء.. لقد ظن أن لدينا حفلاً..

(تدخل الحجرة الأخرى).

رفيق: كلا.. ليس لدينا حفل أو شيء من هذا.. إن أفراد الأسرة ينشدون بعض الأغاني..

كمال: لقد أصرت آنسة ماجدة على أن أدخل.. والواقع أنني أفضل الحضور في وقت آخر..

رفيق: هراء! تفضل بالجلوس.. سوف أسدل الستائر إن كان ثمة شيء خاص قد جئت من أجله.. أرجح أنك جئت بشأن شتلات زهور الجيرانيوم.. حسناً.. سننتهي من هذا الأمر.. ثم ننضم إليهم بعد ذلك إن لمست في نفسك الرغبة في ذلك (يسدل الستائر ويشعل الضوء في الحجرة.. أليس كذلك؟ إنه سيرحل ليجرّب حظه في المستعمرات.

كمال: حقاً؟

رفيق: نعم.. ولسوف نشرب بعد قليل نخب صحته بمناسبة رحيله.. ماذا لديك من أنباء؟

كمال: لم أشاهدك اليوم في القطار.

رفيق: أجل، فقد تأخرت عن ميعادك، أنا ورضا عدنا سوياً.

كمال: لقد أرسل رئيس القسم في طلبي.

رفيق: بشأن العلاوة.. في؟

كمال: وهل تبدو علّي صورة من حصل على علاوة؟ إن الأمر على العكس من ذلك.

رفيق: هل أوقفوا العلاوات؟

كمال: (يومئ برأسه ويتحدث ببطء) قال لي إنه قد طلبني بصفتي أقدم موظفي القسم، وأوضح لي أن الشركة تعاني هذا العام مالياً.. وإنهم لا يستطيعون منح الموظفين علاواتهم الاعتيادية.

رفيق: أو سيحرمون الجميع؟

كمال: الجميع.. ألم يصلك خطاب من الشركة؟

رفيق: كلا.. لماذا؟ هل استغنوا عني؟

كمال: كلا.. لا شيء من ذلك، ولكنهم سيعرضون عليك نفس ما عرضوه علي.. أن تقبل البقاء في الشركة مع تخفيض مرتبك.. أو ترحل.

رفيق: (يعود إلى السير في الحجرة ذهاباً وإياباً) وماذا عساك أن تفعل؟

كمال: ماذا عساي أن أفعل؟! سأبقى طبعاً أهناك شيء غير ذلك؟

رفيق: أستخضع لهذا الإجحاف؟

كمال: وهل ثمة حل آخر؟

(يسمع صوت ساعي البريد وطرقاته).

رفيق: إنه ساعي البريد.. انتظرني لحظة.

(يخرج من الباب الأيمن ويعود بعد لحظات وفي يده خطاب. يغلق الباب).

رفيق: ها هو الخطاب (يفتحه وبقوة ثم يلقي به فوق المائدة).

كمال: إنها صدمة..؟

رفيق: إنني.. لم أكن أتوقع ذلك.. هل كنت تتوقعه؟

كمال: لم أكن أتوقع شيئاً كهذا.. لغاية الأسبوع الماضي. وعندما بدأ ممدوح أبحاثه في مراجعة المهايا والمرتبات.. أدركت أن في الأمر شيئاً.

رفيق: ألا نستطيع أن نفعل شيئاً؟

كمال: كلا بدون شك.

(يفتح الباب وتنفرج الستائر عن ليلى)

ليلى: رفيق أأنت هنا؟ هل ستبقى إلى الأبد بمفردك دون أن تنضم إلينا.. من؟ أستاذ كمال.

(ينهض كمال واقفاً ويتصافحان).

كمال: مساء الخير.. أخشى أن أكون قد ضايقتكم في وقت غير ملائم.. ولكنني أردت مقابلة زوجك لبعض أمور تتعلق بالعمل.

ليلى: سوف تبقى لتشاركنا طعام العشاء.. ويمكنك أنت ورفيق أن تتحدثا إلى ما شاء الله في العمل طوال الوقت.. إن رفيق لا يميل كثيراً إلى الموسيقى... أليس كذلك يا عزيزي..؟

رفيق: أميل أحياناً إليها.

ليلى: ليتكما سمعتما أستاذ شفيق وهو يزوّد أستاذ شوقي بنصائحه حول ما يفعله عندما يصبح وحيداً وأعزب في أستراليا.. لقد جعلنا جميعاً نقهقه ضاحكين.

(تعود إلى الحجرة الداخلية وهي تضحك)

رفيق: يا له من حمار غبي.

كمال: (مجفلاً) ماذا؟

رفيق: ذلك الرجل شفيق! لو أنه ذهب إلى أستراليا لفترة من الوقت لصلح شأنه.. إنه من النوع الذي يظل متشبثاً بوظيفته.. حتى لو خفضوا مرتبه إلى شلنات.. فهو لا يملك ذرّة من الأنفة أو الكبرياء.

كمال: حسناً.. إننا. أو أنا على الأقل سأقبل البقاء في الشركة.. وأنت أيضاً على ما أعتقد..

رفيق: (متحدياً) وما الذي يدعوني إلى البقاء؟ أو يحول دون تركي لهم. لماذا لا أذهب إلى ممدوح وأواجهه قائلاً: «اصغ إلي! قل للمسؤولين في الشركة إنني، ببساطة، لن أخضع لهم! وإنني لن أقبل أن يرتفع مرتبي وينخفض، أو أن آخذ هذا أو ذاك.. طبقاً لمشيئتهم.. وبحسب أهوائهم».

(تدوي أصوات ضحكات صاخبة في الحجرة الأخرى).

كمال: كل هذا جميل.. ولكن.. ألديك عمل آخر في انتظارك..؟

رفيق: (في حدة) كلا.. بل إنه ليست لدي أية فكرة عن عمل آخر.

ولكن هل يكون هذا مبرراً لكي أرضخ لهم وأبقى في الشركة..؟ أنظر إلى شوقي.. لقد ركل وظيفته بقدمه دون أن يخفض أحد مرتبه.

كمال: (في هدوء) شوقي؟ آه.. قلت لي إنه سيرحل إلى المستعمرات. مغامرة خطيرة. لقد أوشكت ذات مرة. أنا نفسي أن أذهب إليها.

رفيق: وما الذي منعك؟

كمال: أشياء عديدة.. وقد أبدى جميع أهلي ومعارفي معارضتهم للفكرة، ومع ذلك فأي فائدة كنت سوف أجنيها لو رحلت؟ لقد كانت نزوة عابرة على ما أعتقد. إن المرء إذا ترك عمله في هذه الأيام فإن الحظ لن يسعفه للحصول على عمل آخر.. فالناس قد زاد عددهم.

رفيق: لا شك أن البقاء أأمن.. وأنه عين الحكمة.. ومنتهى العقل.. إلى غير ذلك من تلك الألفاظ التقليدية.. ولكنني أراه جحيماً.

كمال: لقد انتابتك الفكرة فجأة، كما شعرت أنا من قبل (يضحك ضحكة صغيرة) ولكنك لن تلبث حتى تهدأ وتصرف النظر عنها.. تماماً كما حدث لي. إنك ما زلت صغيراً، وستدرك كل شيء بعد زمن قصير. (يتنهد) حسناً.. هكذا شاءت الظروف (فترة سكون) ولكنني كنت أنتظر العلاوة بفارغ الصبر.. فالأمر بدونها يختلف. (يشد قامته ويجمع شتات نفسه) ومع ذلك فإنه لا مفر من الرضوخ، فما زلنا نعمل ونحصل على مرتباتنا.. وما زلنا في مأمن من الفقر، وهما أمران يتمناهما كثيرون من الناس، يؤسفني أنني قمت الليلة بزيارتك يا رفيق..

(يسمع صوت شفيق وهو من يطلق حنجرته أغنية فكاهية فيبتسم) يبدو أنه لا يحمل للدنيا هماً.

رفيق: ألا تنوي البقاء لتناول العشاء؟

كمال: كلا.. شكراً لست الليلة في حالة تجعلني رجلاً اجتماعياً.

رفيق: (وهو يضحك ضحكة قصيرة) ولا أنا.. أيها الصديق.. والحقيقة أنني.. منذ قبل حضورك أعاني انخفاضاً في معنوياتي.

كمال: حالة بسيطة من القلق وستزول بعد قليل. طالما انتابني مثل هذا الشعور فيما مضى. (يخرجان).

(تنفرج الستائر عن آخرها ويدخل شفيق ومعه بهاء).

شفيق: عفواً إن كنا سنقاطعكم (يتلفت حوله فلا يجد أحداً).. الحجرة خاوية على عروشها (ويعود رفيق بعد تشييعه لكمال) أين من كنت تتحدث معهم في العمل؟

رفيق: إنه كمال.. كان هنا، وقد رحل لتوّه.

شفيق: كمال، إنه ليس بالرفيق المرح..

رفيق: (في غضب) لماذا؟ ما الذي يعيبه؟

شفيق: ليس رفيقاً مرحاً.. هذا كل ما في الأمر.

رفيق: إنه متواضع.. وليس كثير الصخب، لقد ذكر لي الآن أنه أوشك ذات مرة أن يهاجر. (يدخل شوقي ويسمع ما قاله رفيق).

شوقي: ولماذا لم يفعل؟

شفيق: ليست لديه الجرأة.. إن الكثيرين غيره طالما فكروا في الهجرة وأوشكوا أن يرحلوا.

رفيق: وأنت..؟ ألم تفكر؟

شفيق: (في حماس) إني مرتاح تماماً حيث أنا. ولقد كنت أقول لصاحبنا هذا (مومئاً إلى شوقي) منذ قليل إنه أحمق.. ولكنه لم يصدقني.. وذكر لي أنه يكون أحمق في المهجر عن أن يكون عاقل في هذه البلد.. ولست أفهم تماماً ما يقصد.. ولكن يبدو لي أن في رده شيئاً من البراعة (متحدثاً بطلاقة وهو يلوح بغليونه وهو يواجه الرجال الثلاثة الواقفين أمامه) ما أكثر ما صادفني من شبان أرادوا الرحيل.. فهذا أبوه يسيء معاملته، وآخر يشكو الفراغ، وثالث تنهش الغيرة قلبه لتصرفات فتاته وتوافه أخرى كثيرة من هذا القبيل.. إذن فينبغي أن يرحلوا وقد عرفت نفراً قليلاً رحلوا فعلاً.. وما أشد ما ندموا، أن أحداً لا يستطيع أن يجد في المستعمرات عملاً. اقرأوا كتب الهجرة.. اقرأوا ما تكتبه الصحف.. فشل على طول الخط والبطالة سائدة. والمستعمرات لا ترحب إلا بذوي رؤوس الأموال. أما أمثالكم.. فليسوا بمرغوبين هناك..

رفيق: ولا مرغوبين في هذه البلدة..

شفيق: طبعاً لا، ولكن (ملوحاً بذراعه في تأكيد).. ولكن.. ها أنت ذاهب.. ولديك عمل، وهذا هو بيت القصيد، إن شعاري هو «تشبث بما بين يديك.. وأبت حيث أنت» إن شوقي حمار كبير إذ يترك وظيفة راقية.. ويستحق الفشل الذي يصادفه.

شوقي: ألم تضق مرة بحياة المكتب يا شفيق؟

شفيق: أبداً.. ولكنني رأيت كثيرين ضاقوا. أؤكد لكم أن من نعم الدنيا

أن يكون لدى المرء في هذه الأيام وظيفة مضمونة، وكم من أشخاص عديدين يثلج قلوبهم أن اختطفوا وظيفة يا شوقي.. أو وظيفتك يا رفيق. في الأسبوع الماضي أعلنت الشركة التي أعمل بها عن حاجتها إلى شخص يؤدي عملاً مؤقتاً بمرتب بسيط، فتقدم خمسمائة وخمسة عشر رجلاً.. خمسمائة وخمسة عشر تصوروا يؤسفني أن أقول ما لا يرضيكما.. ولكنها الحقيقة..

شوقي: ولكن مجال الزراعة مفتوح هناك على مصراعيه.

شفيق: زراعة؟ وما الذي يستطيع موظف محدود أن يفعله بحق الشيطان في مجال الزراعة؟ إنه إذا ما أمسك بفأس سيظنه قلماً.. ويحاول أن يضعه خلف أذنه.. (ينفجر بهاء ضاحكاً) وهو عديم العضلات، إذا ما انحنى انقضم ظهره.

رفيق: كفاك تهريجاً يا شفيق.. من يقول إن شوقي رجل ضعيف؟ ثم انظر هنا (يخلع سترته ويشمر عن ذراعيه مستعرضاً عضلاته) ما رأيك في هذا؟

(ينظر شوقي بإعجاب إلى عضلات رفيق. ويقترب شفيق متحسساً عضلات رفيق بينما ينظر بهاء إلى ما يجري أمامه وهو يبتسم).

شفيق: إنها عضلات صالحة لزراعة حديقة منزلية صغيرة.. أو تظن نفسك خبيراً ضالعاً في الزراعة، لأنك تزرع بعض نباتات البسلة؟

رفيق: (يضع يديه في جيوبه دون أن يعيد، أكمامه إلى ما كانت عليه) لست أظن إطلاقاً أنك اخترت لنفسك شيئاً.. إن أباك هو الذي اختار لك.

بهاء: (لرفيق) أقول.. ما الذي يعيب العمل المكتبي..؟

رفيق: ستعرف بعد أن يزيد عمرك بضع سنوات.

شفيق: إن حمى الأرض والزراعة قد أصابت رفيق. (لرفيق) ابحث لك عن رقعة كبيرة من الأرض فتشفى.. إن حديقتك أضأل من أن تلائمك.. أمعك تلك الخريطة يا شوقي؟

شوقي: إنها في حجرتي.. هيا نصعد إلى الطابق الأعلى.

شفيق: أتوجد مدفأة في حجرتك؟

شوقي: كلا.

شفيق: اصعد إذن إذا سمحت واحضرها وسأنتظر عودتك هنا.

(يخرج شوقي وينهض شفيق فيدخل الغرفة الأخرى).

بهاء: أقول يا رفيق..

رفيق: نعم؟

بهاء: لقد حصلت على ترقية.

رفيق: أهنئك.. ما أحوجني إلى مثلها.

بهاء: أسند فريد إليّ وظيفة كرم.

رفيق: كرم؟

بهاء: استغنوا عنه.. لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة له.. ولكن ما حيلتي؟ أكان في استطاعتي أن أرفض؟

رفيق: أظنهم أسندوا الوظيفة إليك بمرتب أقل مما كان يتناوله؟

بهاء: تقريباً.. ولكنني حزين جداً من أجل كرم، فقد تخطى سن

الشباب، ومن العسير جداً أن يحصل المرء على عمل وهو في منتصف العمر.

رفيق: أعتقد ذلك.. أنت على أية حال محظوظ.

بهاء: نعم.. لقد تمت ترقيتي بأسرع مما كنت أتوقع.

(يجلسان في سكون ويعود شوقي ويتجه إلى الغرفة الداخلية).

أقول يا رفيق.. كيف بدأتما حياتكما..؟

رفيق: هه! ماذا تعني؟

بهاء: أنت وليلى..

رفيق: (متمعناً في وجه بهاء) آه... هذا إذن ما تقصد؟ أنت تعرف مثلي أننا نقيم في هذا المنزل المكون من ثلاث حجرات.

بهاء: وهل الحياة الزوجية مكلفة؟

رفيق: إن عليك أن تراعي الحرص في اختيار شريكة حياتك.. إذ ينبغي أن تكون مدبرة..

بهاء: إذا كنت ستحوّل الأمر إلى مزاح.. فلنكف عن الحديث..

رفيق: لا تكن أحمق.. أنت تتقاضى غالباً بعد ترقيتك تسعين جنيهاً.. وهو مبلغ يساعد على الزواج.

بهاء: أتعتقد ذلك حقاً؟

رفيق: أعتقد هذا من واقع تجربتي.

بهاء: ولكنك لم تسألني عن الزوجة المنتظرة.

رفيق: إنها سناء، وهي فتاة صغيرة جميلة.

بهاء: إنك تجيد التخمين.

رفيق: أنا لم أخمن شيئاً.. لقد قامت كل من ماجدة وليلى بترتيب الأمر..

بهاء: ترتيب الأمر؟

رفيق: عملتا على الجمع بينكما.. قالت ماجدة لي ذلك.

بهاء: (محنقاً) إنهما لم تفعلا شيئاً.. لقد قابلت سناء هنا.. وتعارفنا وارتاح كل منا إلى الآخر.

رفيق: إنها جميلة.

بهاء: نعم.. لها جاذبية غير عادية..

رفيق: كذلك الأخريات.

بهاء: .. ولكن.

رفيق: حسناً ألسن جميعاً جميلات؟ يبدو أنك لن تصغي إلى نصيحة ما.

بهاء: حول ماذا؟

رفيق: أنك أصغر من أن تتزوج الآن.

بهاء: أنا مشرف على الثالثة والعشرين، وقد كنت أنت في تلك السن عندما تزوجت.

رفيق: أجل.. كنت في سن لا ينبغي أن يتزوج فيها المرء.

بهاء: هل تقصد..؟

رفيق: (وقد نفد صبره) أوه لا تبدو هكذا مرتاعاً.. كلا.. أنا لست متضايقاً من ليلى على الإطلاق، والأمر ليس على هذه الصورة بالمرة.. ولكن هل يرضيك أن تبقى موظفاً كتابياً طول حياتك؟

بهاء: أستطيع أن أجزم بأنك متأثر بشوقي..
طبعاً يرضيني أن أبقى موظفاً كتابياً.

رفيق: هل يرضيك ذلك؟

بهاء: قلت إنه يرضيني.

رفيق: ألم تشعر ذات مرة برغبة في أن تركل قبعة العمل السوداء بقدمك.. وتلقي بها في نار المدفأة؟

بهاء: لم يحدث بعد.

رفيق: لم يحدث (بعد).. ها أنت قد فهمتني.. وعرفت أنه سيحدث مستقبلاً، ألم تشعر ذات مرة برغبة في مشاهدة العالم.. ألم يخالجك قط هذا الشعور؟

بهاء: (وهو يفكر قليلاً) مرة واحدة، أردت فيها أن أرحل إلى الخارج مع رأفت.. ولكن أبي لم يوافق. فقد كانت مغامرة لا تطمئن.. ثم حصلت على وظيفتي الراهنة.. وهكذا لم أرحل.

رفيق: وهل عاد رأفت بعد سفره؟

بهاء: كلا... فقد وجد عملاً لائقاً مريحاً.

رفيق: إنهم لا يفشلون إذن جميعاً؟

بهاء: كلا بالطبع.. ولكن عدداً كبيراً منهم يفشل. ربما كنت أحدهم لو رحلت.

رفيق: من رأيي.. لو كنت تفكر في شيء من هذا، أن تبادر بعمله، فالآن هو الوقت المناسب، ولن تستطيع أن تفعل شيئاً بعد،

واقبل نصيحتي فلا تفكر في الزواج الآن، لأنك أصغر من أن تحكم في مسألة هامة كهذه.

بهاء: لست أصغر منك وقت أن تزوجت..

رفيق: لا تكن حساساً هكذا.. ألا ترى أنني إن كنت أتحدث إليك فإنما ذلك لمصلحتك.

بهاء: أظنك قد جننت.

رفيق: (في حدة) لماذا..؟ هل جننت لأن لدي فكرة عما سوف تكون عليه حياتك؟ إني لم أنقطع منذ كنت في السادسة عشرة من عمري عن التردد على عملي في المدينة ذهاباً وإياباً يومياً.. فهل أكون قد جننت إذا ما ألمحت أنها حياة رتيبة نوعاً ما؟ يتقدم نحوه ويضع يده فوق كتفه محدِّثاً إياه في لهجة جدية) أنا لا أجزم بأنها ليست الفتاة التي تلائمك.. ولكني أبدي فقط رأياً بأنها قد تكون كذلك.. إنها جميلة ولكنها في رأيي من النوع السهل المنال...

بهاء: (مقاطعاً إياه) لا أقبل منك هذا الكلام.

رفيق: لا تقبله إذن.. واعتبر نفسك لم تسمعه.. وكل ما في الأمر أن عليك أن تفكر.. وألا تتزوج.. أول فتاة جميلة تصادفك وتعيش في ثلاث حجرات لمجرد أن زوج شقيقتك قد فعل ذلك.

بهاء: لم تكن أول فتاة جميلة صادفتني..

سناء: (تظهر بالباب وعلى فمها ابتسامة محتشمة ولكنها متصنعة) إن مدام ليلى تقول لكما.. ما هذا يا أستاذ رفيق هل تتشاجران؟

رفيق: (يتذكر فجأة أنه لا يرتدي سترته وأن أكمامه مرفوعة) أستميحك العذر (يختطف سترته ويرتديها بسرعة) (مخاطباً بهاء) تذكر ما قلته لك.

بهاء: (وعيناه على وجه سناء) هراء (يخرج معهما إلى الحجرة الأخرى).

ليلى: (مقبلة من الحجرة الأخرى نحو رفيق) سمعت أحداً يتحدث عن «مشاجرة» ما لي أراك هذه الأيام تكثر من الجدال مع كل الناس وتصيح في وجوههم؟ الحق أنك تستسلم للغضب كلما ناقشت أحداً يا عزيزي... ألا تشعر بذلك؟ إن العشاء معدّ وقد أرسلت سناء لتخبرك بذلك.

رفيق: إن سناء تطعم بهاء.. وتبذل كل ما لديها من حيل وحركات متصنعة.

ليلى: يا لك من فظ ألا تعلم أنني غاضبة تماماً منك؟

إنك لم تدخل إلينا في الحجرة الأخرى مرة حتى الآن.

رفيق: كنت مع كمال.

ليلى: نعم رأيته.. إنه خائر تماماً كمن لا حياة فيه ألم تلاحظ ذلك؟

رفيق: قال إنني سأصير مثله بعد سنوات.

ليلى: أية فكرة سخيفة هذه...؟ كيف تتيح لنفسك أن تقول هذا؟

(يتحرك الموجودون وينتشرون في الحجرتين، ويقدم الرجال المشروبات إلى النساء ثم يتقدمون جميعاً إلى الحجرة الأمامية).

ليلى: إنك لم تغنِّ لنا شيئاً يا عزيزي رفيق.

ماجدة: إنه متعب.

ليلى: ليس إلى حد عدم استطاعته الغناء.

سناء: أوه! أرجو أن تفعل يا أستاذ رفيق.. أعرف أن غناءك رائع.. فقد قال لي بهاء.. أقصد أستاذ بهاء ذلك.

بهاء: صه، لا تكشفي أمري.. إنه زوج أختي.

رفيق: ليس الليلة، فحنجرتي ليست على ما يرام.

ليلى: ذلك لأنك تمضي كل الوقت في الحديقة.

شفيق: لا تقولي له هذا يا مدام ليلى، فهو يريد أن يرحل إلى المستعمرات ليمارس الزراعة... وقد يفت قولك هذا في عضده.

ليلى: يا لحماقتك يا أستاذ شفيق (لرفيق) ينبغي أن تتناول شيئاً حاراً عند ذهابك للفراش يا عزيزي.

شفيق: إني أحب دائماً أن أصاب بوعكة خفيفة من المرض لأن زوجتي تحنو علي وقتذاك وتصبح ممرضة رائعة.

سناء: أظن من أجل ذلك تتصنع المرض أحياناً أيها الأستاذ شفيق؟

شفيق: كيف عرفت ذلك؟ حسناً إن النساء لا يتحسسن أزواجهن بأناملهن الرقيقة في أي وقت وبدون سبب.. ولكن إذا أصيب الزوج ببرد خفيف أو سعال، فإن الحياة وقتذاك بهيجة.. إنني كثيراً ما أردد ـ بيني وبين نفسي، هذه الأبيات:

لي زوجة إذا رأتني معافى أشبعتني هجرانا وإجحافا
فإن أصبحت يوماً سقيماً ضحكت وصارت ملاكاً رحيما

سناء: لقد حان موعد انصرافي يا أستاذ رفيق.

ليلى: هل تريدين الرحيل حقاً؟ تعالي إذن لأعطيك حاجياتك.

(تخرجان)

(تسمع صوت طرقات آتية من خارج باب الحديقة فتبادر ماجدة بفتحه)

صوت من الخارج: هل زوجي عندكم يا مدام ليلى؟

شفيق: نعم.. نعم يا حبيبتي.. ها أنذا قادم.

(سناء وليلى تعودان)

شفيق: إن زوجتي قد نادت علي لأعود إلى المنزل.

ماجدة: وهل ستعود قفزاً من فوق السياج؟

سناء: أوه! افعل ذلك يا أستاذ شفيق.. أرجوك. أحب أن أراك وأنت تقفز.

شفيق: ما دام هذا يسرّك فسوف أفعله.. مع أنني لست بارعاً تماماً في القفز من فوق الأسيجة.

(يتزاحمون من حوله، ويصافحهم جميعاً وعلى فمه ابتسامة واسعة ثم يختفي داخلاً إلى الحديقة).

صوت من الخارج: احترس... أمامك أصيص للزهور.. من هنا..

شفيق: (هاتفاً من الخارج) وصلت بسلامة الله!

سناء: أعتقد أنه شخص ظريف.

ليلى: ظريف فعلاً.. هل ستعودين في الأوتوبيس؟

بهاء: إن طريقي هو نفس طريق آنسة سناء.

سناء: (في دهشة متصنعة) حقاً؟

ماجدة: يا لها من مصادفة عجيبة.

(تتبادل سناء القبلات مع ليلى وماجدة وتخرج مع بهاء).

ليلى: إنها لطيبة.. وبهاء غارق لأذنيه.

ماجدة: (وقد بدأتا ترفعان الصحون من فوق المائدة).

.. كما كان مع عايدة وشكرية و.. ما اسم تلك الفتاة ذات الشعر..؟

ليلى: شعر، ماذا تعنين؟

ماجدة: تلك الفتاة ذات الشعر المدلى فوق كل وجهها ويحجب عينها... وهو شعر جميل.

ليلى: آه! فايزة... يا بهاء المسكين! يؤسفني أنه مغرم بعض الشيء بمغازلة الفتيات.

ماجدة: إنه يكرس كل أمسياته لهذه الهواية.

ليلى: ثم يقول الناس من أمثال شوقي إن الحياة هنا مملّة.

ماجدة: حسناً.. أسعدتم جميعاً مساء.. كلا لا تأتي لتوصيلي يا أستاذ شوقي..

شوقي: ولكني مصرّ.. إذا سمحت لي..

ماجدة: أفضّل ألا تفعل.. ومع ذلك فأنت حر إن أردت.. (يخرجان مع ليلى).

(يتلفت رفيق وهو بمفرده حوله ويتنهد في ارتياح. يسير في الحجرة. وينظر إلى الحديقة من الباب الزجاجي، ثم يتناول الصحيفة... ولكنه بعد أن يحاول القراءة عبثاً يلقي بها على الأرض ويحشو غليونه بالتبغ ويشعله).

(يعود شوقي).

شوقي: أقول.. (يتوقف ولكن رفيق لا يتحرك) أقول يا رفيق أنه لم يخطر ببالي أنك ستفكر هذه الفكرة. لقد أعتقدت أنك ستعتبرني غبياً إذا رحلت إلى أستراليا، أجل، ظننتك أنت أيضاً ستراني مجنوناً. والحقيقة أنني كنت أشعر بشيء من الخجل من أن أذكر لك شيئاً عن الموضوع في أول الأمر. ولا لأي شخص آخر. فمعظم الناس لا يعجبهم هذا التصرف كما تعرف. إنني يا رفيق في موقف يبيح لي ما أفعله.. وهم مع ذلك يسمونني حماراً... ثم إنني أمتلك مبلغاً بسيطاً من المال.

رفيق: (بسرعة) إن لدي أنا أيضاً مبلغاً من المال.

شوقي: نعم.. ولكن ظروفي أنا وأنت مختلفة.. فأنا أستطيع مواجهة الصعاب.

رفيق: فلتأت هذه الصعاب وسوف أواجهها.

شوقي: أنت رجل متزوج (رفيق لا يجيب) أنت مستقر، وحولك أقاربك وأصدقاؤك.. أما أنا فليس لدي شيء من ذلك (فترة صمت يدخن كل منهما خلالها غليونه) لا تظل ساهراً وترهق ذهنك في التفكير.. انهض واذهب لفراشك.

رفيق: سأذهب بعد قليل.. قم أنت ولا تنتظرني..

(شوقي يخرج).

(تدخل ليلى وتسدل الستائر وتتأكد من أن مقبض الباب الزجاجي محكم الغلق).

ليلى: إني صاعدة إلى حجرة النوم، لا تسهر كثيراً فالإرهاق بادٍ على وجهك.

رفيق: (متضايقاً) لا تشغلي نفسك بي.. إنني مشغول البال قليلاً.. هذا كل ما في الأمر.

ليلى: (في صوت وديع) هل حمل أستاذ كمال إليك أنباء سيئة؟ كان الحزن عندما رأيته بادياً عليه.

رفيق: (محدقاً في عينيها) نعم.. لن أنال تلك الزيادة التي كنا ننتظرها في مرتبي.

ليلى: يا إلهي! يا لها من خسارة، لماذا يا عزيزي؟

رفيق: لأسباب كثيرة.. وهذا كل ما في الأمر.

ليلى: لك حق فيما يبدو عليك من ضيق. ومع هذا فلنحمد الله أن الأمر ليس أسوأ من ذلك.. كأن استغنوا عنك مثلاً.

رفيق: نعم.

ليلى: أمر محزن.. بعد كل ما خططناه للإفادة من هذه الزيادة. ولكننا سنستطيع أن ندبر أمورنا على أحسن وجه.. أتذكر ما قلته لك هذا الصباح حول المستأجر؟

رفيق: كفّي عن هذا بحق السماء.. ليست النقود هي التي تهمني.. ولكنه الاستسلام هكذا للأمر الواقع.. أريد أن أذهب إليهم وأقول، افعلوا ما شئتم.. ولكن ابحثوا عن أحد غيري.

ليلى: ولكن يا عزيزي.. قد يؤدي ذلك إلى أن تفقد وظيفتك.

رفيق: وسأفقدها.

ليلى: وكيف نعيش إذن؟ نحن الآن نعيش عيشة راضية... وأستطيع أن أدبر كل شيء..

رفيق: لقد ضقت ذرعاً بأن تظل أمورنا على ما هي عليه.

ليلى: وماذا تريد أن تفعل؟

رفيق: أريد الرحيل.. (فترة سكون)

ليلى: وتتركني..؟ إنه ذلك الرجل الفظيع.. أستاذ شوقي.

رفيق: هذا أمر لا دخل له فيه.

ليلى: بل له دخل فيه.. يريدك أن تذهب معه، وأن تريد الذهاب.. هل سئمتني؟

رفيق: (يقترب منها محاولاً أن يتحدث بلطف، ولكن نظراً لأنه في حالة معنوية سيئة فإن صوته يخرج حاداً) يا إلهي! كفّي عن البكاء.. أنت لا تفهمين الموقف.. أصغ إلي يا ليلى.. ما رأيك أن رحلت ثم لحقت بي؟

ليلى: أتريد أن ترحل بدوني؟

رفيق: لا أستطيع أن أصحبك معي يا عزيزتي.. ولكني سوف أرسل في طلبك بعد قليل.. بعد فترة لن تطول.

ليلى: تريد أن ترحل بدوني، لقد مللت الحياة معي..

رفيق: أبداً يا عزيزتي.. كفّي عن البكاء (يحاول أن يحتويها بين ذراعيه).

ليلى: (تشيح عنه وهي تنتحب) لقد كرهتني.

رفيق: إن كنت لا أود الرحيل فذلك لأني لا أرغب في أن أتركك.

ليلى: ولكنك قلت..

رفيق: دعك مما قلته (يقبّلها ويدلّلها كطفلة) هيا اذهبي للفراش.. إنها

الأنباء السيئة التي حملها كمال وكل ذلك الصخب حول رحيل شوقي.. تعالي.. اذهبي إلى الفراش وسألحق بك بعد دقائق.

(يقودها نحو الباب وهو يداعبها.. ويظل بعد خروجها واقفاً عند الباب ثم يعود بعد لحظات إلى وسط الحجرة ليقف ساكناً وهو يفكر.. ثم يتلفت حوله كأنما يبحث عن شيء. يتجه إلى الحجرة الداخلية، ونراه وهو يبحث فيها هنا وهناك.. فوق المقاعد والبيانو، وأخيراً نراه وهو يلتقط ورقة من على الأرض ويحملها إلى المائدة.. إنها خريطة أستراليا التي يفردها فوق المائدة وينحني فوقها وغليونه المطفأ في يده اليسرى).

الفصل الثالث

حجرة الجلوس في منزل بهاء. لا توجد مائدة وسطية. ولكن توجد عدة موائد صغيرة بجوار الحائط والنافذة. بيانو، شجيرة نخيل زينة صغيرة في أصيص في النافذة. مقعد أو مقعدان من الأغصان المجدولة. باقي الأثاث مكوّن من أريكة ومقاعد ذات ذراعين من القماش المحشو، وقد زينت ظهورها جميعها بقطع من الموسولين المطرز. جرامافون في أحد الأركان. مرآة كبيرة فوق رف المدفأة، ساعة مذهبة داخل صندوق زجاجي.

(والدة بهاء نائمة على أحد المقاعد ذات الذراعين. ووالد بهاء نائم فوق الأريكة بعد أن نقلت فأصبحت وسط الحجرة، ماجدة تقرأ وهي جالسة إلى إحدى الموائد الصغيرة. تنهض ماجدة بهدوء وتتجه نحو المدفأة وتقلّب نارها بالمحراك فتسقط قطعة من الفحم على الأرض فتحرِّك والدة بهاء رأسها وتنظر نحوها).

ماجدة: آسفة يا أماه.

الوالدة: لم أكن نائمة تماماً يا عزيزتي.

ماجدة: أمي كنت مستغرقة في النوم منذ نصف ساعة.

الوالدة: لا يبدو لي أن هذا صحيحاً.. ماذا إن أباك نائم.

ماجدة: ليس من عادته أن يفعل ذلك في هذا الوقت من النهار.

الوالدة: (في إعجاب) إنه ينام نوماً عميقاً.. كم الساعة الآن؟

ماجدة: الرابعة.

الوالدة: كان من المفروض عودتهما الآن.

ماجدة: ليس من شأن بهاء وسناء أن يحافظا على مواعيدهما.

الوالدة: أجل يا عزيزتي.

ماجدة: لست من ناحيتي على استعداد في مثل هذا الطقس البارد أن أذرع الطرقات من أجل أي رجل.

الوالدة: لا أعتقد أنهما يشعران بأن الجو شديد البرودة.

ماجدة: وأستطيع أن أؤكد لك أنهما جالسان الآن في الحديقة العامة.

الوالدة: أرجو ألا يتأخرا عن موعد تناول الشاي، فأنا أشعر بحاجتي لتناوله بعد قليل.

ماجدة: سأضعه فوق النار منذ الآن، وعندما تحضر ليلى ورفيق، سنتناوله دون انتظار أحد، وسنتناوله في مكاننا هنا حيث الحجرة دافئة (تخرج وتعود حاملة غلاية الشاي فوق نار المدفأة ثم تجلس بالقرب من أمها).

ماجدة: أماه!

الوالدة: نعم.

ماجدة: هل كنت تحبين أبي عندما تزوجتما..؟ أعني هل كنت تحبينه كثيراً.. كثيراً جداً جداً..؟

الوالدة: (في دهشة) أي سؤال هذا! طبعاً.

ماجدة: أكثر من أي رجل آخر صادفته؟

الوالدة: طبعاً.

ماجدة: حسناً.. ثمة شيء غير طبيعي إذن فّي أو في فريد.. فلست أشعر نحوه بهذا الإحساس مطلقاً.. ولو سألني أحد ما سألتك إياه ما أجبت قائلة «طبعاً» وما من شيء يجعلني أذهب وأجلس معه في الحديقة العامة بعد ظهر يوم بارد كهذا.

الوالدة: أعتقد أنكما تشاحنتما؟

ماجدة: أبداً.. كم أتمنى لو كان هذا هو السبب.

الوالدة: ماجدة، لا تتحدثي هكذا.

ماجدة: بل يجب أن أتحدث.. فهو يريدنا أن نتزوج في الشهر القادم.

الوالدة: وماذا في ذلك؟ إنه أمر جميل.

ماجدة: يقول إنه قد أعد مسكناً ويريدني أن أذهب معه لأشاهده.. ولكنني لا أود مشاهدته.

الوالدة: ما الذي اعتراك مؤخراً؟ لقد كنت مسرورة به.. إن فريد ظريف جداً ويبدي اهتماماً كبيراً بك.. بل هو في الواقع يعبدك.

ماجدة: نعم.. أعرف ذلك.. كما كان شأنه مع زوجته الأولى.

الوالدة: إن لديك عقدة سخيفة نحو الرجال الأرامل يا ماجدة.. إنك تغارين.

ماجدة: أبداً.. مطلقاً، ولكني كنت أودّ أن أراه يعمل شيئاً يستحق الاهتمام... ولا يقصر همه على الزواج.

الوالدة: إن المسكين يعمل ما يستحق الاهتمام.. فهو يكرّس وقته ونفسه لك، ولا يكف عن البحث عن مسكن من أجلك.

ماجدة: كنت أفضل لو ذهب إلى أستراليا.. أو إلى مكان كهذا..

الوالدة: ها هو ذلك الرجل السخيف شوقي يبدو مرة أخرى وراء الأمر.. هل أحببته؟ أرجو ألا تكوني قد تورطت ووقعت في غرامه؟

ماجدة: (في حماس) لست أحمل له ذرّة من الحب.. بل إنني أراه ثقيلاً بعض الشيء.

الوالدة: ماذا دهاك إذن؟

ماجدة: كنت أفضل لو أن فريداً رحل إلى الخارج لكي يسعى إلى زيادة ثروته بدلاً من تجارة الفحم التي يزاولها.

الوالدة: ربما إذا سافر لا يعود.

ماجدة: (وهي تفكر) ربما لا يعود فعلاً.

(يسمع صوت البوابة الخارجية، وتخرج ماجدة وتعود بعد لحظة تتبعها ليلى التي تتجه نحو أمها وتقبّلها ثم تلقي نظرة على أبيها).

ليلى: هل أبي نائم؟

ماجدة: يا له من سؤال! هات قبعتك ومعطفك. (تخلعهما ليلى وتناولهما لماجي) أنت ترتعدين أجلسي قرب المدفأة.. أأنت متوعكة؟

ليلى: (في صوت مؤثر) كلا.. أنا بخير.. أشكرك.

الوالدة: هل حضرت بمفردك؟

ليلى: سيلحق بي رفيق بعد قليل.. لقد ذهب إلى المحطة مع أستاذ شوقي.

الوالدة: ليشيّعه؟

ليلى: كلا . . أستاذ شوقي سيرحل غداً .

(تخرج ماجدة بالمعطف والقبعة ثم تعود حاملة صينية ومفرش وتشرع في إعداد الشاي فوق مائدة صغيرة).

الوالدة: (مخاطبة ليلى) هل جاءكم ساكن غيره؟

ليلى: كلا . . لقد أصبح علينا أن نعثر على ساكنين.

الوالدة: ساكنين؟ لماذا؟

(ماجدة تتوقف عما بين يديها لتصغي).

ليلى: لقد خفضوا مرتب رفيق.

الوالدة: (تنتصب جالسة بسرعة) خفضوا مرتبه؟ لماذا؟

ليلى: لست أعرف. . إنني. . يا إلهي! ما أشقاني!

(تغطي وجهها فجأة بيديها وتنفجر باكية).

ماجدة: (تنحني فوق أختها) ليلى. . عزيزتي. . هل يدعوك ذلك إلى البكاء. . ؟

ليلى: (وهي تنتحب) أوه! كلا. . كلا. . إذن هذا الأمر لا يهم، ففي وسعنا أن نجد مكاناً لساكنين، ولا يهمني كثيراً العمل.

ماجدة: إذن ما الذي يبكيك؟

الوالدة: أعتقد أنك ورفيق قد تشاجرتما.

ليلى: رفيق يريد أن يرحل إلى الخارج. . ويتركني.

الوالدة: ماذا؟ ما هذا الذي أسمعه؟

ليلى: (وهي تنظر بإشفاق نحو الرجل النائم) صه، لا توقظا أبي.

ماجدة: إنه لن يستيقظ إلا إذا سمع رنين أدوات الشاي.. تقولين إن رفيق يريد أن يتركك؟

الوالدة: لقد أدركت أنهما تشاجرا.

ليلى: لم نتشاجر بالمعنى الحقيقي.. ولكنه قد صار غريب الأطوار منذ علم أن شوقي سيرحل إلى أستراليا إنه يرغب في الرحيل أيضاً.

الوالدة: وماذا بعد رحيله؟ إن الأجدر به أن يخجل من نفسه... يذهب إلى أستراليا؟ ما شاء الله هل نسي أنه متزوج؟

ليلى: أنا لست أريده أن يبقى لمجرد أنه متزوج.. إن كان يريد أن يهجرني..

ماجدة: إنك ترتكبين بكل تأكيد خطأ جسيماً يا ليلى، وأنا واثقة من هذا، لا يريد أن يهجرك، ولكنه يريد أن يهجر عمله.

الوالدة: ولو كان يريد أن يهجر عمله.. كما يفعل بعض الناس أحياناً، فإني أتساءل.. ماذا يكون حال الدنيا لو توقف كل فرد عن عمله لمجرد أن ذلك العمل لا يعجبه؟ ماذا يكون حال الدنيا لو حدث ذلك سوى الفوضى الكاملة؟ يبدو أن رفيق لم يسمع أن هناك شيئاً اسمه الواجب.

ليلى: إنه في أشد حالات التعاسة.. ولم أستطع أن أسري عنه.

الوالدة: ينبغي أن يكون تعيساً، ما دامت هذه الأفكار في رأسه. إنني لم أسمع طوال حياتي بشيء كهذا! كلما أسرع أستاذ شوقي بالرحيل كلما كان ذلك أفضل.. إنه هو الذي أوحى إليه بهذه.. هذا ما أرجحه.

ماجدة: أنت لا تعرفين أستاذ شوقي يا أمي.. إنه ليس من هذا النوع.

الوالدة: ما الذي دعا رفيق إذن إلى التفكير في ذلك؟

ماجدة: إنه مجرد إحساس ينتاب المرء أحياناً يا أمي.. إحساس لا يمكن مقاومته.. والأعمال المكتبية رتيبة جداً.

الوالدة: طبعاً رتيبة.. وهكذا كل عمل آخر.. هل تتوقعين أن يكون العمل أمراً مشوقاً؟ وهل يحب أحد في العالم أن يعمل ويشقى؟ إن أي شخص يعتقد أن العمل متعة هو شخص معتوه. إننا لم نأت إلى هذا العالم لكي نرتع في مجالات اللهو والرفاهية.. لقد جئنا لكي نكد ونسعى، وكلما فعلنا ذلك في سرور ومرح كلما كان ذلك أنفع لنا ولمن حولنا.

ليلى: لم أكن أنوي أن أخبركم.

الوالدة: إن أحداً ينبغي أن يتحدث إليه.

ليلى: لا تقولي له شيئاً أرجوك.. ربما نستطيع بعد تناول الشاي أن نتحدث جميعاً في الأمر.. وقد يفيد ذلك في تغيير رأيه.

(تخرج ماجدة، وتشرع ليلى في وضع فناجين الشاي وتنسيقها، يستيقظ الوالد، وتعود ماجدة حاملة إبريق الشاي).

الوالد: الشاي؟

ماجدة: نعم يا أبي؟

الوالد: سنتناوله هنا؟ إن المكان ضيق.

ماجدة: ولكنه دافئ.. سأحضر إليك نصيبك وأنت على الأريكة كما أنت.

الوالد: وأين سوف أضعه؟ على الأرض؟

ماجدة: سأحضر لك مائدة.

الوالد: أرجو ألا تحضروا تلك الفناجين الصغيرة التافهة، أريد فنجاني.

ماجدة: لقد أحضرت فنجانك.. ها هو (تقدِّم له فنجاناً ضخماً ناصع البياض ذا مقبض مذهب).

الوالد: لم أشعر بك عندما دخلت يا ليلى أين رفيق؟

ليلى: سيلحق بي.

الوالد: ما هي أخبارك مع فريد يا ماجدة.

ماجدة: سوف لا يحضر (تقوم ماجدة بتوزيع الشاي).

الوالد: هل ذهب في رحلة لأن اليوم هو الأحد؟

ماجدة: (وهي تأخذ لنفسها قدحاً من الشاي وتجلس بجوار شقيقتها) لا.. أبداً، إنه لن يحضر الليلة.. هذا كل ما في الأمر.

الوالد: أراك على ما يرام.. ولكن ليلى تبدو متوعكة نوعاً ما.. هل أصابك برد يا ليلى؟ إن عينيك محمومتين.

ليلى: أجل يا أبي.

الوالدة: لقد أسقطت بعض الخبز والزبد فوق السجادة يا أبا بهاء.

الوالد: (متضايقاً) طبعاً، قلت إن المكان ضيق.

ماجدة: (وهي تبادر إلى التقاط ما سقط) إن بهاء لم يعد بعد هو وسناء يا أبتي.. لقد رجحنا أنهما جالسان في الحديقة العامة.

الوالد: (وقد استطاعت ماجدة أن تصرف ذهنه عما شعر به من استياء) ماذا في هذا الطقس؟

ماجدة: سيختاران مقعداً غير مبلل بماء المطر.. وسيجلسان متلاصقين، وقد شاهدتهما مراراً يفعلان ذلك.

الوالد: (مطلقاً ضحكة خافتة) شاهدتهما؟ وماذا عنك.. ماذا عنك أنت؟ أنت يا للشباب إنه كالحمام لا يكف عن الهديل والمفاجأة.

ماجدة: خصوصاً بهاء.

الوالد: ربما.. مع أنه ما زال صغيراً.. حسناً.. إن الدور عليه في الزواج.. وأنت أيضاً يا ماجدة؟.

ماجدة: لست على عجل في هذا الشأن.

الوالدة: (في شيء من الضيق) لا تقولي ذلك يا عزيزتي.

الوالد: ينبغي طبعاً أن تقول هذا.. فهي فتاة رقيقة متحشمة (لزوجته) وأنت أيضاً، لم أسمعك ذات مرة عند زواجنا تقولين إنك في عجلة من أمرك يا عزيزتي.

الوالدة: طبعاً.. ما كان ينبغي أقول ذلك. لك.

الوالد: ها.. ها! كنت إذن ترتدين قناع الحياء وقتذاك.. يا إلهي! ما أنكر النساء.. والآن.. هيا اعترفي يا ماجدة! ألا تفكرين أحياناً في مباهج الزواج؟

ماجدة: أفكر فيها كثيراً.

الوالد: لقد برح الخفاء وها أنت قد اعترفت.. ألم أقل لكم.

ماجدة: ولكن على أي نحو تظنني أفكر في الزواج؟

الوالد: وكيف لي أن أعرف؟ في الزفاف غالباً.. أراهن على أنك لا تفكرين في شيء قدر تفكيرك في ليلة الزفاف.

ماجدة: (في هدوء) إني أفكر في ثوب العرس وفيما سوف تكون إشبيناتي ووصيفاتي.. ألن يكون لي وصيفات وإشبينات.. يا أماه؟

الوالدة: ماجدة.

ماجدة: أفكر في المنزل الذي سوف أعيش فيه.. وفي الأثاث.. وسأقوم بتربية كلب وقط.

الوالد: (متصنعاً الدهاء) كلب وقط فقط.. وليس ثمة شيء آخر (يقصد الأطفال) ها.. ها.. ها.

الوالدة: أبا بهاء! كف عن هذا الأسلوب، فلست أراه ظريفاً. ماجدة.. أريد يا عزيزتي مزيداً من الشاي، فهل لديك فائض من الماء الساخن؟

ماجدة: سأحضر بعضاً منه (تخرج).

الوالد: جميل منها أن تمزح على هذا النحو.. ولكنها لا تبدو طبيعية فيما يتعلق بأمر زواجها.. وكان الواجب أن تكون أكثر حماساً وسعادة.

الوالدة: أعتقد أن شجاراً بسيطاً قد نشب بينهما، وهو أمر عادي كثير الحدوث.. ولكنها تبدي بعض الاستخفاف بموضوع زواجها.. وقد جرى حديث بيني وبينها حول ذلك.

الوالد: ولكن لا عذر لها في هذا الشجار إن كان يتعلق بشخصية خطيبها نفسه، فهو رجل كامل من جميع النواحي ويشغل وظيفة ممتازة وسيكون لها نعم الزوج. إنه مؤمن على حياته بمبلغ خمسمائة جنيه.

الوالدة: حقاً؟ شيء جميل جداً.. إنها لن تضار إذا حدث له شيء.

الوالد: إنه رجل بعيد النظر.. ليس طبعاً صغير السن ولكنه مستقيم وعاقل.

(تدخل ماجدة ومعها الماء الساخن. جرس الباب يدق).

الوالد: افتحي لهما يا ليلى يا عزيزتي، إنهما بهاء وسناء.

(تخرج ليلى ثم تعود بعد لحظات يتبعها بهاء وسناء).

(سناء تقبّل الوالدة وماجدة).

سناء: لقد تأخرنا بشكل فظيع يا أم بهاء.. إني آسفة!.

بهاء: تتأسفين يبدو أن ساعتي كانت متأخرة..

ماجدة: لا تلقِ اللوم على ساعتك المسكينة.. لقد قبلنا اعتذاركما ولم يحدث ضرر.

الوالد: (مازحاً) الساعة! هل كانت متأخرة؟ تعالي عندي يا فتاتي (تذهب سناء إليه متضاحكة في حياء فيمسك بوجهها بين كفيه) أكانت هي الساعة؟ أبداً لم يكن للساعة أدنى شأن في تأخيركما! إن السبب هو هذا (يربت على وجنتيها بيديه) هاتان الوردتان.. يا لك من ثعلب صغير محظوظ يا بهاء (يقبّلها).

ماجدة: أكان البرد شديداً في الحديقة؟

بهاء: أبداً.. لم يكن شديداً جداً.

(يسمع صوت طقطقة البوابة الخارجية).

الوالدة: أرجح أنه فريد.

ماجدة: ماذا؟

الوالد: (ممازحاً ابنته) أرى المفاجأة قد سرّتك. انظروا إليها.. تصوري يا ماجدة.. إنه فريد!!

ماجدة: لقد قال لي إنه لن يحضر (تنظر من النافذة) إن رفيق معه.

ليلى: افتحي لهما الباب يا ماجدة.

ماجدة: (قبل أن تنتهي ليلى مما قالته) افتح لهما يا بهاء.

بهاء: يا لكما من فتاتين.. (يخرج ليفتح الباب سناء وماجدة تغادران الحجرة).

(يدخل فريد وهو رجل في الخامسة والثلاثين تقريباً تبدو عليه سيماء النجاح، ممتلئ الجسم قليلاً، وذو شعر أشقر. ويتبعه رفيق، ثم بهاء).

فريد: (يتلفت حوله باحثاً عن ماجدة) طاب يومكم (يصافح الوالد والوالدة).

الوالدة: ماجدة صعدت إلى الطابق الأعلى مع سناء يا فريد.

فريد: حسناً.. كنت أخشى أن أجدها في الخارج.

الوالد: كيف حالك يا رفيق؟ لا يبدو عليك أنك على ما يرام.

رفيق: متوعك قليلاً.. لا شيء أكثر من ذلك.

الوالد: ومتى سيرحل ذلك الرجل المجنون المقيم لديكما، هه؟

رفيق: غداً.

الوالد: إنه معتوه من كبار المعتوهين على ما يبدو لي.

(تدخل ماجدة وسناء عائدتين).

ماجدة: كنت أقول تواً لسناء وبهاء.. إن الشاي على المائدة في حجرة الاستقبال.. وضعته هناك لأننا لم نكن نعلم متى تعودان (تعبر الحجرة نحو فريد وتصعد له خدها فيقبّله).

سناء: أنت فظيعة يا ماجدة؟

الوالد: (لسناء) لا تنزعجي.. فلن تكونا بمفردكما أنت وبهاء إذا تناولتما

الشاي في حجرة الاستقبال.. فها هو رفيق في حاجة إلى تناول قليل منه وستضطر ليلى إلى مرافقته لترى ما تقدمه له.. أليس كذلك يا ليلى؟

ليلى: نعم يا أبي.

ماجدة: (لفريد) هل تناولت الشاي؟

فريد: نعم.. شكراً. (يخرج الجميع فيما عدا الوالد وماجدة وفريد).

الوالد: (يقوم إلى المدفأة فيقلبها بالمحراك وهو يغمغم مغنياً بصوت خافت) هل رأيت مجلة «آرجز» يا ماجدة؟

ماجدة: إنها في حجرة الطعام.. سأحضرها لك (تهم بالخروج متجهة نحو الباب).

الوالد: كلا.. كلا.. سأحضرها أنا (يخرج).

ماجدة: إن أبي يسمي هذا حصافة.

فريد: (وهو يقترب منها) ماذا؟

ماجدة: ألم تلاحظ؟ إنه لا يريد الأرجز ولا أي شيء آخر؟

فريد: (وقد فهم الآن فقط) أتقصدين أنه تعمَّد تركنا بمفردنا؟

ماجدة: نعم.

فريد: منتهى الأدب منه! أقول يا ماجدة.. لعلك لم تتضايقي من حضوري اليوم..؟ كان ينبغي حضوري لأننا لم نتفق على يوم الثلاثاء...

(ماجدة تضحك في حزن ضحكة قصيرة).

ماجدة: إنك تحبني كثيراً جداً يا فريد.. أكثر مما ينبغي.

فريد: لا تتحدثي على هذا النحو.. (فترة سكون) ماجي أنا.. أنت لم تقبّلني حتى الآن.

ماجدة: لقد فعلت عند قدومك.

فريد: كلا أنا الذي قبّلتك.

ماجدة: آسفة.. ولكني لا أهتم عادة بذلك أمام الآخرين.

فريد: (يزداد جرأة) ليس معنا الآن أحد (تنهض ماجدة.. وتلتفت نحوه.. وتتفرس في وجهه.. وترفع وجهها قليلاً إلى أعلى.. وتتقدم منه وهي على تلك الصورة، وتقبِّله في فمه.. ويظل فريد محتفظاً بها قليلاً بين ذراعيه حتى تخلّص نفسها منه بلطف وتبتعد عنه) إن معي لك شيئاً.. شيئاً قلت منذ أيام إنك تريدينه.. دبوس صدر من تلك الدبابيس الهولندية.. (يخرج من جيبه علبة صغيرة) ها هو.

ماجدة: (تفتح العلبة) هذا جميل منك! ما أكرمك (تنظر إليه) ينبغي على ما أعتقد أن أعيد الكرّة (تقبّله مرة أخرى يبتهج فريد، ويظل ممسكاً بيدها، تنظر إلى وجهه، ثم إلى يدها التي في يده.. ثم إلى المدفأة).

فريد: ماذا بك يا عزيزتي؟

ماجدة: (تسحب يدها في ضيق) إنها الحالة التي ذكرتها لك من قبل.. لست أجد في نفسي ميلاً إلى هذه المغازلة.

فريد: فليكن.. سأكف، ولن أضايقك.

ماجدة: أرجو ألا أكون أنا التي تضايقك.. لعلك تذكر أنني قلت ألا تحضر اليوم.

فريد: نعم.. أذكر.

ماجدة: حسناً.. لم يكن هناك سبب يدعوني إلى ذلك سوى أنني لم أشعر برغبة في أن نتقابل.. مع أن المفروض أن تخالجني هذه الرغبة، وأشعر نحوك بمثل أحاسيسك نحوي، أليس كذلك؟

فريد: إنك تختلفين عني.. أنا ذائب الرغبة في أن أكون بالقرب منك.

ماجدة: فريد، لا أريد الاستقرار.. بل أريد أن أرحل.. وأقوم بعمل ما..

فريد: أي عمل يا عزيزتي؟

ماجدة: .. لست أدري.. (فترة سكون) هل سبق لك أن سافرت إلى الخارج؟

فريد: نعم.. سافرت مرة إلى باريس في إجازة عيد الفصح.

ماجدة: إنها نزهة قمت بها في إجازتك ثم عدت.. ولكن ألا تشعر في نفسك بميل إلى السفر خارج البلاد.. لتجرّب حظك؟.. لتعمل تغييراً؟ لتؤدي عملاً أو شيئاً بيديك؟ ألم تجرّب ذات مرة شعوراً بالضجر مما تقوم به حالياً..؟

فريد: لا أستطيع القول بأن مثل هذا الشعور قد انتابني، لا أستطيع حقاً.. ولماذا ينتابني؟ إن عملي ليس شاقاً. يبدو أنك ممن يحبون التغيير، إني أحصل كما تعرفين على مرتب طيب يا عزيزتي. وسيكون في وسعك عندما نتزوج، أن تقومي بين وقت وآخر بما تشائين من رحلات.. سيكون لك مطلق الحرية في كل شيء.

ماجدة: لن أقوم إذا تزوجنا بأية رحلة.

فريد: وستكون لك خادمتك الخاصة، وغير ذلك من أشياء أخرى..

ماجدة: أجل.. أجل أفهم ما تعنيه.

فريد: ثم إنني لو رحلت كما تقولين إلى الخارج، على سبيل الفرض، فمعنى هذا أنني لن أتزوجك.. أليس كذلك؟

ماجدة: نعم.. وهذا من صالحك، لأنك تستحق من هي أجدر بك مني.. ألا تعرف.. ألا تعرف يا وولتر أني أشعر نحوك بنصف ما تشعر به نحوي من حب ولا حتى بربعه؟

فريد: نعم أعرف.. ولكنك لا تحبين أحداً آخر.

ماجدة: فعلاً، ولكن ألم يدر بخلدك ذات مرة أنني إنما أتزوجك من أجل أن أترك المتجر الذي أعمل به؟

فريد: طبعاً لا.. ولكن ذلك لا يمنع من أن تكوني مسرورة لأنك ستتركين المتجر الذي يقيد من حريتك والذي لا ...

ماجدة: لشدة ما أتمنى أن أكون حرة ومستقلة، مستقلة تماماً... لمدة سنة على الأقل..

فريد: (وقد بدأ يتأذى) ستصبحين حرة ومستقلة بعد أن تتزوجيني يا ماجدة.. سيكون في وسعك أن تفعلي ما شئت.

ماجدة: (تنظر إليه في يأس شديد فترة قصيرة ثم لا تلبث أن تندفع نحوه فجأة) يا لك من شخص عزيز عزيز حقاً. تزوجني.. تزوجني بسرعة يا فريد (يتلقاها بفرح بين ذراعيه) بسرعة.. وإلا.. وإلا..

فريد: (في رقة شديدة) وإلا ماذا؟

ماجدة: وإلا فررت منك.

فريد: وإلى أين تفرين؟

ماجدة: لو كنت أعرف.. لفررت منذ وقت.

فريد: يا حبيبتي! لا تتحدثي بهذا الأسلوب.

(يسمع صوت الوالد في الخارج وهو يسعل ويتعمد إحداث جلبة ثم يدخل).

ماجدة: أخشى أن تكون قد أصبت ببرد في حجرة الطعام يا أبي أعتقد أنك ذهبت لإحضار المجلّة؟

الوالد: ولقد أحضرتها فعلاً.

ماجدة: ولكنك أحضرت مجلة أخرى (تأخذها منه) (تدخل الوالدة، رفيق، ليلى، بهاء وسناء).

الوالدة: اعزفي لنا شيئاً يا ليلى. (تتجه ليلى إلى البيانو ويقتسم بهاء مقعداً ذا ذراعين بينه وبين سناء، ويقف رفيق متسكعاً عند النافذة، وهو يقلب صفحات أحد «الألبومات»).

بهاء: هل ستذهبين إلى الكنيسة يا أمي؟

الوالدة: كلا يا عزيزي.. إنها ليلة زمهرير، والرياح باردة جداً.

بهاء: في يوم الأحد الماضي قلت إنها تمطر.. والأحد الذي قبله قلت إنه الضباب. والأحد الذي قبله قلت..

سناء: لا تكن أبناً وقحاً هكذا (تضع يدها فوق فمه لتمنعه من الكلام، فيتناولها ويحتفظ بها بين يديه).

الوالدة: (في بشاشة وسرور) أنت ولد شرير لأنك تسخر من أمك العجوز.. لقد ذهبت إلى الكنيسة هذا الصباح.

بهاء: يبدو أنك ستقتنتين مذهب الذهاب إلى الكنيسة مرة واحدة في كل عام.

الوالدة: وما حيلتي.. إن كنت أنام هناك كلما ذهبت؟

بهاء: تذكري أنك ستكونين قدوة صالحة.. لو أنك ظهرت دائماً أمام الناس في الكنيسة.

الوالدة: نعم يا عزيزي.. فكرت في ذلك ووجدت أنني لن أكون قدوة لأحد ما داموا سيرونني نائمة.

فريد: (الذي لديه استعداد دائماً على تهدئة الأمور عندما يحتدم النقاش) أؤكد لك يا أم بهاء أن من الأهم لك أن تستريحي ولا تسيري كل هذه المسافة مرتين يومياً.

الوالدة: أجل إنها مسافة طويلة تستغرق ربع الساعة سيراً على الأقدام. (ليلى تعزف، وقد اختارت المقطوعة الحزينة «أبقَ معي» يبدو القلق على رفيق ويسير ويتمشى ذهاباً وإياباً بين البيانو والنافذة).

الوالد: ألا تجد مقعداً لتجلس عليه يا رفيق؟ يبدو عليك أنك متعب.

رفيق: المقاعد كثيرة.. شكراً، إن سناء لا تحتل سوى نصف مقعد.

سناء: ما هذا الذي تقوله يا أستاذ رفيق (تتململ في مقعدها الذي تشغله مع بهاء وتهم بالقيام ولكن بهاء يجذبها ويجعلها تجلس كما كانت).

(تنتهي ليلى من أداء اللحن وتتوقف عن العزف).

الوالدة: يا لها من نغمات جميلة! ما رأيك يا فريد؟

فريد: جميلة جداً.. محزنة بعض الشيء ولكنها رائعة.

(تشرع ليلى في عزف لحن آخر حزين وهو في هذه المرة «يا شمس حياتي»).

رفيق: هلا كففت بحق السماء، وعزفت لحناً آخر ساراً؟

(تكفّ ليلى عن العزف، وتتلفت حولها مترددة، وتقلب صفحات النوتة الموسيقية التي أمامها.. ثم تنهض فجأة وتخرج من الحجرة مهرولة).

سناء: إنها تبكي.

الوالد: ماذا؟

الوالدة: لقد آذيت شعورها يا رفيق.. إذ تحدثت إليها بهذا الأسلوب.. لم يبدو منها ما يجعلك تغضب.. لقد جاءت اليوم وهي تبكي..

رفيق: لم أفعل لها شيئاً! إنني..

(تنهض الوالدة فجأة وتلحق بابنتها وهي غاضبة).

الوالد: (لرفيق) هل أنتما متخاصمان؟

رفيق: متخاصمان؟ إننا لا نتخاصم..

الوالد: حسناً.. ما كان يجدر بك إذن أن تخاطبها هكذا (لسناء) أأنت متأكدة من أنها كانت تبكي..؟

سناء: متأكدة تماماً.

الوالد: غريب! ليس هذا من طبعها.

(تدخل الوالدة).

الوالد: هل زال ما بها؟

الوالدة: تشكو صداعاً.. ولكن.. ليس هذا لب الموضوع.. إنني أعرف السبب.. إنها لم تكن تستطيع الكلام عندما حضرت بعد ظهر اليوم.

رفيق: (مقاطعاً إياها) أهي قلقة بشأني؟

الوالدة: وماذا يدعوها إلى أن تقلق بشأنك؟

رفيق: لقد حدث أن قلت لها.. إنني قد ضاق بي.. والواقع.. إنني أشعر هذه الأيام بشيء من ...

الوالدة: (في عنف) أنت تعرف جيداً كل شيء.. إنك تريد أن ترحل مع ذلك المدعو شوقي.. وتهجر زوجتك.

الوالد: (صائحاً) ماذا؟

(يبدو الوجوم على وجه سناء، وتظهر الدهشة على بهاء أما فريد فيحاول التظاهر بأنه لا يسمع)

الوالدة: تكاد الفتاة المسكينة تتمزق من الأسى، لأنه كما تقول يريد أن يتركها.

رفيق: لم أقل شيئاً كهذا.. ولم أفكر في مثل هذا الأمر.. وأنا..

الوالدة: هل تريد أن ترحل مع هذا الرجل؟

الوالد: يغلب على ظني أنكما مجنونان.. أنتما الاثنان! ما هذا الذي تقولانه؟ يذهب مع من..؟ وإلى أين وعما تتحدثان؟

الوالدة: ذكرت لي ليلى بكل وضوح بعد ظهر اليوم أن رفيق يريد الذهاب إلى أستراليا.. وبكت بكاءً مراً. معنى هذا ولا شك أنه يريد أن يتركها.. أجل.. لا معنى لما قالته غير ذلك..

وأنا الآن أقول إن رفيق ينبغي أن يخجل من نفسه.. إذ يهرب من زوجته على هذا النحو.. هذا على المكشوف هو ما أعتقده.

الوالد: (معتدلاً في جلسته وقد ظهر عليه الغضب) ما هذا الذي أسمعه يا رفيق..؟ ماذا..

(فريد يتجه إلى الباب متسللاً على أطراف قدميه).

رفيق: لا.. لا تذهب يا فريد.. ينبغي أن يسمعني أفراد الأسرة جميعهم.. وستكون ذات يوم فرداً منها.

فريد: (يعود فيجلس) أنا على استعداد للانصراف إن كان وجودي غير ملائم.

رفيق: كلا.. لا تنصرف.. دعنا ننتهِ من هذا الأمر.. يجب أن تعرف كل شيء.. كما يجب أن يعرفوا جميعاً كل شيء.

الوالدة: (وفي صوتها رنة يأس) إذن فأنت تريد أن تتركها وترحل؟ يا للفضيحة.

رفيق: ما هذا الهراء الذي تتحدثون به جميعاً أنني..

الوالدة: (مقاطعة إياه) أتريد الرحيل أم لا تريد؟

رفيق: نعم.. أريد.

(يخيم على المكان صمت عميق).

الوالدة: ها هو قد اعترف.. ألم أقل لكم؟ (تدخل ماجدة) كيف حال ابنتي المسكينة يا ماجدة؟

ماجدة: تقول إن الصداع ما زال، وإنها ستنزل بعد قليل.. ماذا دهاكم؟

الوالدة: يريد رفيق أن يرحل إلى أستراليا ويترك زوجته. وقد اعترف لنا بذلك.

ماجدة: حسناً.. فلنفرض أن هذا صحيح.. أليس من الأفضل أن يكاشفكم بدلاً من أن يذهب دون علمكم؟ ومع ذلك فإن هذا غير صحيح.

الوالد: أتريد أن تأخذ ليلى معك؟

رفيق: كيف أستطيع أن آخذها؟

(تدخل ليلى فيتحرك الجميع نحوها وهم يرددون كلام العطف والتشجيع، ويحاول كل منهم أن يقدِّم لها مقعداً وتجلس بجوار أبيها).

رفيق: اصغوا الآن جميعاً إلى أنها حقيقة لا شك فيها أنني أود الرحيل.. أريد أن أفعل ما فعله شوقي أترك كل شيء.. وأذهب إلى المستعمرات لأجرّب حظي.. فإذا ما وفقت.. ووقفت على قدمي.. لحقت بي ليلى..

الوالد: (مقاطعاً إياه) هذا جميل.. وإذا فشلت..؟

كان ينبغي أن تفكر في أن تفعل هذا الأمر قبل أن تتزوج.. فليس في وسعك الآن الهروب على هذا النحو وقتما تشاء، لأن لك زوجة.

رفيق: (منفعلاً) وماذا يمنع..؟

الوالدة: ماذا يمنع؟ اصغوا إلى ما يقول.

رفيق: لقد ضقت ذرعاً بحياة المكتب، وما بها من رتابة.. لا شيء جديد.. لا شيء يحدث، إني لم أر شيئاً في هذا العالم.. وكل ما فعلته أنني التحقت بتلك الوظيفة.. لماذا؟ لمجرد أن

الشبان الآخرين يفعلون ذلك.. لمجرد أن الناس يقولون إنه من الصواب أن يفعل المرء ذلك.. إنني أعيش حياتي في انتظار عطلة الأسبوع.

بهاء: وأنا كذلك.. وهكذا جميع الناس.. ولا أحسبك تريد القول بأن على المرء أن يحب عمله أو يتركه، أتريد أن تقول ذلك؟

الوالد: (لرفيق) أتظنني أحب السباكة؟ أبداً.. لم أحبها يوماً ما. ولكنني تشبثت بها وظللت طوال حياتي أمارسها والآن.. انظر عندي مبلغ صغير مجزى في البنك.. واشتريت هذا البيت الذي أعيش فيه.. بيتي ملكي (يتلفت حوله بفخر واعتداد) ومع ذلك فقد كرهت السباكة، كما تكره أنت الآن عملك.

ماجدة: لماذا لم تمارس إذن عملاً آخر يا أبي؟

الوالد: وماذا عساي كنت أمارس؟ علموني السباكة.. ونحن مسيَّرون ولسنا مخيَّرون.. لقد تخيَّر لي جدك السباكة فمارستها وظللت متشبثاً بها طبعاً.. إن كان أبي سباكاً.. وإن كان هذا العمل قد لاءمه وأفاده.. فلماذا لا يفيدني أنا أيضاً؟.. لنفرض الآن أنني هجرت عملي وأنا في شرخ شبابي ورحلت إلى أستراليا لألهو؟ فماذا كان يحدث لأسرتي؟ هه؟ (لماجدة) ما كنت لتحصلي على ذلك القسط من التعليم الذي حصلت عليه يا بنيتي. إن المرء يجب أن يعيش بصورة أو بأخرى، وينبغي لمن يريد أن يعيش أن يتمسك بعمله الذي يحصل منه على لقمة العيش.. ولا يستسلم لأية أفكار خيالية أو صبيانية.

فريد: (في هدوء وأدب) كلنا يشعر أحياناً بالضجر وعدم الارتياح.. ثم نعود فنتغلب على هذا الشعور.

ماجدة: (ملتفتة إلى فريد) هل انتابك هذا الشعور؟

فريد: منذ زمن بعيد.. ولكنني الآن على ما يرام.

رفيق: لم أقل مرة إنني سوف أرحل.. كل ما قلته حتى الآن.. هو أنني «أريد» الرحيل. هل قلت أكثر من ذلك يا ليلى؟

ليلى: (في وداعة) كلا يا عزيزي.

الوالدة: ما كان ينبغي لك أن تقول إنك تريد الرحيل فهذا أمر مضحك.

رفيق: لم أقل ذلك إلا بعد أن أعلن شوقي عن أنه قرر الرحيل.

الوالدة: عرفت منذ البداية أن ذلك الرجل شوقي وراء الأمر.

رفيق: وقلت في نفسي.. إذا كان شوقي قد ألقى بوظيفته طائعاً مختاراً في البحر.. فلماذا لا أفعل مثله.

الوالد: ذلك أنه معتوه.. وما كان بك حاجة إلى أن تثبت أن ثمة معتوهاً آخر.

ماجدة: إنه ليس معتوهاً. وحبذا لو رحل رفيق أيضاً.

ليلى: ماجدة! كيف تبيحين لنفسك أن تقولي هذا؟

ماجدة: (وهي تولي ظهرها متجهة إلى المدفأة) ما الذي يدعو شاباً أن يربط نفسه بعمل طوال حياته وهو يكره هذا العمل؟ لو كنت رجلاً..

الوالدة: (مقاطعة) ولكنك لست رجلاً.. فرأيك إذن لا يعتد به.

رفيق: أعرف بالطبع أن مسألة زواجي تجعل موقفي مختلفاً.. (يتلفت نحوهم في غضب) ولكن لا ينبغي أن يعتبرني أحد وغداً لمجرد أن لي آراء وأنني أفكر بحرية. هل أعتبر وغداً لأنني أعتنق فكرة ما؟

(فترة سكون لا يجيبه خلالها أحد).

ولسوف أكاشفكم بآرائي وبكل ما يخالجني. إنني لا أرى أن الزواج يجب أن يكبل الرجل ويجعل منه عبداً. ثم إنني لا أريد قبل كل شيء أن أهجر ليلى لأنها زوجتي وأنا فخور بها. ولكن.. هل يقضى عليّ لأنني رجل متزوج، بألا أسعى إلى شيء ما على الإطلاق؟ إننا معشر الناس من الطبقة الوسطى قوم جبناء.. نلقي بأنفسنا في أحضان أول عمل تافه يصادفنا ونظل متشبثين به ومتعلقين بأهدابه، كالكلاب.. لا يثنيها حتى ضرب السياط عن التشبث بسيرها والتعلق به! وتظل ونحن متعلقين بهذا العمل خائفين.. خائفين من كل شيء.. من المطالبة بحقوقنا.. وحتى العلاوة، نخشى أن نطالب بها، ونظل ننتظر دون أن نفتح أفواهنا حتى تأتينا.. وعندما يقول لنا رئيس العمل إنه لن يمنحنا أية علاوة. فهل يواجهه أحد منا ويقول له «إذن سأتركك وأذهب إلى مكان آخر لأحصل على ما يوازي عملي»؟ أبداً.. الجميع يخضعون. فأية فائدة تعود على المرء إذن من البقاء هنا طوال حياته؟ ولماذا لا يحاول أحد أن يغامر ولا نخوة فينا! وأصحاب الأعمال يعرفون ذلك ويتحكمون كما يشاؤون فينا استناداً إلى نقطة الضعف هذه.. وعندما يخفضون مرتباتنا، فإننا نستسلم ونتقبل منهم ذلك في وداعة الحملان، إننا لسنا رجالاً.. بل آلات صماء. ابتداء من الأسبوع القادم سيكون أمامي واحدة من أثنين. إما أن أقبل العمل في وظيفتي بعد أن يقتطعوا جزءاً من مرتبي، وإما أن أرفض وأبحث عن شيء آخر. وستقولون.. ويقول كل الناس احتفظ بوظيفتك.. وأكبر الظن أنني قد أحتفظ بها.. لأنني أيضاً جبان مثلكم جميعاً. ولكن الذي أريد أن أعرفه هو: لماذا لا تتركون رجلاً مثلي يعاني حالة من القلق

والكآبة.. لماذا لا تتركون مثل هذا الرجل وشأنه دون أن تظنوه وغداً أو شريراً؟

فريد: ولكننا مع ذلك لنا عندما نتزوج مسؤولياتنا العائلية.. وما من شك في أننا لا نستطيع أن نتجاهلها.

رفيق: لست أريد أن أتجاهلها.. بل على العكس.. لقد كان الشعور بالذنب يغمرني، وأنا أنقل إلى ليلى نبأ تخفيض مرتبي.

ماجدة: (فجأة) إذا ما رحلت إلى أستراليا، تستطيع ليلى أن تحضر وتقيم معنا.

الوالدة: يا إلهي، كيف تقيم معنا؟ سيظن الناس جميعاً أنها مطلقة، أو ما هو أسوأ من ذلك.

فريد: (لماجدة) تقصدين.. أن تقيم معنا يا عزيزتي؟

ماجدة: (في ضجر) كلا.. تقيم هنا، هذا ما أقصده.

رفيق: إن لدي مبلغاً صغيراً مدخراً، وتستطيع أن تنفق منه أثناء.. كفي عن البكاء بحق السماء يا ليلى.. ألا يستطيع أحدكم أن يفهمني؟ أم أنكم تتعمدون ذلك؟

الوالد: أكبر ظني أنك اشتراكي متطرف.

رفيق: ألا يستطيع أحد أن يفكر في حرية، إلا إذا كان إشتراكياً..؟

الوالد: إن أغلب الإشتراكيين معتوهون، ويتحدثون دائماً عن قسوة أصحاب العمل وشرورهم.. وبراءة العاملين.

رفيق: لم أقل ذلك.. ولست إشتراكياً.

بهاء: سوف تهدأ أعصابك بعد رحيل شوقي.

رفيق: (في خبث) أما أنت.. فانتظر حتى تتقدم في السن عامين آخرين يا بني.

فريد: ألا ترى أن ليس لديك أي خطط حول ما سوف تفعله في أستراليا..؟ هل لدى شوقي شيء من ذلك؟

رفيق: إنه يحمل معه خطاباً لإحدى الشركات.

الوالد: وما قيمة مثل هذا الخطاب؟

ليلى: (باكية) أليس ممكناً أن أذهب مع رفيق..؟ إنني راغبة جداً في ذلك.

ماجدة: ستساعدينه أكثر لو بقيت.

الوالدة: إنه لا يرغب في اصطحابها، لقد قال ذلك.. (مخاطبة ليلى) كفّي يا عزيزتي عن التفكير في هذا الأمر، وإلا أرهقت نفسك ومرضت. أنت في حاجة إلى من يعتني بك وبصحتك. لا إلى من يثير قلقك ويخيفك (تلقي نظرة سخط على رفيق).

ليلى: إن صحتي جيدة.

رفيق: (فجأة) هيا بنا إلى منزلنا يا ليلى، يبدو عليك التعب.

الوالدة: ألم تلاحظ ذلك إلا الآن؟.

ماجدة: أمي.

الوالدة: إنها ابنتي وإذا كان زوجها لا يمنحها عنايته، فعليّ أنا أن أفعل ذلك.

ليلى: أمي.. أيتها العزيزة.. إن رفيق لا يقصد إلا كل خير، أنا واثقة من ذلك (لرفيق) هيا يا عزيزي إني على استعداد (تخرج من

الحجرة لتأتي بحاجياتها).

فريد: (في لهجة من يضع المرهم على الجرح) حسناً.. ليس من الضروري على أية حال أن تحلّ المشاكل الليلة.. وفي الصباح بعد ليلة من النوم الهادئ قد تهدأ النفوس..

ماجدة: (في حماس) أحب المغامرة.

الوالد: هذا متوقع منك.. لأنك لا تعرفين ما ينفعك مما يضرك.

بهاء: إذن فقد أصابتك العدوى أنت أيضاً يا ماجدة.

(تعود ليلى بعد أن ارتدت معطفها وتأهبت للخروج وتمر عليهم جميعاً لتصافح هذا وتقبّل تلك، متصنعة السرور، وآثار دموعها ما زالت على خديها).

رفيق: (الذي لم يصافح أحداً يحييهم وهو عند الباب) تصبحون على خير جميعاً (يخرج ومعه ليلى).

الوالدة: (تشرع في التعليق على ما حدث) ينبغي أن أقول إن رفيق.

بهاء: (مقاطعاً إياها) أوه دعينا من هذا يا أماه، اعزفي شيئاً يا ماجدة.

ماجدة: لا أريد العزف.

الوالدة: قد يحب فريد أن يسمع شيئاً.. أتحب يا فريد؟

فريد: إذا كانت ماجدة تحب أن تعزف.

ماجدة: إنها لا تحب.

الوالد: كوني بشوشة ومهذبة بقدر ما تستطيعين يا بنيتي.. كفانا الليلة ما حدث من رفيق.

(تذهب ماجدة إلى البيانو.. وتتعمد العزف بصوت صاخب مزعج وقد اختارت لحن «هيا نرحل إلى فلادفيا»)

الوالدة: ماجدة! إننا في يوم الأحد، (تقصد ما جرت عليه العادة من مراعاة عزف ألحان هادئة يغلب عليها الطابع الديني في أيام الآحاد).

ماجدة: لقد نسيت.

الوالدة: ليس لك أن تنسي هذه الأمور.. سناء يا عزيزتي.. اعزفي أنت.

سناء: لا أجيد العزف.

الوالد: هراء، هيا اعزفي (تذهب سناء إلى البيانو ومن ورائها بهاء).

بهاء: (وهو شديد القرب من سناء، سيساعدها في العثور على إحدى النوتات الموسيقية الملائمة) إن رفيق وغد كبير ماذا تظنينه قد قال لي أمس؟

سناء: لا أعرف.

بهاء: قال لي أن أتأكد قبل أن أتزوج من الفتاة التي اختارها.

سناء: يا له من وحش.

بهاء: أتدرين ماذا كان ردي عليه.. يا حبيبتي؟

(يقبّلها وهو يخفي وجهيهما بإحدى النوتات الموسيقية).

الوالد: (يلمحهما فيصيح وهو يتلفت حوله) استعملا نوتة أكبر (تسرع سناء بالجلوس إلى البيانو تعزف لحن «لتحصوا نعم المولى» ويشترك الجميع في الغناء:

فـلـتـحـصـوا نـعـم الـمـولـى واحـــــدة. . واحـــــدة

احـصـوهـــا لـتـعـلـمـوا إنـــهـــا . . مـــتـــعـــددة

تـــبـــارك رب الـــعـــرش ذو الـــمـــنـــن الـــخـــالـــدة

فلتحصوا نعم المولى

الفصل الرابع

نفس المنظر في الفصل الأول. الوقت: الصباح المبكر.

(يرفع الستار عن ليلى وهي تعد بعض الشطائر. يرن جرس الباب، وتفتح ليلى لماجدة فنراها في ملابس العمل التي اعتادت ارتداءها في المتجر).

ليلى: أنت.. يا ماجدة! ماذا أتى بك في هذا الوقت المبكر؟ ما حدث؟

ماجدة: جئت لأساعد في توديع أستاذ شوقي يا ليلى، أين رفيق؟ ألم يستيقظ؟

ليلى: بل استيقظ (تتجه ماجدة نحو باب الحديقة وتقف به وهي تنظر إلى الخارج) استيقظ منذ فترة.

ماجدة: إذن.. فقد حل اليوم العظيم (تلتفت نحو ليلى) هل سيرحل رفيق.. أم أنه لن يرحل.. يا ليلى.

ليلى: (في قلق شديد وهي تتجنب نظرات ماجدة) كلا.. لن يرحل بالطبع.

ماجدة: لماذا؟

ليلى: لأن.. يا إلهي.. كيف له أن يرحل (تبكي) كفّي عن الحديث إليّ بهذا الأسلوب يا ماجدة.

ماجدة: لو كنت قد شجعته.. لقرر الرحيل.

ليلى: لقد شجعته.. ولقد سمعتني بنفسك وأنا أقول له في الليلة الماضية.. مرة بعد أخرى «إذا كنت تريد الرحيل، فأنا لن أقف عقبة في طريقك».

ماجدة: نعم سمعت.. ولكن.. أهذا هو ما قلته فقط أمس؟

ليلى: لا يهمني ما قلت.. سوف يتغلب على تلك النزوة.. الجميع يقولون إنه سوف يتغلب على نزوته.. فيما عدا لست أتصور كيف يرحل. إنها مجرد عدوى أصابته من أستاذ شوقي.

ماجدة: (في غضب) أستاذ شوقي كل شخص يتحدث.. وكأنما أستاذ شوقي رجل شرير، يحث الأزواج المساكين على هجر زوجاتهم.. كل شخص يقول «إن السبب هو ذلك الرجل شوقي» أو «أن رحيل هذا الرجل سيكون نعمة كبرى» إلى غير ذلك من أقاويل، وكأنما أستاذ شوقي شخصية بغيضة. والحقيقة أنه قد أتى عملاً رائعاً.. وجعلنا ننفعل جميعاً.. ونشعر بما نحن فيه من رتابة وسأم.. وها هو رفيق.. يتحرق شوقاً إلى المغامرة والرحيل وقد امتلأ حماساً وحيوية.. فلماذا لا تذهبين وتقولين «إني فخورة بك. القِ بوظيفتك البغيضة في عرض البحر.. واذهب لتبني مستقبلك» لقد كان هذا هو ما ينتظره، ولكنه بدلاً من ذلك، وجد الجميع ضده.. الزوجة.. وأم الزوجة.. وأبوها.. وكل المعارف والأقارب والأصدقاء.. الجميع يعتبرونه مجنوناً.

ليلى: كان ينبغي أن تكوني أنت زوجته يا ماجدة.

ماجدة: لا تستسلمي للغيظ والحقد يا ليلى.

ليلى: انتظري حتى تتزوجي من فريد ولسوف..

ماجدة: (مقاطعة إياها) أنا لن أتزوج من فريد..

ليلى: (وقد عقدت الدهشة لسانها) لن تتزوجي من فريد، ماذا دهاك يا ماجدة؟

ماجدة: لقد أنهيت ما بيني وبينه.. فعلت ذلك ليلة أمس.

ليلى: وما السبب؟ هل تشاجرتما؟ لقد كنت متهورة في تصرفاتك معه ليلة أمس، ولكن فريد متسامح جداً. (في قلق ألا تحبينه)؟

ماجدة: كلا.. لست أحب أحداً.. ولكنني ظللت طوال الأسبوع الماضي أفكر.. وأفكر، حتى اكتشفت ليلة أمس أنني لا أرغب في الزواج إلا من أجل أن أتخلص من المتجر.

ليلى: ولكنه شديد التعلق بك والتقدير لك.

ماجدة: لست أريد تقديراً من أحد.. إن رئيس العمل في المتجر يقدّرني بما فيه الكفاية.. ولست في حاجة.

ليلى: ما أغرب طريقتك في الكلام.

ماجدة: عندما سمعت رفيق وهو يتحدث أمس. أدركت كم أنا حمقاء إذ أهرب من قفص المتجر إلى قفص آخر.. هو قفص الزواج.

ليلى: ولكنك ستصبحين حرة بعد أن تتزوجي.

ماجدة: لا أحد يصبح حراً بعد الزواج.. ولاسيما المرأة، ولو كنت أحبه، ما اهتممت بهذه الحرية، ولكني لا أحبه، لست أحب فريد، ولكنني أحب البيت الذي سيجعلني أعيش فيه. والآن، بعد أن عدلت عن الزواج منه، فإنني أستطيع أن أترك المتجر

في اليوم الذي أختاره، بعد أن أدخر ما يكفي لرحيلي إلى حيث أشاء. أما إذا تزوجت من فريد فمن المستحيل أن أتركه وقتما أختار.. أو أهرب إلى أي مكان.

ليلى: (في فزع) تهربين.

ماجدة: (تأخذ في الضحك) ألست ترينني الآن أمامك بعد أن هربت من فريد؟.. فريد. يا إلهي (تستمر في الضحك ولكن ليلى تبدو متجهمة).

ليلى: أنت لا تأخذين الأمور مأخذ الجد.

ماجدة: على العكس. إن فسخ خطبتي لفريد يدل على أني آخذ الأمور بمنتهى الجد.. هل سمعت ذات مرة أن أية فتاة ضربت عرض الحائط بزيجة طيبة كهذه؟

(يدخل شوقي).

شوقي: صباح الخير.. من؟ آنسة ماجدة صباح الخير يا مس ماجدة.

ليلى: (لشوقي) هل أنت تأهبت؟ سأعد لك إفطارك. (تخرج).

ماجدة: هل أدهشك أن تراني هنا مبكراً؟ لقد أردت أن أودعك.

شوقي: مجاملة لطيفة جداً منك.

ماجدة: إنني أنظر إليك كبطل.. وأشعر بأنني ينبغي أن أقوم بشيء مرح بمناسبة رحيلك.

(تدخل ليلى حاملة طبقاً من عصيدة البوريدج).

ليلى: تناولي بعضاً من هذا يا ماجدة.

ماجدة: شكراً.. دعيني أنا أصب الشاي.

(تخرج ليلى).

ماجدة: لا شك أنك تحس انفعالاً وإثارة شديدين.

شوقي: لا أستطيع أن أقول إنني أشعر بشيء من ذلك.

ماجدة: (وهي تتنهد وتنظر إليه بإعجاب) لو كنت مكانك لشعرت بذلك.. بل لطاش صوابي سروراً وانفعالاً.

شوقي: إني أرحل معتمداً على الحظ كما تعرفين.. وليس ثمة ثروة في انتظاري.

ماجدة: هذا هو أهم ما في المغامرة.. فأنت تعرف رغم رحيلك أن ما من شيء مضمون في انتظارك.. علاوة على ذلك الحديث الذي سمعته من الجميع من عدم استقرار الأحوال في أستراليا.. ومع ذلك فقد أصررت في شجاعة على الذهاب.. الحق أنك جعلتني لا أرضى عن بقائي هنا.. وأصبحت لا أشعر برغبة في الذهاب إلى المتجر.

شوقي: (في هدوء) سوف تتغلبين على هذا الشعور.

ماجدة: أرجو ذلك.

(تدخل ليلى وهي تحمل الخبز المقدد وتضعه بجانبه).

شوقي: (ملتفتاً نحوها) أرجوك يا مدام ليلى، لا تحضري شيئاً آخر.. فلن أستطيع أن أتناول كل هذا..

ليلى: إن أمامك رحلة طويلة لكي تصل إلى السفينة.

شوقي: ليست طويلة إلى هذا الحد.. ثم إن معي هذه الشطائر التي صنعتها لي (يضع يده على ربطة الشطائر بالقرب منه).

ليلى: أأنت واثق أنها كافية.. أستطيع أن أجهز لك في الحال عدداً آخر.

شوقي: إنها أكثر مما يجب.. والحق.. لست أدري ما الذي سأفعله بكل هذا العدد.

ليلى: سأضع لك تفاحة أو تفاحتين مع الشطائر.

شوقي: كلا.. لا تفعلي..

ليلى: إن لهما مكاناً في الربطة.

شوقي: (مستسلماً) أشكرك جداً.

(يدخل رفيق).

ليلى: هل حضرت؟ أجلس إذن يا عزيزي وتناول طعام الإفطار الآن.

رفيق: سأتناوله فيما بعد. أنت هنا يا ماجدة؟

ماجدة: طبعاً.. أيدور بخلدك أن يحدث هذا الحدث العظيم.. دون وجودي؟

(ليلى وماجدة تخرجان).

شوقي: (مبتسماً) إن الآنسة ماجدة تنظر إلى الأمر كأنني ذاهب إلى رحلة عادية ممتعة.

رفيق: (وهو شارد الذهن) حقاً؟

شوقي: لو أنها ذهبت إلى أستراليا لحظيت بزيجة طيبة... إن علامات القوة والصحة تبدو عليها.. وهذا النوع من الفتيات يختطفونه هناك اختطافاً وفي أسرع وقت.

رفيق: أسوف تستقل قطار الساعة العاشرة والربع؟

شوقي: (في دهشة) نعم. لماذا؟ أتريد أن تشيّعني إلى المحطة؟

رفيق: هناك قطار آخر يقوم في الثانية عشرة.

(يكف شوقي الذي كان يتأرجح بمقعده إلى الأمام والخلف عن حركته عندما يقترب منه رفيق).

شوقي: أهناك قطار في هذا الميعاد؟ لست أعرف.. ولكن ماذا يدعوك إلى..

رفيق: (وهو يخفض من صوته) إصغ إليّ أيها الصديق.. هب أنني ذهبت معك أيضاً..؟

شوقي: ماذا؟؟

رفيق: (في صوت أكثر انخفاضاً وانفعالاً) خفِّض من صوتك! إنني لم أنبئ أحداً بما اعتزمته.. ولكنني أعني ما أقول لك.. وأريدك أن تنتظرني وتبحث عني في الميناء.. فسألحق بك في القطار التالي.

شوقي: ولكن.. يا رفيق.. أريد أن أقول لك..

رفيق: لا تقل شيئاً، فقد أعددت كل شيء، ولا فائدة من أي جدال.. لأنني قررت نهائياً. سوف أخرج من المنزل كالمعتاد.. واستقل القطار التالي لقطارك وألحق بك في الميناء.. لا تحملق في وجهي على هذا النحو.. فقد درست كل شيء..

شوقي: (مقاطعاً إياه) ولكن هناك زوجتك.. ثم إن أهلك وأقاربك جميعاً ضد الفكرة.. إنك لا تستطيع أن تفعل ذلك.. ولسوف تتغلب على هذا الشعور بعد رحيلي.

رفيق: لن أتغلب على أي شيء، لقد كنت جباناً.. هل فهمتني؟ والآن أخلع الجبن وأرحل.. ولا فائدة من إحاطة ليلى بذهابي، فهي لن تفهم، ولكن عندما أصبح هناك، وأقف قليلاً على قدمي، وأعد لها بيتاً صغيراً نظيفاً.. سيصبح كل شيء على ما يرام. إنها سريعة التأثر، والنساء كلهن كذلك.. وكذلك أبواها.. وأنا أعذرهما لأنهما عجوزان، إن المرء عندما تتقدم به السن يخاف عادة من كل شيء...

شوقي: (مقاطعاً إياه) أتعني أنك سترحل اليوم؟

رفيق: وماذا يمنع؟.. ماذا يمنع؟ إنني لو أرجأت السفر.. لن أرحل إلى الأبد، ومثل هذه الأمور تحتاج إلى بت حاسم سريع وإلا هبطت عزيمة المرء. لقد أعددت حقيبة بها كل شيء.. فعلت ذلك منذ الفجر. وكتبت خطاباً لليلى سأتركه لها.. وقد أخبرتها فيه بكل شيء.. إن هذه هي الطريقة الوحيدة.. ولا طريقة غيرها. أقول يا شوقي.. سوف تقرني فيما أفعل وتساندني؟..

(يبدو شفيق من خارج النافذة).

شوقي: (في قلق) ليكن.. وأنت أدرى بمصلحتك.

رفيق: طبعاً.. لا سبيل غير ذلك.

(يسمع صوت الباب وهو يفتح، وضحكات ليلى وماجدة) من هذا الذي حضر؟ يبدو أنه ذلك الحمار شفيق. (يدخل شفيق وليلى وماجدة).

شفيق: (مخاطباً شوقي) أين ذلك الأحمق؟ لقد جئت لكي أقبله قبلة الوداع أيها الصديق العجوز.

ماجدة: (مخاطبة شفيق) ولكن.. ألا تخشى أن يفوتك قطار الثامنة والربع الذي تذهب به إلى عملك في المدينة..

شفيق: أعرف أنه سيفوتني.. ولست أهتم، إذ أردت أن أودع شوقي.. وأنت يا رفيق.. كيف الحال معك؟ لا يبدو عليك أنك على ما يرام..

رفيق: (ببرود) أنا في أحسن حال... ألا تكون صحتي جيدة إلا إذا ظللت أضحك في كل لحظة ودقيقة؟

شفيق: كلا بالطبع.. ولكني أخشى من أن تكون حمى الرحيل ما زالت تنتابك.. صدقني إن قلت لك إنه لن يمضي أسبوع حتى تجد نفسك راضياً كل الرضا، وستشعر بسعادة لا حد لها وأنت جالس تتناول شايكم اللذيذ بعد ظهر ذات يوم أحد إلى هذه المائدة.

رفيق: (مخاطباً شوقي) أظن موعد انصرافك إلى المحطة قد حان يا شوقي.

شوقي: (ناظراً إلى ساعة يده) لقد حان فعلاً.

ليلى: أأنت واثق من أنك لم تنس شيئاً؟

شفيق: لا تنس أن تكتب.. وأحطنا علماً بالسفينة التي سوف تعود فوق ظهرها.

شوقي: (ضاحكاً) هلا أغلقت فمك؟ أين وضعت قبعتي؟ (يبحث الجميع عن القبعة.. وأخيراً تجدها ماجدة).

رفيق: (وهو يلتقط ورقة من على المائدة) ما هذا؟ ألست في حاجة إليها؟

شوقي: إنها إحدى الخرائط.. لا أهمية لها.. ألق بها في المدفأة.

رفيق: لعلها تكون ذات فائدة مستقبلاً (يفتحها ويثبتها بدبوس في الجدار).

ليلى: نستطيع الآن عن طريقها أن نتابع رحلتك.. أليس كذلك؟

شفيق: لقد أزف ميعادك! حسناً.. مصحوباً بسلامة الله أيها الصديق العزيز.. واسمح لي بأن أتنبأ بأنك ستعود على الفور.. وتذكر ما قلته لك..

ماجدة: (من عند الباب وهي تنظر إلى السماء) يا له من صباح ساطع جميل، إن الشمس تشرق من أجلك يا أستاذ شوقي.. ولا توجد واحدة في السماء.

شفيق: أرجو ألا تنفق كل نقودك قبل أن تجد عملاً. وإذا تصادف وضرب الحظ ضربته ونجحت.. فاكتب إلينا.. مع السلامة (يتجه شوقي نحو الباب والجميع يحيطون به، يخرج ومعه ليلى ورفيق).

(ماجدة تجري بسرعة نحو النافذة وتفتحها حيث تشاهد شوقي وهو يصافح ليلى ورفيق مرة بعد مرة).

ماجدة: (من النافذة لشوقي) حظاً سعيداً.

شفيق: (من النافذة بأعلى صوته) بلغ سلامي لرئيس وزراء أستراليا.. لقد نسيت اسمه.

ماجدة: (تغني من النافذة مقطعاً من أغنية «دعنا نرحل إلى فلادفيا»).

(ينفجر شفيق ضاحكاً، وهو يبتعد عن النافذة).

ماجدة: إن كل شخص يستطيع أن يعلم من منظرك أنك متحمس ومنفعل لرحيل شوقي.

شفيق: إن كان قد قدِّر لشخص أن يكون أحمق يا آنسة ماجدة.. فليسافر إذن وهو.. أحمق سعيد.. والمرح والغناء لا يكلفاننا شيئاً، والآن جاء دوري لأنصرف إلى عملي.

ماجدة: كم قطار قد فاتك من أجل أن تودع شوقي؟

شفيق: اثنان.. على ما أعتقد.. ولكنني أعدك بألا أكرر ذلك مستقبلاً.

(يخرج شفيق).

(يدخل كل من رفيق وليلى).

ليلى: (وهي تجفف دموعها) لقد ذهب إذن.. يا له من مسكين، أسأل الله له النجاح.

رفيق: (في هدوء وانشراح) سوف يوفق حتماً.. إنه ممن يستطيعون مواجهة الصعاب.

ليلى: مما يدعو إلى الأسف أنك لا تملك من الوقت ما كان يساعدك على مرافقته وتوديعه في المحطة.

رفيق: ليس هذا ضرورياً.

ليلى: سأذهب لإعداد إفطارك.

(تخرج).

رفيق: لست أتعجل الإفطار.

ماجدة: (وهي تتفرس في الخريطة المثبتة على الجدار) إنها مساحة شاسعة.

رفيق: يستطيع المرء على الأقل أن يستنشق هواء نقياً هناك.

ماجدة: (ملتفتة فجأة إليه) لن ترحل إذن بعد كل ما حدث؟

رفيق: أوه! كيف لي أن أرحل يا ماجدة؟

ماجدة: إن في رحيلك مزايا عديدة طبعاً.

رفيق: إن المسألة مسألة شجاعة.. أو تقاعس ولست أدري أيهما أختار.. ولكنها فكرة جنونية لا شك، وكل شخص يستطيع أن يدرك ذلك.. مهما كان معتوهاً.

ماجدة: أنت لست بمعتوه ولكن الآخرين هم المعتوهون. لو أنك استطعت أن تذهب. فإن ليلى ستكون في أمان، وقد تحزن قليلاً في أول الأمر.. ولكنها لن تلبث أن تصبح على ما يرام.. ولن يتغير شعورها نحوك، فهي من النوع الذي لا حدود لحبه ووفائه.

رفيق: ولكن فكري فيما سوف يقوله الناس.

ماجدة: وهل تغلبت على شعورك بالرغبة في الرحيل؟

رفيق: وماذا عساي أن أفعل؟ سوف أستقر هنا.

ماجدة: تستقر وماذا هنا يدعو إلى الاستقرار؟

وإذا كنت أنا.. قد رفضت الاستقرار.. فهل تستقر أنت؟

رفيق: ماذا تعنين؟

ماجدة: (في زهو) لقد فسخت خطبتي لفريد.

رفيق: (في دهشة) وماذا جعلك بحق الشيطان تفعلين ذلك؟

ماجدة: كان كل ما حدث بسبب أستاذ شوقي..

رفيق: شوقي..!! هل تحبين أستاذ شوقي..؟.

ماجدة: (في ضجر) يا إلهي كلا يا عزيزي لست أحمل له ذرة من جدل

حول رحيله.. إنني إنما أتزوج فريد ليس لأنني أحبه، ولكن من أجل أن أؤمن حياتي وأن الخوف على مستقبلي هو الذي يدفعني إلى زواجه وعلى ذلك عدلت عن الزواج منه. أقول لك ذلك لاعتقادي أنه إذا كانت فتاة صغيرة مثلي تستطيع أن تواجه مخاطر المستقبل، فمن المؤكد أن الرجل يستطيع أيضاً. (تتنهد) ولكن يبدو أن لا جدوى من إقناعك..

رفيق: (في تردد) ماجدة (متفرساً في وجهها) ماذا تكون حقيقة رأيك فيّ.. لو أنني ذهبت؟

ماجدة: (في استغراب) ماذا؟ أتراك سوف تذهب أخيراً.. يا رفيق.

رفيق: أفرضي أنني لم أستسلم.. وأنني ذهبت..

ماجدة: هل تعني أنك قد عدلت عن...

رفيق: (مقاطعاً إياها) أعني ليلى.. هل أنت متأكدة من أنها لن تضار..؟ إذا كان الأمر كذلك فأنا سأرحل حتماً بصرف النظر عن كل شيء.

ماجدة: سأكرس نفسي من أجلها، وستصبح في خير حال بعد أسبوع واحد من رحيلك.. ولن أضن بشيء في سبيل ذلك.

رفيق: ولكنني إن رحلت فينبغي أن يكون ذلك فوراً.. فوراً هل فهمت؟

ماجدة: أجل.. أجل..

رفيق: وإذا أعتقدت ليلى أنني وحش لأنني تركتها بهذه الطريقة.. فوضّحي لها الأمر.. وكوني في صفي.

ماجدة: تقول «بهذه الطريقة» لا أفهم ما تعني.

رفيق: لقد أزمعت نهائياً الرحيل اليوم يا ماجدة.. وأعددت كل شيء من أجل ذلك.. وكتبت ورقة لليلى. أما من ناحية النقود فلسوف أترك ما يكفيها.. وبعد وصولي بوقت قصير، سوف أستدعيها لتلحق بي.. هذا أمر أنا متأكد منه، وعند ذلك سيغمرها الفرح لأنني غامرت وسافرت. قد أبدو وحشاً إذ أتصرف هكذا.. وأرحل دون علمها.. ولكن الظروف تحتم عليّ ذلك (تسمع طرقات ساعي البريد على الباب الخارجي) صه إن ليلى قادمة.. إياك أن تنبسي لها بحرف واحد مما ذكرته لك..

ماجدة: أأنت جاد حول رحيلك اليوم..؟

(تدخل ليلى وهي تحمل الخطابات).

ليلى: ها هو البريد.. خطابان لك يا عزيزي..

(تعطي الخطابين لرفيق.. ولكنه لا ينظر إليهما.. بل يتجه نحو الخريطة).

ماجدة: (مسرعة) سأعود بعد قليل لنذهب معاً إلى المحطة ومنها إلى العمل في المدينة.

رفيق: لا مانع.

(ماجدة تهرول خارجة).

ليلى: لا شك أنك على استعداد لتناول إفطارك الآن ولن يستغرق ذلك منك وقتاً طويلاً.

رفيق: لست جائعاً جداً.

ليلى: كان جميلاً من أستاذ شفيق أن يحضر لتوديع شوقي.. أليس كذلك؟

رفيق: نعم.. كان تصرفه كريماً.

ليلى: (أثناء تناول رفيق لإفطاره) إنهم جيران ظرفاء حقاً، ونحن محظوظون إذ ظفرنا بجيرتهم.

رفيق: نعم.. لقد استيقظت مبكراً جداً هذا الصباح ولسوف يحلّ بك التعب هذا المساء.

ليلى: إن هذه المناسبات لا تحدث إلا نادراً.. ونحن في الواقع نحسن تنظيم أوقاتنا.. ولسوف أحظى بساعات من الراحة أكثر في المستقبل. أليس كذلك؟

رفيق: (وهو ينتهي من الأكل فجأة) نعم.

ليلى: لقد خطر لي يا عزيزي أننا قد نشعر بشيء من الوحدة الليلة بدون أستاذ شوقي.. فما رأيك في أن نذهب إلى المسرح.. أو إلى..

رفيق: (مقاطعاً) لماذا؟ كلا.. لا أعتقد أنني أحب ذلك.

ليلى: أتفضل أن ندعو شفيق وزوجته لنلعب الورق؟

رفيق: (وهو ينهض) كلا.. لن ندعوهما.. فلست أهتم بهذا الأمر، إلا إذا كنت أنت ترغبين في ذلك يا عزيزتي.

ليلى: على العكس.. سأكون سعيدة جداً إذا أمضينا الوقت في بيتنا بمفردنا. وكم سرني أنك تفضل ذلك يا حبيبي.

رفيق: كنت عصبياً بعض الشيء مع من حولي في الفترة الأخيرة.. أليس كذلك؟

ليلى: ستشعر الآن بتحسن.. وسوف تهدأ أعصابك.. متى ستعود بعد ظهر اليوم يا عزيزي؟

رفيق: (في شيء من الاضطراب) أعود في نفس الميعاد الذي اعتدت أن أعود فيه طبعاً.

ليلى: لعلّك لا تتأخر يا عزيزي.. فلدي ما سوف أقوله لك بعد عودتك.. إنه نبأ سيسرّك.. على ما أظن.

رفيق: حقاً؟

ليلى: أتحب أن تسمعه الآن؟

رفيق: أهو نبأ هام؟

ليلى: يبدو أنه كذلك.. لأنه سيفرض عليك أن تكون من الآن فصاعداً رجلاً صالحاً.. وستجد نفسك مضطراً إلى أن تكون قدوة تحتذى.

رفيق: (في قلق) ماذا تعنين؟

ليلى: ألا يمكنك أن تخمّن؟ ما أبطأ تفكيرك، أنحن قليلاً ودعني أقول لك (تجذب وجهه إلى أسفل وتهمس في أذنه).

رفيق: (وهو يرفع رأسه) ماذا يا إلهي (يحتويها بين ذراعيه) أهذه حقيقة مؤكدة؟

ليلى: نعم يا عزيزي.

رفيق: ليلى.. إنني.

ليلى: إنك سعيد.

رفيق: طبعاً يا حبيبتي.

ليلى: أليس جميلاً أن يفكر المرء في أمر مثل هذا؟ وهل تستطيع أن

تتصور أمي وقد أصبحت جدة؟ إن النبأ سيثير ضجة! ما هذا؟ ما لك تقف مبهوتاً هكذا؟ اذهب وارتد ملابسك لتذهب إلى عملك.. وهذان الخطابان.. إنك لم تفتحهما.. إن الباب يدق، لا بد أنها ماجدة قد عادت.

(تخرج ليلى وتعود بعد لحظة ومعها ماجدة ويقابلان رفيق وهو خارج من الحجرة فتحدق ماجدة النظر في وجهه).

ماجدة: ماذا كنت تقولين لرفيق يا ليلى؟

ليلى: لماذا؟

ماجدة: يبدو لي مضطرباً بعض الشيء.

ليلى: قد يكون.. إن الدهشة قد تملكته تماماً في الواقع.. ولكن هذا شيء طبيعي.

ماجدة: (تغلق الباب وهي تتفرس في وجه ليلى) عمّا تتحدثين؟

ليلى: ما هو الشيء الذي أفضيت به إليه يجعله سعيداً أكثر من أي شيء آخر..؟

ماجدة: لست أعرف طبعاً.

ليلى: ماذا يحدث عادة عندما يتزوج الناس؟

ماجدة: (وقد فهمت) آه تقصدين هذا؟ ولكن.. ليلى.

ليلى: إن تشارلي قد ابتهج جداً.

ماجدة: (متحدثة بلا شعور عما يخالجها) إذن فلقد أرغمته أخيراً.

ليلى: (في غضب) ماجدة.

ماجدة: لماذا لم تخبريه سوى الآن؟

(تخرج ليلى وهي غاضبة بعض الشيء، يدخل رفيق وقد ارتدى ملابس المكتب).

ماجدة: رفيق؟

رفيق: ماذا حدث؟ لا تصدعي رأسي يا ماجدة.

ماجدة: والآن..

رفيق: دعينا من هذا الأمر.. لقد كنت أحمق منذ البداية.. لقد انتهى كل شيء.

ماجدة: ولكن..

رفيق: كنت مجنوناً.. إن الرجل لا يستطيع أن يفعل أي شيء يخطر على باله.. إن الموقف الآن أفضل من أي وقت مضى، ولو لم يحدث ما أنبأتني به ليلى لرحلت.. وتورطت في متاعب لا حصر لها وورطت ليلى معي..

ماجدة: ولكن إذا..

(تدخل ليلى).

ماجدة: (لرفيق) لا أستطيع أن أنتظر أكثر من هذا.

رفيق: لا تتعبي نفسك.

ماجدة: إلى اللقاء (تخرج).

ليلى: أنت لم تفتح خطابيك يا عزيزي.

رفيق: انظري ماذا بهما.

(تفتحهما).

ليلى: بخصوص الإعلان.. ردود سريعة.

رفيق: (بسرعة) دعي ذلك إلى ما بعد.

ليلى: هل أعددت نفسك للخروج؟

رفيق: (وهو يحرك رقبته بمشقة في الياقة البيضاء العالية) نعم.. ولكن هذه الياقة اللعينة.

ليلى: مما يدعو إلى الأسف إنهم يصممون على أن ترتدوا مثل هذه الأشياء.

رفيق: إن لي رقبة قصيرة.. لا ينبغي أن يعمل ذوو الرقاب القصيرة كموظفين في المكاتب، لأن رقابهم لا تتلاءم مع هذه الياقات.

ليلى: يا لها من فكرة.

(يقف رفيق محدقاً في الخريطة المثبتة في الجدار بعض الوقت. وفجأة يجذبها ويمزقها إرباً، ويلقي بقصاصاتها في المدفأة).

رفيق: إلى اللقاء يا ليلى (يقبّلها).

ليلى: إلى اللقاء يا عزيزي.

(يلتقط قبعته السوداء وقفازيه، وعندما يصل إلى الباب يضع القبعة فوق رأسه).

ليلى: (تسرع نحو الباب) مع السلامة.

رفيق: (من الخارج) سلمت يا عزيزتي.

(تسمع ليلى بعد قليل صوت الباب الخارجي وهو يغلق، فتنطلق في الغناء):

فلتحصوا نعم المولى واحـــدة.. واحـــدة
احصوهـــا لتعلموا إنـهـــا.. متعددة

الخ.....

تمت

وقفات مع الفن والجمال والحب

آراء في الفن والجمال

كان الفن في جميع عصوره بعيداً عن الطبيعة، وهذا الابتعاد يقل أو يكثر بالنسبة لمزاج الفنان ومؤثرات الحياة في طبيعة العصر.. فيكون انحراف الفنان دقة نظر وبعد بصيرة تجعله يبرز أشياء لا يراها غيره، أو يكون، محاولة للتنسيق بين التنافر، أو إيجاد التنافر في المنسق، بحيث يبدو التنسيق أو التنافر، عملاً من إحساس الفنان بالجمال الذي لا يراه سواه.

* * *

لكل فنان عالمه الخاص، وله زمانه الذي يفضل أن لا يعيش سواه.. ونجد ذلك واضحاً في ما ترك كبار الفنانين من روائع.. بوتشيلي مثلاً.. له عالم الفتوة والشباب.. بحيث لا نرى فيما ترك غير هذا العالم الذي ينبض حركة ونضرة وعنفواناً، ومع الفتوة والشباب، نجد زمانه الخاص.. هو الصباح.. والربيع.. والصباح فتوة الزمن، والربيع شبابه المتجدد الحافل دائماً بالعطاء.

* * *

لا يزال الفن سلعة تعاني انصراف الناس عنها.. ويكفي أن نرى كيف يزدحم دكان الجزار بالعملاء، لندرك أن مطلب المعدة لا يزال أهم ما يجهد البشر لتلبيته. ويبدو أن لا سبيل إلى التخفيف من هذا الجشع، إلا يوم يستطيع العلم، أن يقدم لك وجبة كاملة في (برشامة) لا تكلفك أكثر من بضع

هللات.. يومها سيزدحم كل معرض من معارض الفن بالعملاء، والقادرين على الشراء.

* * *

من السهل أن يتفق الناس، على جمال وردة أو ورود في حديقة.. وعلى جمال بحيرة من بحيرات سويسرا.. ولكن ما أصعب أن يتفقوا على جمال الإنسان.. إذ الإجماع على أن إنساناً ما جميل، يندر أن يتم.. حتى بالنسبة لفينوس، فما أكثر من يرون أنها ـ وهي من صنع فنان ـ جمال ركب تركيباً هندسياً روعيت فيه المقاييس، ولن يخضع الجمال لمقياس.

وفي قصص الحب الكبرى، التي شهدها هذا القرن، كان الرجل يرى في المرأة التي ضحى في سبيلها بكل شيء، نوعاً من الجمال، لم يستطع أن يراه العالم.

وقد يرى العالم، أن إنساناً ما تتوافر له كل صفات الجمال.. ويظل هناك، من لا يرى من هذا الجمال مهما سطع وتألق..

* * *

الصدق الفني لا يقل نبلاً وشرفاً عن الخلق القويم.. كلاهما ينبعان من ينبوع واحد.. وهو ذخيرة شعورية تملأ الضمير، فتعينه على تأمل الحياة، ورؤية العميق المستور من أسرار جمالها وقبحها.. ومن هذا الصدق، يأتي العمل الفني الكبير.

* * *

كما تغيرت مفاهيم كثيرة، في المرحلة بعد الحرب العالمية الثانية على الأخص، تغيرت أيضاً مفاهيم الجمال بالنسبة للذوق، وبالنسبة للفن أيضاً.. وإذا كان الجمال موضوع الفن الأصيل، فإنك تستطيع ان ترى الحد الذي

بلغه تغير المفاهيم، حين يتاح لك أن ترى كيف تبدو قسمات المرأة (مثلاً) في الأعمال الفنية الحديثة..

* * *

نقد الفن.. يسهل على الكثيرين أن يمارسوه وكل سلاحهم أو عدتهم قدرة هزيلة على التعبير، وومضة من إحساس بمواطن الجمال في التعبير الفني.. وعلى حساب المحاولة الهزيلة في نقد الأكابر من رجال الفن والفكر يخدعون الكثيرين، وقد يرون أنفسهم في مستوى من التقدير يبنيه عوام الفكر من الذين لا يعجزهم أن يصفقوا لكل ناعق.. ولكن هنا الخطر حقاً.. إذ إن ذلك هو طريق الهاوية والاندثار.

* * *

مقياس الشعر، الذي يتم به تقييمه ووزنه وتقديره، عند أصحاب مدرسة الفن للفن.. هو مقدرته على التأثير في القارئ بطريقة عفوية.. تشبه السحر. وهم يشترطون في تقييم الشعر فناً للفن.. أن يتوافر فيه العنصر الغنائي أو الموسيقي.. ويقولون إن الشعر موسيقى.. تترقرق فيه مادة الصدحة من حنجرة، وجيد نافر، والشهقة من ناي يتكسر على صخب النار يبعثها حريق القلب.

* * *

الشعر فوق أساليب الكلام.. ولا ينبغي أن يخضع للتحليل اللغوي، أو لمنطق الفيلسوف، وحين تتوافر في الشعر خصيصة الصدق الفني، يمتنع على الترجمة والنقل إلى لغة أخرى، لأن لغته التي كتب بها هي وحدها القادرة على أن تحمل معانيه.

* * *

قالوا: للخط المنحرف جمال ناشئ عن معناه.. إذ يمثل الرشاقة والنعومة، ويعبر عن الحركة والتموج والالتفاف.

أما الخط المستقيم.. فما أسهل أن تكتشف سذاجته مهما امتد واعتدل..

* * *

في تعريف أفلاطون للجمال، إنه التناسق والاتزان والوحدة والانسجام، وعنده أن هذه الصفات، لا تقف عند الشكل أبداً، وإنما تتعداها إلى المحتوى.. إلى المعاني والأفكار..

وكأنه أراد أن يقول، إن الجمال كلمة مرادفة.. للفضيلة والطهر والعدالة والحق..

قد يخلو الشعر من العاطفة ويبقى مع ذلك من الشعر الرفيع، وشعر البحتري ـ على سبيل المثال ـ لا يستهويك بما فيه من عاطفة أو فكرة، وإنما بقدرته الرائعة على النحت والتصوير ورشاقة اللفظ وحسن النغم.

* * *

ألفاظ الشعر، لا بد أن يحسن الشاعر اختيارها، فيتوخى في انتقائها الجرس الحلو والرنة العذبة، والانسياب مع المعنى.. وهذا مع الابتعاد عن الوحش والمهجور من مفردات اللغة..

في تعريف للرشاقة قيل: إنها سهولة الحركة التي أساسها التوازن واعتدال الشكل، وفي تحديد ـ قد يرفض للوجه الجميل قيل: إنه البادئ المنبسط الأساس الذي تنعكس فيه نفس صافية، متزنة لا تؤثر في هدوئها أعاصير الحياة..

* * *

التوافق والتناغم، أهم أسس الجمال.

في الموسيقى، لا يدخل النغم قلبك، إلا حين تتلاءم الأصوات، وتأتلف، وتتلاحق الأنغام والمقامات، دون أن تبتعد عن المقام الذي تبنى عليه المقطوعة. في الرسم.. توافق الألوان والخطوط.. وليس التوافق رصفاً لألوان الطيف، وإنما هو القدرة على أن تجعل من التنافر توافقاً في الإحساس بالجمال.

وفي الشعر.. ما أشد ما يخسر فنه، إذا فقد القدرة على أن يعطيك تجربته في صدق وتناغم وتلاحم في موسيقى الكلمة، مع الفكرة والتجربة.

* * *

الظلال المحسوسة، ليس من يجهلها، ولذا فهي التي يستطيع أن يتلاعب بها الفنان فيما تبدعه ريشته من الأعمال.. ولكن هناك ظلال، تمتد في الذهن والتصور حتى لتراها عين التخيل العميق.. وتلك هي التي يعجز عن إظهارها فن الرسام مهما عظم.. وتطاوع الشاعر والأديب فيما يرسمه بالكلمات.

الترجيع، هو تناوب الكلمة أو الجملة الواحدة، في مقطوعة شعر..

ولكنه لا يقتصر على الشعر أو النثر، وإنما نجده في الرسم أيضاً، إذ قد تتكرر حركة الظل هنا، لتفاجئها حركة الضوء هناك،.. أكثر من مرة، فهو ترجيع اللون والظل وفي الموسيقى ما أكثر ترجيع الجملة الموسيقية الواحدة في الغناء العربي على الأخص، ولا تخلو منه الموسيقى الغربية، حتى في السيمفونيات الضخمة.

* * *

ليس تعدد الألوان والظلال وازدحامها فناً.. وليس البريق والتألق في

رداء السهرة ذوقاً من أذواق الفن. . وليس تزاحم الأصوات وضجيجها في لحن من الألحان، عملاً فنياً، ولهذا، كانت الزخرفة المغرقة في التشابك عملاً يدل على ضيق الأفق، وكان رداء السهرة الذي يشتد فيه البريق والبهرج وتصرخ معه الألوان، ذوقاً بدائياً منفراً. . وكانت الموسيقى التي تتزاحم فيها الأصوات، دون توافق وانسجام، مجرد ضجة من حقك أن نصر على أن تبعد عنها أذنيك.

يقول المثال الأمريكي ديفيد سميث:

أنا لا أعمل بانتباه وتركيز راسخ حين أعالج إبداع تمثال. . إني أترك الباب مفتوحاً للتغيير وللجديد من التداعي فيما يتلاحق في الخيال. . ينبغي أن تتاح الفرصة للاحتفال بالقادم الجديد. . فجأة وعلى غير انتظار. .

الضد يظهر حسنه الضد. . لا تزال هذه الحقيقة عماد الفن، فلا سبيل إلى الظل إلا بالضوء. . ولا قيمة للألوان إلا بتعانقها مع تباعد ما بينها من عناصر الألفة والانسجام ولا يرتاح النظر إلا إذا مالت الخطوط، وانحنت، وأخذ بعضها يلتف على الآخر.

ديفيد سميث، وهو فنان أمريكي، كان يبتكر أعماله الفنية، في تماثيل مصنوعة من الحديد. يعده النقاد أعظم فناني «النحت» في القرن العشرين.

ومما نشر عنه في نيويورك تايمس قول أحد كبار النقاد: (ليس هناك فنان ممن عاصروه استطاع أن يقدم كتلة من الأعمال الفنية توافر فيها التنوع في الخيال، والروعة في الصنعة، والتوفز في الإحساس، كما استطاع ديفيد سميث. . ومن أقوال ديفيد سميث:

حين أمارس عملي، فإن قافلة الأفكار في ذهني، ليس لديها كلمات تعبر عنها. . إن كل ما نقدمه هو المرئي المشهود. . فاللغة في هذه اللحظات، هي الصورة. .

فنان العصر، كشاعره وأديبه، يواجه الحياة، وقد ازدحمت بالكثير مما طرق الأولون من مواضيع الفن، ومن المعاني، وهو بروحه الفنية، وبتطلعه إلى الأصالة، يحاول أن يجد الجديد، مما لم يسبق أن عولج، أو طُرق خلال القرون الخوالي.. ويندر أن يكون ذلك سهل المثال.. ومن هنا جاءت المدارس الحديثة التي ترفض كل ما عرف من القواعد والأصول وتصر على أن تبتدع الجديد الذي لم يسبق إليه.. ومن هنا أيضاً ظهرت الانتفاضة على الوزن والقافية في الشعر.. ولكن، السؤال الذي يطرح نفسه هو ماذا يمكن أن يتمخض عنه هذا الرفض، إذا لم يتطور إلى شيء فيه النظرة التقليدية العريقة إلى الجمال.. والجمال كان وسيظل موضوع الفن.

* * *

كل فنان.. يؤكد أصالته، إذا استطاع أن يقدم عالمه الخاص..

والعالم الخاص الذي يراه الفنان.. قد يكون الألم والتمزق تحت أثقال الحياة، وقد يكون الفرحة الطافرة والبهجة الفائرة، وقد يكون التأمل الذي يذهب إلى الأعماق، في المنظور والمسموع، وفي خفايا النفس أو في انعكاس خفايا نفسه هو، على تفاعل الأضواء والظلال.

* * *

لا يوجد فن.. وإنما الموجود فنانون.. وكل التراث من كنوز الفن، ليس سوى أولئك الذين تركوا لنا على القماش، والمرمر، والبرونز، وفي بطون الكتب، وفي سمع الزمان، نفوسهم ومشاعرهم، أحزانهم، وأفراحهم.. آمالهم، وهزائمهم.. نجاحهم وفشلهم تركوا.. كل ذلك، لنا.. ودائع.. علينا أن نرعاها، ما دمنا على وجه هذه الأرض.

أقصى ما يصل إليه إعجاب الكثيرين، وهم يتأملون عملاً فنياً، أن

يقولوا: ما أشبهه بالواقع أو (كأنه الواقع).. ولكن الذي يعاني التجربة الفنية ويدرك مراحل مخاضها، يرى في العمل الفني أكثر من المشابهة.. يرى روح الرسام، وانفعال وجدانه بالمنظور.

* * *

قد تكون لدى الفنان فكرة.. يشعر بها تهز أعماقه، ويبلغ من إحساسه بها أن يرى ألوانها وظلالها، ومع ذلك، يظل لها سراً أعمق من أن يدركه.. وإلى أن تبوح له بهذا السر، يريق على الكانفاه، الكثير، الذي يعرف أنه ليس هو السر.. ليس هو الفكرة التي يعيشها.. وتمضي الأعوام.. وفجأة.. تقول له الفكرة ها أنذا قد آن لك أن تراني على حقيقتي.. في هذه الفكرة وحدها، يبلغ الفنان القمة التي يظل يصعد إليها عبر الكثير من الألم والعذاب والمعاناة.

بالفن وحده نستطيع أن نخرج من أنفسنا ونعرف ما يراه غيرنا في هذا العالم.. ونحن عندئذ لا نرى عالماً واحداً، وإنما نرى عوالم لا حصر لها.. وبقدر ما يكون لدينا فنانون كبار، تكون لنا عوالم ويختلف كل منها عن الآخر.

أغرب المتناقضات في إنسان هذا العصر، أنه جريء إلى الحد الذي جعله يمشي على سطح القمر.. وجبان إلى الحد الذي يجعله يهرب من واقعه إلى الكثير من وسائل الهرب، ومنها ظاهرة الهيبيين على سبيل المثال.. يعمل للحرب والمواجهة، فيختزن ما لا يحصى من القنابل الذرية العابرة للقارات.. ويصرخ مطالباً بالسلام إلى الحد الذي تمتلئ فيه شوارع العواصم العالمية الكبرى، بنداءات السلام وشعاراته.

والفن مطالب بأن يعبر عن هذا الواقع.. عن التناقض في حياة العصر.. ولا يملك الفنان إلا أن يدعو للسلام في أغلب الأحيان.. ولكن الكثير من

ألوان الفن الحديث، تعطيك بقتامها وظلامها، صورة من المآساة.. مأساة الحرب والسلام.

* * *

ليست هناك لغة في العالم، توافرت لها خصيصة الحرص على الجرس والنغم، والتوافق في مخارج حروف اللفظ، والانسجام بين كلمات الجملة الواحدة، مثل ما توافر للغة العربية.. ويظهر هذا أشد الوضوح في القراءة المنغمة.. حتى لتكاد اللغة العربية أن تكون الوحيدة بين لغات العالم التي يسهل تلحين وتنغيم أي نص من نصوصها شعراً أو نثراً.. حتى ولو كانت لغة الصحف في هذه الأيام..

يصعب على الفنان الأصيل أن يحدثك عن فلسفته فيما تبدعه ريشته، لأنه لا يبدع من مركز الوعي، وإنما من أعماق في ضميره ووجدانه، قد يعجز هو نفسه أن يدرك مداها ولذلك، فالناقد الفني، الذي يتجرد من العوامل التي يخضع لها الفنان، هو الأقدر على أن يدرك فلسفة الفنان.

الوعي واليقظة في تناول الموضوع الفني، قد يكونا عقبة في طريق الإبداع، إذ ليس الفن عقلاً وإنما هو انسياح مع المشاعر التي كثيراً ما تكون غامضة، لا يدري عنها عقل الفنان شيئاً ولكن وجدانه ودنياه أو عالمه الداخلي هو الذي يوحي بها، ولذلك، فالقاعدة والأصول ليسا كل شيء بالنسبة لعمل الفنان.

يقول الياس أبو شبكة: الشاعر الحقيقي لا طاقة له على اختيار اللفظة.. وعندي أن الشعر يهبط مرتدياً ثوبه الكامل.. وهذا الثوب جزء من الشعور لا يتجزأ.. وبقدر ما تكون ثقافة الشاعر من الرقي والذوق والموسيقى في روحه ووجدانه، يكون البيان راقياً في شعره.

أقصى ما يصل إليه إعجاب الكثيرين، وهم يتأملون عملاً فنياً، أن يقولوا: ما أشبهه بالواقع أو (كأنه الواقع).. ولكن الذي يعاني التجربة الفنية ويدرك مراحل مخاضها، يرى في العمل الفني أكثر من المشابهة.. يرى روح الرسام، وانفعال وجدانه بالمنظور.

المكان ـ طولاً وعرضاً وعمقاً ـ هو مجال الفن التشكيلي.. لا سبيل إلى لوحة تنطلق من قيد المكان.. والضوء قيد آخر، إذ لا سبيل إلى رؤيا دون ضوء.. ومع ذلك فإن الفنان كثيراً ما يحاول أن يجمد الزمن في موضوعه.. فترى اللوحة، وسرعان ما تدرك أن الزمن الذي سجله أو جمده الفنان، هو الفجر أو الظهيرة أو الغسق.. أو حتى الليل والقمر بدر.. والنجوم والكواكب تتلألأ وتتألق.. وبذلك يستطيع أن يستسلم لقيد المكان، وأن يقيد هو الزمان.

❊ ❊ ❊

حين يشرع الفنان في دفق ألوانه وظلاله، والشاعر في صياغة معانيه، والموسيقار في كتابة ألحانه.. لا يستهدفون مستوى معيناً من الثقافة والفكر.. وإنما كل هدفهم إبداع الصورة الجمالية كما يرونها وكما تمتد لها الأشعة في ضمائرهم.. ومن هنا، كان الفنان الأصيل أبعد الناس عن تعلق الجماهير.

❊ ❊ ❊

تولوستوي، مؤلف قصة آنا كارانينا يعرف الفن فيقول: (يمر الفنان بتجربة تثير في نفسه شعوراً معيناً ثم يعبر عن هذا الشعور، إما بالحركات أو الأصوات أو الألوان، أو الكلمات والأوزان، فالفن نشاط إنساني وجداني يعبر عنه الفنان تعبيراً واعياً، وهو بهذا يوصل أحاسيسه التي عاشها وجرّبها إلى الغير.

الجمال هو النعمة التي تفسر لنا معنى الخلود.. ليس لوناً، ولا مقاييس، ولا شذى ولا تناسق.. كلا.. وإنما هو مفهوم يبلغ من وضوحه أن يتعذر عليك أن تعرف كنهه.. هو غموض الوضوح.. وهكذا الخلود الموعود.. إنه كون لا حصر له ولا حدود.. وحده هو الذي لا يطوقه الزمن، ولا يحاصره مكان..

❊ ❊ ❊

الغموض الذي أصبح من بعض سمات الفنون، ومنها الشعر، في العصر الحديث، ليس شيئاً أو ظاهرة عفوية.. إنه في حد ذاته فن.. إنه القدرة على أن يعطيك الفنان ما يشبه الأجنحة التي لك أن تحلق بها لترى عوالم وأكواناً، يجوز أن لا يكون الفنان نفسه قد رآها، ولكن الإبداع هو في قدرته على أن يجعلك تراها.

❊ ❊ ❊

ليس للكون حدود يحيط بها أو يتسع لها عقل الإنسان.. ومع ذلك، فإن الانطلاق على أوسع حدوده أو إلى اللا محدود، يعتبر في حد ذاته إحاطة.. غامضة دون شك، ولكن الغموض مسرح للخيال.

وكون الفنان شيء من هذ القبيل.. إن عالمه كون لا حدود له.. التفاتة عابرة تكشف له ما قد يبدو مهولاً لمن يراه، ولكنه المعلوم الحقيقي بالنسبة له.. والقدرة على رصد ما كشفته له هذه الالتفاتة العابرة، هي التي تكشف بدورها عن أصالته، وعن قوى الإبداع فيه.

❊ ❊ ❊

يتعذر أن يلغي الفنان ذاتيته لينصهر في المجتمع ويذوب فيه..

وقد يأخذ عليه النقاد انفصاله عن الواقع في مجتمعه، ولكن ذاتيته نفسها

تمثل في الواقع حرية الفن.. ولا حياة للفنون، بين الجدران وراء القضبان التي يقيمها الالتزام.

❊ ❊ ❊

الشجرة العجوز، كم واجهت من عواصف الشتاء.. وكم هبت عليها نسمات الربيع.. بكت فتساقطت أوراقها الخضر في الخريف.. وضحكت، فسطع على أغصانها الورق والزهر ولكنها لم تتكلم قط.. ظلت تلتزم الصمت.. وجاء الفنان.. هو وحده الذي فهم أشجان الشجرة العجوز.. هو الذي أوغل في أعماقها.. في ما وراء لحائها، وفي ما تحت جذعها من جذور.. وبريشته وألوانه، أراق مشاعر الشجرة العجوز.. جعلها تقول ما لم يسبق لها أن قالته قط.

❊ ❊ ❊

الفرق كبير بين فنان ينتزع مواضيع عمله الفني من واقع مجتمعه كما يراه ويراه غيره حتى من عابري السبيل، وفنان ينتزع نفس المواضيع من هذا الواقع، كما يراه ولكن في محاولة جادة التعمق هذا الواقع واكتشاف احتمالات تطوره عبر الزمن.

قد يسمى هذا الفنان ناقداً.. ولعلّ نقاده يضيقون بطموحه، ولكنه يظل طاقة وحافزاً، يحتاجهما المجتمع ليخطو نحو غد أفضل.

❊ ❊ ❊

الفرق بين الفنان، وبين غيره من الناس.. إن الفنان يرى الجمال وينفعل به، ولا يملك إلا أن يعبر عن هذا الانفعال.. بينما غيره يرى الجمال، وينفعل به، فلا يفعل أكثر من أن يسقط فكّه ذهولاً.

❊ ❊ ❊

الجمال، توليفة من أشياء، في الجسم الإنساني، أعضاء وملامح وقسمات، وفي رؤى الطبيعة ألوان وأشكال وما لا يحصى من التكوينات، في الشجر، وفي الرمل، وفي الصخر.. وحتى في الجوهر، لا بد من هذه التوليفة، بين اللون والبريق والتوهج والإشعاع.. ويستحيل أن يتم معنى للجمال، بدون هذا النوع من تجمع المختار من الكثير الكثير.

* * *

أعجب ما في الحياة، أنها لا تعنى بشيء عنايتها بظاهر الأشياء.. يمكن أن نقول بالأديم والغلاف الخارجي.. وهي تعنى به متوخية عناصر الجمال في التشكيل خطوطاً، وفي التنسيق ألواناً.. ويحار الفكر في تلك القدرة الإلهية المبدعة، التي تفوق كل مستوى من مستويات العبقرية، في الملاءمة بين الشكل واللون، وبين الألوان في تعددها مع تلاؤمها.. ولكثرة ما يلاحظ من تكريس العناية بالظاهر، أو بالأديم، يكاد المرء أن يذهب إلى أن كل أجهزة الحركة والحس والتكوين إنما كانت ـ في الإنسان والنبات والحيوان ـ لتبدع شيئاً واحداً هو الجمال..

* * *

تذوّق الفن ظاهرة تستدعي الكثير من الدرس.. وتعمق دراستها يؤكد أن الإنسان مجبول على تعشق الفن.. وإلا فما الذي يجعل الطفل في الثانية أو الثالثة من العمر، يهتز للنغم ويهش بالألوان، ويصفق حين يرى أمواج البحر تضحك بين ناظريه؟

* * *

فينوس التي أعتبرها تاريخ الفن صورة متكاملة للجمال، ربما إلى آخر الثلاثينات من هذا العصر طرأ على النظرة إليها الكثير من التغيير.. إذا اتجهت مفاهيم الجمال، إلى ما اتجهت إليه طبيعة العصر.. فالقامة الفارعة

مثلاً. . حلت محلها القامة المائلة إلى القصر والجيد الأتلع الممتلئ، أصبح لا يستلفت النظر، بقدر ما يستلفته الجيد المتداخل الذي كاد لا يظهر إلا بالمبالغة في تقصير الشعر. . والقسمات المتناسقة، يندر اليوم أن تستحق تلك النظرة التي تنالها قسمات لا تدري ما الذي فيها، ولكنك، محمول على أن تشعر بأنها جميلة. . ترى. . ما الذي لا يتغير أو يمكن أن لا يتغير، مع إصرار إنسان العصر على أن يغير من نظرته إلى الأشياء.

* * *

مشاكل السياسة، وقضايا المجتمع، في سبيل غد أفضل. . كلها جديرة باهتمام الفنان. . ولكن لا يعاب فنان يهتم بمشاعره الذاتية. . بالجمال والحب مثلاً. . إذ الحياة لا تكتمل إلا أن يكون فيها من مشاكل القلب، بقدر ما فيها من مشاكل السياسة والصراع.

* * *

العمل الفني الأصيل، يحتاج لفهمه إلى وقت، لأن الأصالة فيه هي العمق وبعد الغور ومن هنا كانت ولا تزال كارثة الفنان الأصيل، الذي يتعلق به أدعياء الفهم من النقاد.

* * *

مشكلة الفنان في هذا العصر، أن الحياة من حوله قد ازدحمت بما لا يسعه الحصر من نتاج الفكر، حتى لكأن الدنيا كلها قد أصبحت قرية صغيرة، ليس أسهل من أن تمر بها لترى كل ما تدفق به عقل الإنسان. . فلا سبيل إلى السبق في الابتكار والإبداع. ومن هنا أصبح معيار العبقرية من الدقة والحساسية، بحيث لا يحقق وزناً إلا لنوع من النبوغ يتعذر أن يتكرر، أو أن يتاح له الظهور، إلا للواحد في عشرات الملايين.

* * *

من النقد المعاصر للشعر العربي رأي لا ندري كيف يقابله شعراء المدرسة التقليدية القديمة.

قال الناقد:

القصيدة العربية القديمة ليس لها مخطط.. والشاعر العربي صياد مصادفات من الطراز الأول، فهو ينتقل من وصف سيفه إلى جمال حبيبته، ويقفز عن سرج حصانه إلى حضرة الخليفة بخفة بهلوان.. وما دامت القافية مواتية والمنبر مريحاً فكل موضوع هو موضوعه وكل ميدان هو فارسه..

أما الشاعر العربي في العصر الحديث.. فاللغة لديه ليست غاية بحد ذاتها، ولكنها مفاتيح إلى عالم أرحب وأبعد، وقيمة الحروف تكون بقدر ما تثيره حولها من رؤى وظلال وبقدر ما تبعثه من إيحاءات.

* * *

خرافة أن يقال إن الألم هو الطريق إلى مخاض فني متكامل.. تلك فكرة علقت بأذهاننا حين كان الجهل، وانعدام القدرة على تقييم العمل الفني خصيصة شائعة في حياة الإنسان.

تلك العصور.. أما بعد أن تفتح الذهن، وبعد أن تألق نور الحرف في حياة الناس فالطريق إلى المخاض الفني المتكامل، هو التفاعل القوي والنشيط، مع الحياة.

* * *

قد يتقن الصانع صنعته، فيستطيع مثلاً أن يجيد صنع منضدة أو كرسي، كما عرف من نماذج المناضد والكراسي.. ولكن هذا لا يجعله فناناً.. ولن يدخله رحاب الفن.. لأن الفن إلهام وإبداع يرتكزان على رصيد ضخم من تراث الفكر، وعطاء الحضارة، وكنوز المعرفة..

الفنان هو الذي يصنع النموذج الفريد، والصانع هو الذي ينفذ ما يبدعه خيال الفنان.

❊ ❊ ❊

الجمال مطلب حضاري، وهو الحافز العريق الذي ظل يهيب بالإنسان إلى تطلب الأفضل والأكمل.. والأفضل والأكمل من أهم عناصر الجمال.. تقول من الشيء المصنوع بإتقان وتكامل، إنه جميل، حتى وإن كان مفهوم الجمال من لون وألق ورونق وبهاء ليس مما يتوافر في هذا الشيء المصنوع.. والحضارة، حتى بمفهوم التكنولوجيا في هذه الفترة من القرن العشرين لا تزال تلهث وراء الجمال.. لأنها تتطلع إلى التكامل في كل ما تبتكره من أشد الأجهزة والآلات تعقيداً.. وما دام هذا الحافز موجوداً في طبيعة الإنسان، فإن اليوم الذي تتوطد فيه دعائم السلام، ليس بعيداً، حتى وإن استغرق الوصول إليه عدة قرون.

في تاريخ الفن عباقرة، كانوا يرون الجنان والفراديس، ويرسمونها في أعمال يخيل إليك وأنت تسافر فيها ببصرك، أن الفنان كان يعيش هذا النعيم.. ولكن ما أشد ما يذهلك أن تجد في مراحل حياته الواناً من البؤس تسحق الصخر.. ولكن لا غرابة في الواقع.. لأن الحرمان الذي يعيشه الفنان، يفتح له آفاق الفراديس ويغمره بمشاعر الرغد.. فهو يصوّر ما يتمناه.. وكثير مما نتمناه.. أجمل ألوف المرات من الواقع المشهود.

❊ ❊ ❊

يقول توفيق الحكيم: يصف الكاتب الحر، ولعلّه يعني الناقد:

الكاتب الحر في نظري هو الحكم النزيه في حلبة اللاعبين.. إنه هو الذي يحصي الأخطاء بغير تمييز ولا تحامل.. وهو الذي يفضح سر

الخارجين على أصول اللعب القويم.. وهو الذي ينبه الغافلين إلى كل خطر يدنو من قواعد المثل العليا.

* * *

«ماليرب» زعيم المدرسة الكلاسيكية في الأدب الفرنسي في القرن الخامس عشر، بلغ من حرصه على الجزالة والدقة وجلال الأسلوب أنه قال: إذا أنهيت مقطوعة شعرية من مائة بيت مثلاً، لا بد لك أن تخلد إلى الراحة عشر سنوات.. وبهذا وحده تستطيع أن تصنع شعراً تسابق المعاني فيه الألفاظ.. ولم يكن شموس اللغة، وغريب مفرداتها مما يحرص عليه ماليرب.. إنما هو المعنى الدقيق في اللفظ الأنيق.. وهو القائل: ابذل كل ما تستطيع من جهد، لتكتب شعراً سهلاً تشرق فيه المعاني، في إطار من ألوان قوس قزح بعد أن تتبدد غيوم الأمطار.

* * *

من المشكوك فيه أن تكون جميع الألحان القديمة، التي عرفتها المدينة على الأخص قد اندثرت ولم يبق لها أثر في الألحان المحفوظة عندنا اليوم، ونحن نعلم أن ازدهار الفن في مكان بعينه يغري البلدان الأخرى باقتباسه.. فليس بعيداً أن نجد ألحاننا في تركيا، وفي المغرب العربي.. وفي إسبانيا.. واستبعد فارس، لأنه قيل إن فحول المغنين إنما أخذوا ألحانهم منها بعد الفتح.

* * *

قد يذهل القارئ حين يسمع من يقول: إنه لا يوجد في العالم فن وإنما الذي فيه فنانون.. حتى الفنان يصاب بخيبة أمل ساحقة.. حين تلقي نظرة على عمله، وتقول له إني لا أرى فيه سوى شخصيتك.. سوى محاولة تعبير عما في ذهنك.. إنه يريد أن تقول له.. إن ما تراه فن.. بينما الحقيقة، إنه لا وجود لهذا الفن لولا الفنان..

وبنفس المقياس، يمكن أن تقول إنه لا وجود للأرض والعالم، إلا بوجود الإنسان الذي يراهما ويعالج شؤونهما.. أفترض أنك لم تولد قط.. وقل كيف يمكن أن تعرف ما عرفت من هذه الحياة.

❊ ❊ ❊

لو أتيح للطليعة من فناني المملكة العربية السعودية، الذين أتاحت لهم الدولة دراسة الفن في أرقى معاهده في أوروبا أن يفرغوا لقراءة التراث العربي، القديم وإلى نهاية الدولة العربية في الأندلس، فإنهم يستطيعون أن يضيفوا إلى مسيرتنا الحضارية، ما يعتبر سبقاً لم يلتفت إليه كل الذين درسوا الفن وعالجوه في مختلف بلدان العالم العربي..

❊ ❊ ❊

استهدفت الكلاسيكية، في جميع مراحلها، تصوير الأفضل والأجمل.. والأدق.. ولكن الحياة، في واقعها، ليست هذا الأفضل والأجمل الأدق.. ليست المثال.. ومن هنا، قيل إن الكلاسيكية كانت دعوة إلى حلم قلّ أن يستطيع تحقيقه الإنسان.

❊ ❊ ❊

مسؤولية الفنان، أهم وأعظم من مجرد النقل والتصوير.. مسؤوليته أن يعكس انفعال المشاعر وارتعاشات الوجدان.. وارتسامات الأحلام التي تعجز عن أن تراها العين و أن تسمعها الأذن.

مهمة الفنان والفن، أن يغني اللحن الذي يهزك ويحرك مياه البحيرة في أعماق النفس الإنسانية.

مهمته أن يغني الحياة وأن يزيد من ثرائها في معاني الروح والقلب والوجدان.

❊ ❊ ❊

الفن بين الضبابية والوضوح، يظل تحدياً للذوق.. الضبابية تتحدى أن تفهم ماذا يريد الفنان أن يقول.. والوضوح، يتحدى أن ترى ما استطاع الفنان أن يراه، وأن يريقه على القماش ألواناً وظلالاً في تعانقها وانسيابها همسة لا يسمعها إلا الإنسان المخلص.

* * *

شعور الفنان بذاته، ضرورة، لو تخلى عنها، و لو تنازل عنها، لكان في ذلك سبيله إلى التفتت والأمحاء.. إذ في هذا الشعور بالذات، حافزه الأكبر والأقوى، إلى أن يشق طريقه الوعرة، نحو الاستقلال.. وهذا هو الفرق بين من يستطيع أن ينسخ أو يردد أفكار غيره، بين من يعطيك أفكاره ويكشف لك عن دنياه.

أجمل ما في الفن أنه يتجرد من الغاية.. وإن كان يظن أن غاية الفن هي التعبير عن الجمال، فلنا أن نتساءل، ما هي الغاية من التعبير عن الجمال.. إن البشر يستطيعون، أن يمارسوا مألوف حياتهم، وأن يستمتعوا بالجمال، دون أن يحتاجوا إلى التعبير عن شيء.. وهذا يعطينا مدى تجرد الفنان وهو يعكف على قصيدة شعر، أو على رسم لوحة، أو على نحت تمثال أنه يعلم سلفاً أن الحياة تستطيع أن تستغني عنه أو هي مستغنية عنه دائماً. ولكنه يظل عاكفاً على فنه ودون أن يفكر في الجدوى، بقدر ما يفكر في أن يقول ما يريد.

* * *

ليس من شك في أن ما أنعم الله به علينا من الحواس، هو سبيلنا إلى معرفة الجمال، وما نتمتع به من الإدراك والمشاعر والوجدان، هو بدوره سبيلنا إلى الاستمتاع بهذه المعرفة.. ولعلّ من أعجب ما تستطيع أن تحققه المشاعر والإدراك والوجدان، أنها تبدع للجمال صورة في أعماق النفس،

حين تصاب حاسة الإبصار مثلاً بالعجز عن الرؤية.. أو حين يتاح للأذن أن تسمع دون أن يتاح للعين أن ترى..

ذهب علماء النحو، ولا يزالون، إلى أن النحو، إنما عنى بحركة أواخر الكلمة في مكانها من الجملة لضبط محل الكلمة من الإعراب.. ولكن فاتهم إلى جانب هذه الحقيقة، حقيقة أخرى وهي أن هذا الضبط ـ في طبيعة اللغة العربية ـ إنما استهدف موسيقى الكلمة وجرسها وتوافقها مع طبيعة الأداء.

* * *

تدرك المرأة بغريزتها لمسات الجمال في قسماتها وتكوينها.. ولكن الرجل هو الأقدر على الحكم بصحة إدراكها. ومن أعجب المفارقات في هذا العصر، أن الرجال ـ وليس النساء ـ هم الذين يبتكرون أحدث الأزياء، ويضعون أدق مقاييس الجمال.

* * *

الجمال مطلب النفس الإنسانية، وهو ـ على تعذر تعريفه وتحديده ـ المطلب الوحيد الذي يستغني عن التعريب والتحديد، ويظل معروفاً كأنه إحدى البديهيات في منطق التصور والإدراك، ولا بد أن نسلم بأن مجرد وجوده، بمختلف عناصره ومنابعه، دعوة ملحة، وإثارة خالدة لحوافز الفن..

* * *

قليلاً ما يتحدث الفنان عن فنه.. ومما قاله بعضهم: (الفن الذي أحلم به هو فن فيه الطهر والصفاء يبتعد عن الإثارة والتهييج.. وأنا أستهدف رجل الفكر وصاحب المشاعر الوجدانية السامية، فأحاول أن أقدم إليه ما يستريح إليه وجدانه، أو ما يحرك هذا الوجدان ويدفعه إلى التأمل العميق.

* * *

نخطئ كثيراً، إذا نظرنا إلى شطحات الفن الحديث، في الرسم والشعر والموسيقى، على أنها مجرد انفلات سببه العجز عن التمسك بالضوابط والقيود التي يفرضها العلم بأصول الفن. إنها هي أيضاً لها قيود وأصول.. والدليل، أن النقاد يعرفون، من هو الأصيل في التعبير الفني الحديث، ومن هو المقلد الدخيل..

* * *

أي فنان يستطيع أن ينقل الموضوع الذي يراه على مساحة الكانفاه، وإنما يمتاز الفنان العبقري، عن غيره، بأنه يستطيع أن يقول لك، ماذا في عيني الجميلة التي يرسمها وهي تقف أمامه.

* * *

من نظريات علماء الجمال أن كل ما خلق الله سبحانه جميل، لأن كل شيء يحيا، وكل حياة جميلة..

ومن هنا، كان من رأي بعضهم، أن الفنان غير مدعو، لأكثر من أن ينسخ عن الطبيعة كما هي، وليس مطالباً بأن يختار وينتقي ويضيف إلى المرئي أو المنظور شيئاً.

وقالوا: يكفي الفنان أن تكون له القدرة على المحاكاة.

* * *

تهيج أمواج البحر، وترتفع وتتلاحق، ويرتفع هديرها، ثم تسكن الريح، وتتراخى حركة الموج، حتى ليخيل إليك أنها والسماء الصافية الساكنة سواء.. وما يحدث في أعماق نفس الفنان، شيء كهذا وهو يعالج موضوعاً من مواضيع الفن.. إنه يبدأ عملية التكوين في اللحظات التي تتراخى فيها حركة الموج، وتسكن الريح، ومن هنا يمكن القول، إن العمل الفني الأصيل، عاطفة يسيطر عليها العقل.

عني الفن، منذ كان، بالجمال المنظور.. بما تقع عليه العين، على اختلاف في التقدير والتقييم بين غابر من الزمن وحاضر، والشعر والأدب، هما وحدهما اللذان عنيا بجمال غير منظور.. لا تراه، ولكنك تشعر به يتسلل إلى نفسك، ويغمرها، ويثير فيها كوامن المشاعر.. ذلك جمال النفس.. جمال يستقر دائماً في الأعماق..

المرأة الجميلة خيال

والمرأة الدميمة حقيقة

❊ ❊ ❊

النغمة المسموعة جميلة

وأجمل منها النغمة التي لا تسمع

❊ ❊ ❊

كم من أحلام الفنان يظل حبيس المحاولة الجاهدة، لتفسير هذه الأحلام.. ولا سبيل إلى هذا التفسير إلاّ بألوان، يراها حلماً، ولا يجدها حقيقة.. وفي اللحظة، التي تشع فيها هذه الألوان، وتسطع على الكانفاه.. يعيش الفنان أحلامه الذهبية، وطريقه إلى الخلود.

❊ ❊ ❊

لا مناص للأدب المسرحي من أن يستهدف قضية من قضايا المجتمع.. أو شريحة من حياته.. وحتى المسرحيات التاريخية كتلك التي عرف بها شكسبير، كانت تصور قضية في التاريخ، ولكنها لا تخلو من علاقة بالمجتمع الذي يشاهدها.. ذلك، لأن المسرح، فن اجتماعي بطبعه يتعذر أن ينعزل عنها.. والمسرحية التي تعالج موضوعاً فنياً بحتاً بأسلوب للفن، نصيبها الفشل دائماً.. وبهذا يختلف الفن المسرحي عن بقية الفنون.. في الشعر

تستطيع أن تكون ذاتياً، وأن تكتب لنفسك، وأن تنطلق على هواك، ناظراً إلى مجتمعك، أو ملقياً به وراء ظهرك، وفي الرسم يستطيع الفنان، أن يكون ذاتياً بحتاً فيعالج المواضيع التي تعنيه هو وحده.. وما يعنيه هو وحده قد لا يعدم طائفة من المعجيبن، ولكنه يصل ذاتياً، وكذلك الموسيقى يمكن أن يؤلف الموسيقار، مقطوعة لنفسه.. لإشباع عاطفة في نفسه.. أما في المسرح، فلا مناص أبداً من التعلق بالمجتمع.. لأن المجتمع هو الذي يشهد المسرحية.. وهو الذي يدفع ليراها..

* * *

تستطيع الكاميرا (عدسة التصوير) أن تعطيك من الحقيقة الظاهرة ما قد يعجز الفنان عن مدى الدقة فيه.. ولكن تعجز الكاميرا، أن تعطيك، ومضة الذهن، وانفعال النفس.. ومسرحية الخيال.. وما في النفس من قبح وجمال.. وذلك مجال الفنان..

* * *

ما أكثر ما عالج الفنانون مواضيع شقاء الإنسان.. ومتاحف الفن زاخرة بما أبدعته العبقرية المحسة التي عبرت عن مشاعرها الإنسانية النبيلة، بما أراقت على القماش، من ألوان وظلال ولكن.. كل العبقرية، في جميع مشاعر الفنانين، وأحساسيسهم تعجز أن تصور خلجة من خلجات نفس إنسان أذله الحرمان، ولكنه يصر على أن لا يعترف بالذل.. وأن يظل شامخ الجبهة وضاء الجبين.

* * *

لا يجد العامة معنى لأن يشتري أحدهم لوحة بمئات الألوف من الجنيهات.. ومنهم من يعتبر من يقدم على مثل هذه الصفقة، رجلاً أحمق أو مجنوناً.. وسينقضي دهر طويل جداً.. ربما أكثر من ألف عام.. ليفهم

هؤلاء أن ألوف الجنيهات، التي تدفع ثمناً لعمل فني.. هي أقل القليل لما يعبر عن المستوى الحضاري في حياة البشر.

من الشائع خطأ، أن لأغلب الفنانين ـ ومنهم الكتّاب والشعراء والموسيقيون ـ مظهراً من مظاهر الشرود الذهني، والشذوذ على المألوف في الملبس والهيئة العامة، وللفنان قدرة ذاتية على الإغراء بالتقليد، بحيث تنتقل مظاهر الشرود أو الشذوذ إلى آخرين لا علاقة لهم بالفن.. ويمكن أن نعلل لانتشار مظهر الاستخفاف بالمظهر وترك اللحية وشعر الرأس ينموان إلى الحد المزعج، إلى مظهر بعض المغنيين والموسيقيين في أوروبا وأمريكا، ومن ثم في جميع أنحاء العالم.. هؤلاء لا شك ظاهرة تؤكد ضعف الشخصية وانحلالها، وفقرها في القوى والخصائص والكفاءات إلى حد يضطرها إلى التعويض عن كل النقص بالظهور بمظهر الفنان.

* * *

طبيعي أن يستلهم الفنان واقع مجتمعه، وأن يعكس أثر بيئته.. ولكن قد يضيق الفنان بواقع مجتمعه، لما يعانيه هذا المجتمع من تخلف، وقد يحاول الهرب من بيئته لما ينخر في هذه البيئة من علل. وما تكابده من ضمور وشحوب، وليس أمامه حينئذٍ إلا أحد سبيلين.. أحدهما يتطلب تضحية. وهو نقد الواقع وإظهاره بكل ما فيه من بشاعة ونكر.. وقد يتعرض بذلك لسخط المجتمع عليه.. والآخر أن ينطلق مع خياله وأحلامه في المستوى والصورة التي يتمنى أن يرى عليها مجتمعه وبيئته.

قد تصل الحاجة إلى التقدم العلمي والتقني، إلى حد يزهد معه الناس في الكثير من الفنون وليس مستبعداً أن تلجأ بعض الأمم النامية إلى الاستغناء عن بعض المعارف الإنسانية لتوفر جهدها على اللحاق بركب العلم في مجالات الطب والهندسة والميكانيكا، وما إليها مما تقوم عليه الصناعة وما

يحقق البناء الاقتصادي.. ومع ذلك فإن الفنون والمعارف الإنسانية تظل أشد إلحاحاً على طموح الحضارة.. في مستواها الأرفع والأسمى.. إذ يستحيل أن يعيش الإنسان في خواء روحي، وجدب نفسي.. فتلك دون شك صحراء يتعذر أن تخصب الحياة.

بين صحف كتاب مهجور وردة جافة.. لو مستها يد لتناثرت بتلاتها بدداً.. وكلمة على هامش الورقة.. كلمة واحدة هي (منها).. وطار على أجنحة الذكرى.. متى اشترى هذا الكتاب؟.. كيف ظل كل هذه السنين مهجوراً.. والوردة منها.. منها.. وأزاح نظارته السميكة عن عينيه.. وأخرج من جيبه منديله ليمسح دمعة وشفتاه ترددان منها.. منها..

صورة.. أشك أن يستطيع رسمها فنان.

* * *

لكي نعرف فناناً، لا تكفينا لوحة واحدة بل لا بد من النظر في سياق نتاجه كله وفي نسقه إذ ربما حملت لوحة واحدة طابع الفنان، ولكن لوحاته كلها هي التي تلزمنا باكتشاف أبعاد فنه وشخصيته.. وما ينطبق على الفنان ينطبق على الشاعر، إذ لا يكفينا أن نقرأ القصيدة أو الاثنين، أو حتى مجموعة من القصائد، لا بد لنا أن نستوعب نتاجه كله في مرحلة من مراحل حياته الفنية، ليتاح لنا أن نكتشف ما يكمن في وجدانه، من حوافز الشعر.

حين يتجه الفن ـ وأعني الرسم بالذات ـ إلى هذه الضبابية التي تهرب من التفاصيل وتستغني عن العمق.. فإن على الفن، في المملكة العربية السعودية، أن يتجه اتجاهاً مضاداً.. لأن الفن العربي الإسلامي في الأندلس وفي استانبول، قد عني بأدق التفاصيل في الوحدة الزخرفية المنتزعة من الطبيعة الصامتة على الأغلب.. وليس في ذلك تراجع إلى القديم وإنما فيه محاولة لإحياء روح التراث.

ليست نظرة الفنان إلى الحياة والناس، بالضرورة نظرة صائبة وموفقة.. كثيراً ما يرى في الطهر والبراءة مكراً وخداعاً.. وقد يرى في الجمال الذي يبهر الأبصار قبحاً وشوهاً.. وعلى سبيل المثال.. فإن البراءة وطهر النفس هما أول ما يطالعك ويملأ مشاعرك من وجه الطفل.. إنك لا تملك وأنت تتأمل هذا النقاء الذي يموج في نظراته إلا أن ترى ملامح من عالم، لا يسعك إلا أن تسلم بأنه عالم السلام والحب والصفاء.

ومع ذلك فالشاعر الفنان، عبد الرحمن شكري، الذي كان أسبق شعراء هذا القرن، إلى تجديد أغراض الشعر، والانتقال بها إلى أغراض الوجدان، وتجارب النفس.. هذا الشاعر، يقول:

(إني أرى على وجوه الأطفال ما تكنه أخلاقهم من بوادر الجشع والبخل واللوم والقسوة ولكن ضعفهم، وقلة حيلتهم، تسدلان على هذه الملامح حجاباً مضيئاً رقراقاً.. كالسراب.

❊ ❊ ❊

لحظات الإلهام التي ينتظرها الفنان الشاعر.. أو الفنان الرسام. أو الفنان الموسيقار ليست على الأساس فيما يبدع.. إنما الأساس أن تكون لديه البيئة الفكرية الملائمة لتلقي ما يتداعى في ذهنه.. في لحظات الإلهام..

ليس في الفن أشكال نهائية أو أبدية.. بالأثواب الجاهزة لا تطيقها أجساد لموهوبين وكل موهوب يختار الثوب الذي يستريح فيه.

❊ ❊ ❊

البناء الموسيقي في قصيدة الشاعر الحديث مركب من فلذات نغمية تعلو.. وتنخفض تصطدم.. وتفترق.. ترق وتقوى.. تهد وتنفعل..

من هذه الفلذات النغمية.. من هذه الحركة الدائمة.. والمتناقضة في

نفس الوقت ينطلق البناء الموسيقي للقصيدة.. وهو إلى البناء السيمفوني أقرب منه إلى دقات الساعة الرتيبة.

* * *

طريق الشهرة والنجاح فن الفن، قد يطول إلى حد يبدو للفنان الأصيل أنه لا نهاية له وليس ذلك، لأنه لم يحقق الشهرة والنجاح، وإنما لأن طموحه أكبر كثيراً من كل ما يتحقق له مهما اعتبره الناس ضخماً يملأ الآفاق.

* * *

يرى الفنان الجمال.. فينفعل، وتموج روحه، وتشتعل أشواقه.. فيعمد إلى ريشته وألوانه، ويفرغ على القماش، مشاعره، فإذا الجمال لعبته وملهاته، وهو في نفس الوقت مأساة حرمانه.. ويرى غيره الجمال.. فيمارس تصرفاً لا يبتعد به كثيراً عن تصرف العجماوات من الخلق.. وهذا هو الفرق بين الاثنين.

* * *

أجمل ما في الموسيقى، أنها تستغني عن خطوط الأشكال وعن الظلال وعن الألوان، ولا علاقة لها بالضوء.. وتستغني عن الكلمة أيضاً.. ومع ذلك تستطيع أن تملأ خيالك وأعماق نفسك بكون من الصور والألوان والمعاني والظلال.. وأعجب ما تمتاز به أنها اللغة التي يفهمها البشر جميعاً.. حتى الأطفال في سن الرضاع..

لوحة الفنان، ليس فيها إلا منفضة سجاير.. طافحة بأعقابها.. وقلم لا يظهر منه إلا بعضه، إذ تغطيه صفحات من كتاب.. ورقة بيضاء.. بيضاء كلها.. ليس فيها حرف واحد.. إنها أبلغ تعبير، عن معركة الكاتب في مواكب الفكر، وأسراب المعاني.. لم يرض عنها.. لأنها أبعد كثيراً ما

يتبلور في ضميره من موضوع إبداعه الذي قد يظل حبيساً ربما. . لسنوات طوال. .

* * *

نقد الجمال عمل يتطلب ـ مع التذوق ورهف الحس وبعد النظر ـ الكثير من الخبرة والرصيد الضخم من الأرتواء من منابع الحسن، ومناهل الفتنة، ومكامن الجمال ولا يعني ذلك بالضرورة الأفتتان، والتعلق أو الحب، وإنما هو يعني وفرة المخزون من صور الجمال.

* * *

في حياة الفنانين كثير من قصص أغرب من الخيال. . فيها البؤس الذي يقف به في الحضيض بينما إبداعه الفني في القمة الشامخة. . وفيها العجز حتى عن سماع تصفيق المعجبين بالسيمفونية الرائعة التي يقود فرقة عازفيها وهو الذي ألفها. . ولكن من أعجب هذه القصص قصة الرسام (فان جوخ). . قيل تزوج فتاة ودعته الظروف لمفارقتها. . وليلة الوداع قالت الفتاة تداعبه. . إنها تحب أذنه. . ولو إنها تركت لها كانت خير تذكار منه. . وكم كانت دهشتها بالغة مذهلة حين وصلها رسول فان جوخ يحمل إليها لفافة فيها أذن الرسام العبقري. . وقد نظفت من الدم، ولفت بعناية وبذوق الفنان. .

* * *

ليس كالكلمة، وسيلة للجمع بين فنين هما الرسم والشعر، . . تستطيع الكلمة، أن ترسم ما يطوف بذهن كسيح من صور النقمة والألم وربما الحقد أيضاً. . ولكن كل ما يستطيعه الرسام الفنان، هو أن يصور الكسيح. . وقد يبلغ من رهف الحس وتعمق الموضوع، أن يريك في مشيته، أو في نظرته، و في تقبض وجهه، بعض ما في نفسه. . وفرق بين البعض من الشيء والشيء كله. بين النهلة من بحر. . وبين البحر.

الجمال هو حرية التكوين ضمن حدود التناسق والتناسب، وفي ذلك يكمن قانون الحرية في الحياة نفسها، إذ الحرية بلا قيود التناسق والتناسب هذه مع المجتمع وطبيعة البيئة، هي الفوضى التي تعود بالإنسان إلى قانون الغاب.

ولتتصور هذه الحقيقة في جمال الإنسان.. كيف تكون السمات في الوجه لو أن الأنف مثلاً أخذ حريته في الطول والعرض، أو لو أن إحدى الشفتين أخذت سبيلها إلى الامتداد كما تشاء.. أو لو أن العينين اتسعتا فملأتا الساحة بين الأنف والصدغين.

***

الفنان الذي امتلأت نفسه بفنه قد يعيش منفرداً على ذاته.. ولكنه يظل مع ذلك في قلب العالم، في أشد بؤر الضوء تجمعاً.. يتجاوز كل حد محسوس.. وكل حاسة ملموسة.. وفي تلك اللحظة التي يلتزم فيها الصمت، يعيش هدير عاصفة الحياة في قلبه، وانهمار موسيقى الفكر والفن والجمال في وجدانه.

يقول كانت: إن العباقرة حين ينتجون لنا آثارهم الفنية، قد يخرجون على كل قاعدة ومثال، ولكن ما أعظم أن تأتي الأجيال، لتجد، في حرية العبقري، القواعدَ والأمثلةَ ومُثلَ الجمال.

***

يقول رودان.. إن الفنان ينقل المنظور من الطبيعة ولا يبتعد عنه.. إنه ينقل ما يراه.. وهو لا ينحرف كما يُظَن.. لكن ما يراه يختلف عما يراه غيره من الناس، فيكون الفن انحرافاً عن الأصل في نظر هؤلاء الناس، وليس في نظر الفنان.. والسر هو في اختلاف النظرة فقط.

***

لأرسطو رأي فيما نسميه اليوم «الصدق الفني» ويسميه هو «الكذب الفني». .

يقول أرسطو: لقد علمنا هوميروس الكذب بصورة لائقة. . ومع هذا لا يجوز أن يبلغ الكذب حدَّ الاستحالة. . ولكن ـ مع ذلك للشاعر أن يصف الأشياء والأحداث بالصور التي يجود بها خياله. . يمكن أن نغفر له الخطأ في حقيقة علمية، لأنه غير مطالب بالدقة العلمية فيما يقول. . ولكن لا نغتفر له العجز عن التعبير والتصوير.

* * *

يقول المثال الأمريكي ديفيد سميث، وهو يصنع تماثيله من الحديد: عمل الفنان هو الفن في اقتناعه الشخصي. . فإذا كانت هناك حقيقة في الفن، فهي حقيقته الذاتية، التي قد لا يراها سواه.

* * *

بعد الحرب العالمية الثانية، شهد العالم ظاهرة لا تزال تنتشر في مختلف حقول الفن. . وهي رفض الكثير من قيود الفن التي ظلت تهيمن على الأعمال الفنية طيلة قرون. . وكان من مواليد هذا الرفض، ما ظل يتوالى على ساحة الفن من أعمال تحررت، أو حاولت أن تتحرر، من هذه القيود. .

وانتهت الموجة إلى الشعر، ورأينا ما لا يزال ينتشر من محاولات، يبدو أنها تلقى ترحيباً من عشاق الرفض والتحرر.

ولكن يظل السؤال الحائر الذي لا بد أن نسمع الإجابة عنه من النقاد هو:

أين الشعر؟ وأين الفن، في كل ما يتلاحق من عطاء الشعر والفن في هذه الأيام؟

* * *

نقد الجمال ـ في الفنون على أنواعها ـ قد يعتمد اليوم، على قواعد وأصول مدروسة، ولكن ذلك لا ينفي أن الجمال ظل يعالج بالنقد، اعتماداً على التذوق ورهف الحس وعمق الإدراك لمواطن ومكامن الجمال في العمل الفني. . وأغلب الظن أن النقد الناجح سيظل يتمرد على القواعد والأصول، ما دام التذوق يتطور، والحس يزداد رهفاً والإدراك، يزداد عمقاً.

* * *

يختلف الناس في درجة الإحساس بالجمال، حتى ليبدو هذا الإحساس، ـ أحياناً ـ وكأنه نوع من الإلهام. . أما التعبير عن هذا الإحساس، وعن قدرته على بعث المعاني، فهو رسالة الفنون من شعر ورسم وموسيقى، لا يستطيع أداءها إلا من وهب الملكات الفنية المختلفة، وعرف كيف يغذي هذه الملكات بالتعمق في أسرار الفن.

* * *

ليس للعمل الفني الأصيل قواعد وأصول، ولكن مادة أداء وإظهار هذا العمل الفني تظل محتاجة إلى القواعد والأصول.

الكاتب مثلاً، قد يبدع قصة رائعة في أصالتها الفنية، لا يتقيد في تكوين أبطالها وأحداثها بقاعدة معينة، لأنه يبدع ويُكوِّن، ولكن أسلوبه في التعبير عن الأحداث والتجارب، ولغته التي يستعملها في هذا الأسلوب، وديناميكية الحوار، كلها تحتاج إلى أن يكون له رصيده المعقول من العلم بقواعد النحو والصرف والفواصل، وبالمفردات اللغوية وظلالها وما يتداعى معها في ذهن قارئها، وقبل ذلك، بطريقة بناء الجملة بداية ونهاية.

* * *

من آراء قدماء النقاد ـ من آرائهم أن الشعر أشد غموضاً من النثر، وأن له مواضيع معينة لا يحسن أن يتخطاها، وهي في الأعم والأغلب: الوصف

والغزل والرثاء والمديح والهجاء بينما النثر يستطيع أن يضرب في كل موضوع بسهم، إذ ما الذي يمنع الكاتب الناثر أن يصف؟ وأن يتغزل؟ وأن يأتي برائع البيان حين يرثي؟ وبالساطع المعجز حين يمدح؟ وبأشد المعاني إيجاعاً وإيلاماً حين يهجو؟ ولكن ـ مع ذلك ـ يظل الفرق بين الشعر والنثر كبيراً.. يظل الشعر أحبَّ إلى النفوس، والسر يكمن في غنائيته وموسيقاه ولا شعر بلا موسيقى إلا في هذا العصر.

* * *

تذوق الجمال يحتاج إلى أكثر من مجرد النظرة أو التأمل.. يحتاج إلى عين ترى الأفق المترامي بكل ألوان الشفق، في ذلك الذي يستقبل ظل الهدب، فلا يعتم ولا يغيم، وإنما يشرق ويتوهج، وكأنه يقول: في هذه الظلال، ضوئي الخاص، الذي لا يراه إلا الذين يتذوقون الجمال بعين تعرف مكامن الجمال..

* * *

قال أرسطو: قد تكون الأشياء قبيحة الأصل.. ولكنا نرتاح إلى رؤيتها في الفن لأنه يُجمِّلها.

ومع أنه لا يرى في الفن إلا محاكاة وتقليداً، فإنه يقول: ليس ضرورياً أن يكون الفن كالواقع.. بل يحسن أن يكون أفضل منه.

* * *

النقل من المرئي، أو المسموع تستطيعه الكاميرا كما يستطيعه المسجل فليس في ذلك فن، ومن هنا ندرك، أن الموسيقى ليست تقليداً للطبيعة، وإنما هي أسلوب تأليف للمعنى ودقة فهم للمشاعر والأحاسيس التي يخاطبها الموسيقار.

وأن الموضوع الفني الذي تبدعه ريشة الفنان شيء لا علاقة له بالواقع المشهود..

وقصيدة الشعر التي ينطلق فيها الشاعر من رؤياه وتجربته ليست نسخاً لوجود ولا تعبيراً عن محسوس.. وإنما هي كشف عن عالم قد لا يكون له وجود إلا في ضمير الشاعر، وفي لهب عواطفه ومشاعره.

* * *

بينما يرى بعض علماء الجمال القدامى، أن الفنان غير مطالب بأكثر من النسخ من المرئي في الطبيعة و المسموع فيها كما هو، ويرى بعضهم الآخر ـ وهم المثاليون ـ أن الفنان ملزم باختيار الأجمل والأمثل بحيث يظل موضوع الفنان يبتعد عن المألوف والطبيعي. فإن نقاد الفن في العصر الحديث، يرون أن الفن ليس في التقليد والنسخ، وليس توخياً للأجمل والأمثل وإنما هو أن يضيف الفنان إلى موضوعه أحاسيسه ومشاعره كما يتوهمها أو يشعر أنها متفاعلة في وجدان الناس.

* * *

قال شوبنهاور عن الجمال: الطبيعة في تحقيقها للجمال تبدأ من البسيط..

وترتفع درجة الكمال في الجمال بارتفاع درجة التعقيد.. فكلما ازداد التعقيد ازداد اقتراب الجمال من الكمال.

ولهذا كان الجسم الإنساني أعلى وأسمى وأشرف المرائي في الجمال لأنه أكثرها تعقيداً وانطلاقاً من هذه الحقيقة يصح أن يقال:

في جسم الإنسان ـ كل مطالب الفن في الجمال.. حتى التعقيد والإغراب والغموض.

* * *

المفروض في الفنون، أنها لا تستهدف غاية، سوى الإمتاع والإرضاء، أو تفسيراً للمعاني وإيجاد شعور نفسي بالارتياح لها. . وهي لا تعترف بالزمن، إذ ليس مما يعني الفنان أن يقدم عملاً في إطار الزمن. وهذا هو السر، في أننا نعجب بالقصيدة من الشعر نظمها الشاعر قبل مئات السنين، ونقف في ذهول، أمام لوحة رسمت قبل قرون، حتى اللحن الموسيقي يرضينا وهو آت من بعد سحيق في الزمان.

❊ ❊ ❊

في هذا العصر وربما في عصور قديمة، استطاع الفن أن يفرض وجوده، وأن يجعل البشر يدركون حاجتهم إليه لا كعنصر ترفيه، أو كمظهر من مظاهر الترف والأبهة، وإنما كضرورة لا غنى عنها. ومن هنا أصبحنا نرى اليوم حرص مختلف المنتجات الصناعية، على أن تضفي على إنتاجها لمسة الفن في الشكل واللون وانسياب الخطوط وتعانق وانسجام «الجزء مع الكل».

قد نكون على مشارف عصر ـ هو القرن القادم، يجد فيه الفنان حلمه الخالد وهو أن يغني الحياة، وأن يعطيها معنى أكبر من مجرد إلحاحة إلى العيش.

❊ ❊ ❊

أبشع أنواع البخل. . بخل القلب بالحب. .

وما أشد تعاسة أولئك الذين يعجزون عن إنفاق الكنز الوحيد الذي لا يفنى. . وهو (الحب).

إنهم يبخلون بأشعة الضوء التي تمزق كسف الظلام في مجاهل الطريق. . ليس أبخل ممن يحجب عنك ضوء الشمس.

❊ ❊ ❊

صغيرتك التي تستقبلك بأهازيجها حين تعود إلى البيت وتتعلق بك وعلى ثغرها. . (بابا). . وبين ذراعيها الصغيرتين الناعمتين دنياها من حبك. .

ما أفظع ما يكون بخلك وشُحُّك إذا لم تأخذها بين ذراعيك. . إذا خيبت أملها في حبك. . في فرحتها بلقائك.

* * *

وهذا الطفل. . ابنُك. . الذي يملأ البيت ضجيجاً. . وحين أحس بخطوتك داخلاً، حبسَ أنفاسه واختفى خوفاً منك. . ما أعظم سعادته وأبهج أفراحه حين تبحث عنه، وتمنحه كلمة حلوة. . وتأخذه بيدك ليحدثك بلثغته التي تقطر شَهداً، وغنة صوته التي تعزف أجمل الألحان. . ليقول أي شيء. . وما أشد بؤسَه، وانسحاق قلبه وتفطر مشاعره، حين تلاحقه بالشتائم والصفعات، لأن مرحه الصاخب جريمة في تقديرك وحسك المغلق، وظنك الأجوف أن متاعب يومك لا تنتهي إلا بسجن الأفراح من حولك. .

وهذه الزوج. . زوجُك. . ماذا تخسر بالله، إذا ما ابتسمت في وجهها؟ إنك لا تدري أنها تعيش على هذه الابتسامة في كل ما تواجهه من متاعب البيت والأطفال. . وربما قلة المال وسوء الحال.

* * *

وهذا الصديق، أو لعلّه الزميل في العمل. . ما أكثر ما تربح من اعتزازه بك، وعطفه عليك، لو أنك تضيف إلى تحية الصباح المألوفة كلمة اهتمام. . كسؤال عن صحته. . أو عناية بمشكلته. . أسفاً إذا لم تحل. . ومشاركة في الفرحة إذا أراد الله لها الحل. .

* * *

وأخيراً هذا الذي تعتقد أنه عدوّك، يتربَّص بك. . يريد أن ينهش لحمك

لو استطاع.. ما أسرع ما تتساقط أنيابه وتتثلَّم مخالبه وأنت تأخذه في الأحضان وتشعره بالحب.

ثم ماذا تخسر في كل هذا؟ لا شيء.. بل المؤكد أنك الرابح أنك تربح ما لن تستطيع شراءه بكنوز العالم.. تربح الحب.

الحب الذي يمزق، ويهشم كسف الظلام في الطريق.. إلى حياتك كإنسان..

الإحساس بحركة الزمن، في هذا العصر وعلى الأخص بعد الحرب العالمية الثانية، كان لا بد أن يبلغ مداه العميق في كل عمل، وفي كل إنتاج.. وكما في أي نشاط، صناعي أو علمي، فإن مختلف وجوه النشاط الفني، لا بد أن تساير الإحساس بحركة الزمن.. ولعلّ هذا من أكبر العوامل، التي دفعت إلى ساحة الحضارة، في هذا العصر اتجاهات الفن الحديث، ليس فقط في الفنون التشكيلية وحدها وإنما في مختلف الفنون الأخرى ومنها الشعر والموسيقى.

***

في الفن التشكيلي، لم يعد لدى الفنان متسع من الوقت لعمل يعتمد على إبداع الدقة والمهارة والتفاصيل الصغيرة.. وفي الفنون التعبيرية لم يعد لدى الشاعر أو الموسيقار، متسع من الوقت لاتباع الأصول التقليدية. فكان من ذلك ما نقرأ وما نسمع من عطاء، قد ينفر منه أبناء الجيل الماضي أو الحاضر ولكنه المحبب والمألوف لدى أولئك الذين وثبوا إلى الحياة في القرن الواحد والعشرين.

***

كلما تقدمت الأمم في ميادين الفن والثقافة.. وكلما اشتدت صاروخية حركة الزمن، كلما اشتدت حاجتها إلى المزيد من روافدَ نَشِيطة تمد مسيرتها بالطاقة التي تمكنها من ملاحقة حركة الزمن ومعايشتها، وكذلك الاستمرار في

انطلاقها نحو الآفاق الجديدة التي لا تتراءى إلاَّ لأولئك الذين يُصمِّمون على ارتيادها كما يرونها في المتغيرات المتوقَّعة في القرن الواحد والعشرين.

يقال عن ليوناردو دافنشي، أن عالمه الخاص، يحيط به ما يجعله أشبه بالمجهول الذي لا يراه سواه.. ذلك أنه كان شديد الطموح، لا يقنع بالذي يسهل مناله، وإنما يتوخى المراقي الصعبة التي لا تخطر ببال.. ومن هنا كان الليل هو زمنه الذي يحب، وفيه يجد المجال الذي يستطيع أن يحلق فيه بطموحه وتطلعاته.

* * *

قالوا إن الفن هو ذكاء الإنسان، الذي يعالج المرئيات في الطبيعة، ويحركها لتحقيق تطلعه إلى الأجمل.

* * *

أياً كانت الحياة فإنها تظل تجربة، وأياً كانت التجربة، فهي مسيرة في الزمان.. أَبعادٌ لفصل من تراجيديا أو كوميديا الحياة.. والتعبير عن هذه التجربة مسؤولية الكاتب والشاعر، ومسؤولية الفنان.

* * *

مع ما استطاعت خصائص الكلاسيكية أن تحفظه لنا من روائع التراث، في الفن، شعراً ونحتاً وتصويراً فقد واجهها النقاد المعاصرون بالتمزيق والهدم. فقالوا إنها حين تصور من الحياة أجمل وجوهها، تخدعنا عن الواقع الذي نعايشه بمخازيه وقُبحه، ونتطلع إلى التخلص منه.. المثال الذي لن نراه والجمال الذي مآله إلى الشوه والتنفير وإيهامنا أنه الحقيقة التي من أجلها يجب أن نعيش خديعةً رخيصة آن للإنسان أن يعيها.. وما لم يكن الفن صادقاً، مع واقع الحياة ومع ضمير الفنان، فإنه يخسر معركة البقاء.

يطلق تعريف الفن بما عرف للنص، على أعمال كثيرة متنوعة، ولا

علاقة لها بمفهومنا الثقافي عن الفن، فلنا أن نقول فن التفصيل، وفن فلاحة البساتين، كما نقول فن التصوير وفن الرسم وفن النحت وفن العمارة.. وطبيعي أن تتسع كلمة (الفن) لتشمل الموسيقى والشعر والتمثيل والباليه والقصة.. غير أن المألوف أن تطلق كلمة «فن» على الفنون الجميلة التي اختلف العلماء في حصرها وتحديدها فإذا توقفنا عند فن الرسم أو النحت مثلاً فإننا نجد أن مهمة الفنان ليست في أن يصور ما يراه.. وذلك ما تستطيع أن تفعله الكاميرا بإتقان يعجز عنه الفنان دون شك، إنما مهمته أن يحقق شيئاً أعظم من مجرد النقل.. أن يقول بالخطوط وبالألوان والظلال وبحركة الريشة، شيئاً أكثر من مجرد الصورة التي يراها، أن يعبر لنا عن إحساسه ونظرته إلى المرئي الذي يصوره.

ولا يكفي لتقدير الفن، أن يستطيع الفنان التعبير عما في نفسه، إذ لا بد من أن يوحي إلينا هذا التعبير بتلك المعاني والصور التي تحرك في نفوسنا المشاعر النابضة بصور الجمال:

ولكن ـ رغم هذه النظرة الدقيقة ـ فإن مجرد محاولة التعبير التي يقوم بها الفنان، تعطينا ذلك الإحساس الغامض بأن الجمال مطلب بعيد الآفاق.. وأن الإنسان يحاول التحليق في تلك الآفاق.

* * *

الفن الذي لا يعنى بغير (الجميل) في الطبيعة، فن ضعيف: لأن الجميل في الطبيعة ليس بالضرورة جميلاً في الفن.

إنما تتجلى قدرة الفنان، في تعمقه موضوعاً قد يعتبر من أسوأ ما تقع عليه العين ومع ذلك، فنظرة الفنان إليه تجعله قضية من قضايا الفكر، أو قضية من قضايا المجتمع.

* * *

في الفنون، محاولة دائمة للتعبير، والشعر أو النثر أوسع مجالاً من أي فن آخر. يستطيع الرسام مثلاً أن يعبر عن فكرة بالخطوط والألوان والظلال، ولكنه لا يعطيك فرصة التوسع في الخيال كما تعطيك الكلمة الشاعرة.. أما الموسيقى فقلما تستطيع أن تتصل بأكثر من حاسة السمع، وما تسمعه يعجز عن أن يعطيك أكثر من الإحساس الغامض بالكثير الغائم غير المحدود، وأحياناً غير المفهوم.

* * *

قد يحاول الفنان ـ وأعني الرسام والشاعر والموسيقار ـ أن يغمض عينيه عن بيئته ومجتمعه، فيقدم العمل الفني وعليه مسحة الغربة والانفلات.. ولا يعيبه ذلك، لأنه في هذه الإغفاءة عن البيئة والغربة عن المجتمع، يقدم تطلعه إلى بيئة أكثر حيوية، ومجتمع أكثر ازدهاراً أو سمواً أو نبلاً، أو أوفر شجاعة وإقداماً.

حين يندغم في البيئة، ويعكس لنا واقعها، فإنه أقرب إلى سجل لما يشعر أو يرى وليس هذا سبيل فنه إلى السمو.. ولكن حين ينفلت، فإنه يعكس لنا طموحه وأمله وحلمه البعيد والسعيد.

* * *

عرف بعضهم الجمال فقال: هو الحركة في السكون، وانسياب التوفز الناهد في الهدوء الوديع..

الشعر في المدرسة الرمزية، ليس من عمل العقل، وليس التفكير من أدواته، وإنما هو إلهام يتدفق من اللاوعي.

وهذا ما يجعل الشعر الرمزي يبدو غامضاً، ولكنه يعطيه في نفس الوقت، مجالاً للكثير من التأويل والتصور اللذين قد لا يكونان مما خطر ببال الفنان، ولكنهما يخاطبان اللاوعي عند جمهرة من القراء.

* * *

كان يظن إلى ما قبل سنوات، أن من المستحيل، كتابة الأنغام التي يتحدث عنها أبو الفرج الأصفهاني ويحدد مواقع الأنامل من خنصر وبنصر ووسطى على العود. . وكتابة الأنغام هو ما يسمى بلغة اليوم (تنويطها). . والتنويط اشتقاق من (نوطة) وفي الاشتقاق مرونة لطيفة لا بأس بها. . ولكن يمكن أن نعدل عن الكلمة إلى كلمة نعرفها ويستعملها حتى الفرنجة. . وهي (كتابة). . فهم لا يقولون (بيتهوفن نوط سيمفونيته مثلاً). . وإنما يقولون (كتبها). .

ومعذرة للاستطراد. . فالذي أردنا أن نقوله هو أننا قد سمعنا أن موسيقاراً في مصر استطاع أخيراً أن يكتب أو (ينوط) الألحان التي ذكرها أبو الفرج الأصفهاني. . وليس بعيداً اليوم الذي نسمعها فيه.

* * *

لم يستطع الفن قط، أن يجد أجمل ولا أغنى من جسم المرأة، تناسقاً، ودقة تركيب، وتدرجاً في الحركة وانسياباً حلواً في الانتقال، من شكل إلى شكل، بل ومن خط إلى خط في التكوين العام، دع عنك اللون، وما يسطع أو يخبو في البشرة من ظلال، لكل ظل منها معنى يؤديه تعبيراً عن الجمال، بل دع عنك، الصوت، وما في غنته أو بَحَّته، أو همسه، أو لثغته من قدرة على الإيحاء بمعنى غامض من معاني الحسن والفتنة وتبارك الله أحسن الخالقين.

* * *

سئل أرسطو عن تعريف الجمال فقال:

دعوا هذه المسألة للعيان. .

قد يذهب بعض المأخوذين بالتقدم التكنولوجي، إلى أن الإنسان، في طريقه إلى الاستغناء عن الفنون. . وذلك لأن الزمن لا يزال يلتهم جهد

الإنسان بحيث لا يترك له تلك الفرصة التي يهجع فيها، ليقرأ مقطوعة من الشعر أو ليصغي إلى عمل موسيقي ضخم، أو ليتأمل تمثالاً أو لوحة لفنان.. ولكن ما أكثر ما يخطئ الذين يذهبون هذا المذهب في تقديرهم أو إيمانهم بالتقدم التكنولوجي ويخطئ أيضاً أولئك الذين يظنون أن التكنولوجيا تعجز عن أن تُسهم هي أيضاً بوسائلها الجديدة، للإبداع الفني.. ليس بعيداً أبداً ذلك اليوم الذي يقدم فيه العقل الألكتروني المتطور روائع للفن، قد يعجز عن إبداعها خيال عظماء الفن، حتى في الشعر.

* * *

منظر طفل متشرد، يتراكم على شدقيه الذباب، وتتلامح عظامه من ثيابه الممزقة، ليس منظراً ترتاح إليه العيون.. قد تشفق عليه.. قد تمتد إليه الأيدي بقطعة نقد، أو بِكِسْرة خبز.. ولكنه بالنسبة للفنان أجمل موضوع.. فإذا استطاع أن يعطينا ـ إحساسه وانفعالاتِ نفسه، وأظهر لنا في عيني الطفل البراءة التي لا تزال عاجزة عن الحقد.. فإنه يضعنا أمام قضية من قضايا الإنسان المعاصر، في صراعه الدامي مع الحياة.

ليس الفن محدوداً في هذه الروائع التي تتألق وتتبختر في متاحف الفن في عواصم العالم الكبرى لأولئك العباقرة، الذين تسنموا الذرى، وتربعوا على عروش الخلود.. كلا فإنك تجد نماذج من الفن الرفيع، مع العمق العفوي، في إنتاج الكثيرين الذين لم تتفتح عنهم محاراتهم، لأن الغواص لا يدري أن الكثير الغالي من الجوهر يكمن في محارة، يتركها، لأنها غارقة في الرمال.

* * *

الفن بنوعيه ـ التعبيري والتشكيلي، منذ ثلاثين عاماً، يعاني مخاضاً هو نتيجة محتومة للرواسب التي تركتها حالة التفاعل، التي ليس من المبالغة أن

يقال، إن الإنسان في كل تاريخه لم يجرب مثلها. ومن طبيعة هذا المخاض، أن يتخذ طابع التجربة، وأن يخضع لعامل الانتخاب والتطور، ومن طبيعة هذه العوامل أن تعطي الكثير الذي قد يندثر، ولكنه يظل مرحلة لها مميزاتها وسماتها. وربما، وربما لمعجبين بها أيضاً. . وإلى أن يتم تطور متكامل، قد يستغرق أجيالاً، لا بد أن نتقبل ما يطرأ على الفن، وما يعانيه الشعر، وما تمر به الموسيقى من ظاهرة، نظنها تنافراً وصداعاً وشذوذاً. . بينما هي ضرورة يمليها كل تطور، في جميع مراحل الحياة.

التكنولوجيا مطلب العصر، وعلى الأخص بعد أن وصل الإنسان إلى القمر وصور المريخ، ومن هنا كان إقبال الدنيا على العلوم. . والرياضيات، والميكانيكا. . وما إلى ذلك من عناصر تكوين التقدم التكنولوجي. . ولكن يجب أن لا ننسى أن هدف التقدم العلمي هو الانتصار في صراع عاصف. . أما الفن فما أسمى ما يهدف إليه. . إن هدفه الوحيد أن تنعم الحياة بلحظات حب وسلام.

كما تتطور العلوم والتكنولوجيا، وتبلغ هذا المدى الذي بلغته في هذه الأيام، تتطور حواس الإنسان المعاصر بالنسبة للفن من شعر ورسم وموسيقى. . ففي الشعر. . لم يعد ذوق إنسان العصر يطيق مواضيع الشعر التقليدية، وتلك المطولات التي يزهو الشاعر بشرود قوافيها وزحمة التشابيه والاستعارات فيها. . ربما كان السبب هو أن الوقت لم يعد يتسع لمثل هذا الغثاء. . وفي الرسم، يستطيع ذوق إنسان العصر أن يفهم من نقطة سوداء في فراغ. . أو من خط أخضر على خلفية صفراء. . أو من جزء من هدب ولمحة عين أكثر مما يفهم عن كل التفاصيل التي يحفل بها عمل فني من الأعمال التي نشاهدها في متحف اللوفر في باريس، أو في متحف (تيت) في لندن. . أما في الموسيقى. . فهذا التشنج العنيف الذي يملأ ساعات الليل

والنهار، يعبر عند إنسان هذا العصر، عن واقعه الذي تتلاحق فيه متاعب الحياة، كما تتلاحق مئات المطارق في أيدي عمال يحاولون أن يصنعوا من الصلب، أداة تتطلبها الأسواق.

* * *

سؤال كثيراً ما طرح وكثيراً ما اختلفت الإجابة إليه.. وهو:

هل ينبغي أن يلتزم الفنان بالدعوة إلى فضيلة معينة أو خلق معين أو سلوك معين؟ أم أن له أن ينطلق، فلا يلتزم بشيء؟ وإنما يقدم العمل الفني خالصاً، بكل خصائصه وبكل شحنة الإخلاص فيه.. وللناس أن يفهموا منه هدفاً أو أهدافاً، أملاها العمل الفني الصادق المجرد من كل غرض أو هوى، سوى غرض الفنان، في تقديم العمل المتكامل.

وللإجابة عن هذا السؤال، نواجه، مشكلة معقدة أشد التعقيد.. وهي مضمون رسالة الفن؟ هل هي مجرد الخَلْق والابتكار؟ أم هي هذا الخلق والابتكار، في اتجاه مرسوم، وغرض محدود، وهدف مقصود..

ومرة أخرى، تواجه هذه الأسئلة بسؤال.. هل تتاح للفن سبل الانطلاق والتحليق إذا حدد له الاتجاه، والغرض والهدف؟ أم أن هذا التحديد، يكبِّل الفن والفنان بالقيود التي تجعل منه مجرد آلة تحكمه وتُسيرِّها الحدود والقيود؟

* * *

تميل مختلف مدارس الفن، في الشعر والرسم والموسيقى، إلى الأخذ بمبدأ حرية الفن.. حرية الانطلاق، دون قيد أو شرط.. دون اتجاه أو غرض أو هدف.. فذلك هو سبيل الفن، إلى اكتشاف الجديد من الآفاق، وهم يرون، أن الجديد والمجهول، والذي ينتظره الفنان الحر، لا يزال أكثر

وأوسع وأكثر خصباً وعطاء من كل ما يزخر به تراث الإنسان من عطاء الفن في مختلف العصور.

❊ ❊ ❊

بقدر ما تتنوع المعارف والعلوم في هذا العصر، بقدر ما يشتد الحصار على الفنان بحيث يجد حوله غابات لا حصر لها ولا عد، من تطلعات الإنسان وطموحه، ومن انفلاته وانطلاقه، وجموحه وتنوع مفاهيمه، ونظرته إلى الحياة.. كيف يستطيع الفنان أن يواجه كل هذا وأن يتواءم مع عصره.. ذلك هو السؤال الذي تذوب الشموع في الليالي الطويلة التي يقضيها الفنان في الإجابة عليه.

❊ ❊ ❊

ترى من الذي يستطيع أن يتعمق، أو حتى يلمح، تلك المعركة الصاخبة التي تدور في ذهن الفنان، وهو يشق طريقه إلى ما يمكن في ضميره من معانٍ، يعرفها.. وربما يعايشها، ولكنها تأبى أن تتجرد من تلك الغلالة التي تستر أهم أسرار فتنتها وبؤر الإشعاع فيها.

مأساة الفنان دائماً أنه يرى أكثر مما يرى الغير.. ويريد في نفس الوقت أن يرى الناس رؤاه وأحلامه.

❊ ❊ ❊

العمل الفني الأصيل، يحتاج لفهمه إلى وقت، لأن الأصالة فيه هي العمق وبعد الغور، ومن هنا كانت ولا تزال كارثة الفنان الأصيل، الذي يتعلق به ادعاء الفهم من النقاد.

موضوع الربيع والمشاعر التي يبعثها في النفوس، موضوع تقليدي، طرقه جميع الشعراء في جميع اللغات، ومع ذلك يستطيع الفنان أو الشاعر العبقري

أن يشع فيه من روحه ومشاعره وأشواقه، فإذا هو موضوع جديد، يكاد يجعلك تشعر أنك لم تعرف الربيع إلا مع هذه الروح والمشاعر والأشواق.

❊ ❊ ❊

كل قيمة العمل الفني تنحصر في قدرة الفنان، على أن يبعث في هذا العمل روحاً جديدة ولوناً جديداً. . وأن يتيح لنا أن ننظر إليه من زوايا جديدة.

❊ ❊ ❊

أجمل ما في الموسيقى، أنها تستغني عن خطوط الأشكال وعن الظلال وعن الألوان، ولا علاقة لها بالضوء. . وتستغني عن الكلمة أيضاً. . ومع ذلك تستطيع أن تملأ وجدانك وأعماق نفسك، يكون من الصور والألوان والمعاني والظلال. . وأعجب ما تمتاز به أنها اللغة التي يفهمها البشر جميعاً.

نقد الجمال عمل يتطلب ـ مع التذوق ورهف الحس وبعد النظر ـ الكثير من الخبرة، والرصيد الضخم من الارتواء من منابع الحسن، ومناهل الفتنة ومكامن الجمال. ولا يعني ذلك بالضرورة، الافتتان، والتعلق أو الحب، وإنما هو يعني وفرة المخزون في الوجدان من صور الجمال.

❊ ❊ ❊

أصعب ما يواجه الفنان ـ اختيار الموضوع الذي يعالجه على الكانفاه، أو يدفقه في كيان شعري، أو يسكبه في لحن ـ ومع أن الحياة تزخر بما يبدو كثيراً متنوعاً من عطائها، فإن واقع الحال هو أنها محدودة العطاء. بحيث يجد الفنان نفسه مطوقاً بما سبق أن سخت به الحياة على من سبقه من الفنانين. ومن هنا جاء تمرد الفنان في هذا العصر. . إنه تمرد الرغبة في التخلص من براثن التقليد.

❊ ❊ ❊

لم يعد (المضمون) في الفن هدفاً. . كما لم يعد الفنان، يعني بأن ينصح أو يعظ أو ينبه أو يلفت النظر إلى هنة من هنات المجتمع أو رذيلة من رذائل الفرد. . كلا. . وإنما الذي يكرس الفنان له فنه، هو مشاعره نحو مفهومه من الجمال. . وليس ضرورياً أن يكون هذا المفهوم (تناسقاً أو تماثلاً أو ألواناً معينة وظلالاً). . يكفيه أن يبرز شريحة من نظرته قد لا تعجبك. . ولكن ثق أنها ستجد الكثيرين ممن يعجبون ويقدرون.

كان القلب يقول

من طبيعة القلب العاشق، أن يجعل لكل شيء
يتصل به.. قلباً يحن.. ويتناجى.. ويبكي..
حين تكون في عهد الصبا، تتقدم في الشباب وفي الكون..
وكأن الأشياء تخلق فيك خلقاً آخر
فإذا تناولت زهرة وتأملتها، شعرت وكأن في يدك أجمل
غادة تقدم لك معنى الجمال كله..
وإذا وقفت على شاطئ البحر، ترجرج البحر بأمواجه في
نفسك فتكون معه أكبر من الأرض.. وأوسع من الفضاء..
أما الحب..
أما الحب.. حين تكون في عهد الصبا
الحب.. تكون له معانيه الصغيرة.. ليس فيها شيء كبير
ولكن فيها.. في هذه المعاني الصغيرة، أكبر السعادة
ونضرة القلب..

* * *

تمنيت،.. وهي هناك.. في ضباب الذكرى
.. وراء شباكها الأزرق..، وراء ورودها

الصغيرة، بين الأغصان..
تمنيت.. لو أني نغم.. في لهاة بلبل،
يغرد لها في الصباح وفي المساء.. بل ماذا
لو كنت غيمة..

غيمة.. تضحك لها، كلما ألقت نظرة على
الأفق البعيد..

❋ ❋ ❋

لحظات، على جناح طائر تطارده الرياح
هي التي يتاح فيها لقاء
ولكن..
ما أجمل أن تسطع شعاعاً في ضباب الأيام
عندما أرى الحسن.. هناك على الشاطئ الضاحك
وموجات راقصة، تتعلق، مفتونة بالقدمين الصغيرتين
كثيراً ما في هذه اللحظات.. وهي تمر كعصفور نزق
تتدفق في القلب أنغام من عبقر
ومعانٍ.. ريش أجنحتها خمائل أهداب..
لست أدري كيف تملأ صدري صخباً وهديرا
واقف أمامها
أمام الحسن.. هناك على الشاطئ الضاحك
فيا للصمت المعجزة
يستطيع أن يقول الكثير

أن يلتمس شغاف القلب
يهز أعماق النفس
وألف وتر هناك
يعزف ألحاناً من عبقر..

* * *

وابتسامة خفرة.. تبخل حتى برؤية اللؤلؤ النضيد
تبرق وتتوهج، على الثغر الشهي
تجيب ألف سؤال تعانق حرَّى الأشواق..
تحترق.. وتتقطع الأوتار..
وتضحك الموجة.. مترامية على القدمين الصغيرتين
تقول: حتى نحن.. قد فهمنا ما قاله الصمت في لحظات..
لحظات على جناح طائر تطارده الرياح
تسطع شعاعاً في ضباب الأيام..
لحظات.. يتم فيها لقاء..

* * *

مساء وعودة راعٍ يسوق القطيع
وبوق سيارة.. طليق سريع
وجاء البريد
وجاء الرجال، شيوخ كبار
يقولون جاء.. جاء البريد

* * *

وأم.. وجدة وخال عجوز
على البئر.. دلاً تغور
وقرية يفتح فوهتها العجوز
ويحملها ثم يجري بها
صبي حفيد..
ويسمع عند الخباء
كلاماً كثيراً..
وجاء البريد.. جاء البريد

* * *

وللأم ابن.. بعيد.. بعيد
وجاء البريد
وفيه الرسالة.. فيه البشائر.. نجاح سعيد
تقول الرسالة ـ آن الآوان
سيجتمع الشمل.. كل الشباب
يجيئون وملء الحقائب، ثياب جديدة.. ويوم جديد
وبعد الغروب.. يطيب الحديث
والجد يسمع.. حلم الحفيد
لماذا يظل يحمل القربة
لماذا يضيع وراء القطيع
سيذهب مثلما فعل الآخرون
ليقرأ ويكتب.. يغني النشيد

ويكبر كما كبر سعيد
وتأتي رسائله في البريد
تبشر.. أن اللقاء قريب
وملء الحقائب، ثياب جديدة، ويوم جديد..

* * *

العشب.. أهداب العذارى.. يمتد على مدى النظر
في الجبال الشامخة الزرقاء والغدران.. همس عشاق..
في الوادي، على راحتي السفح
مرايا حوريات، تلتمع تحت ضوء الفجر القادم من هناك..
والنسمة الدافئة.. لهفة شوق
تعانق أشجار السيسبان والأثل
وجداول الضوء..
تتدفق على السفوح الخضر
والراعي وراء قطيعه ـ عند المنعطف ـ يتمنطق حزامه
الأحمر، في يده عصاه
وتحت إبطه، حقيبة من جلد الماعز.. ذات أهداب وطف..
بواكير الربيع..
ثغاء الشياه.. ورغاء الناقة وحنينها
حوارها هناك.. بين الخراف الشاردة
يعود إليها.. إلى ضرعها الحنون..

* * *

بواكير الربيع.. وتحت تلك الظلال الناعمة.. في الوادي الأسمر
كانت ظلال أهدابك، على الشفق وراء اللثام
ابتسامتك الخفرة
صمت.. قال كل شيء لم تهمس به شفتاك
أيتها الحياة
أيتها المروج.. تتلاحق على القمم من سندس
أيها الصبا الغض
يا جداول الضوء.. تتدفق على السفوح الخضر
أيتها الآمال..
كل الآمال في صدر الشباب
هذه دمعة.. ما أغلاها يا حبيبتي
دمعتي بين يديك.. تأبى أن تنحدر
عبرها أراك.. حورية بين الضباب الوردي
مع بواكير الربيع.. تحت تلك الظلال تترامى في الوادي الأسمر
في فجر شبابنا..
أيتها الأفراح.. وأنت يا دموعها..
يا عطر الخزامى والسيسبان
هذا..
هذا.. كان.. فجر الحب

* * *

كنت طفلاً، يوم رأيت النجوم لأول مرة

كنت في حضن أمي..
ورغم ذلك سرت في جسمي رعشة برد
فانتبهت لذاتي الصغيرة
أحسست أني أعرف ما لم أعرف من قبل

* * *

وما أكثر ما عرفت، بعد ذلك المساء
وما أكثر ما سعدت بما أعرف
وما أكثر ما شقيت
وفي ذات صباح
عند الغدير، حيث ترعى الماشية وتشرب
رأيتها..
تلك الراعية الصغيرة..
رأيتها قبل ذلك مئات المرات
ولكن في ذلك الصباح، رأيت في وجهها الصبوح الباسم
الصغير ما لم أر من قبل
رأيت الجمال.. عرفته.. وليس قليلاً أن تعرف الجمال

* * *

ومرت أعوام.. امتلأت حياتي خلالها بالكثير من المعرفة
بالكثير من الوجوه الصباح
بالكثير من السمات الحلوة والقسمات الباسمة
ولكن.. تلك الراعية الصغيرة

في ذلك الصباح
كانت وحدها صورة الجمال..
كانت وحدها التي ما زلت أذكرها، كلما رأيت الوجوه الصباح

❊ ❊ ❊

كانت تمشي وحدها
تصعد الجبل العالي لتسقي وردتها
وكانت تنظر بخضرة عينيها
بسود أهدابها
بتفتح قلبها
وكانت ترى هنا وهناك
براعم الورود
منتشرة في الدروب

❊ ❊ ❊

قالت أختها: ميلي إلى الدرب السهلة
حيث تنبت الورود في الرمال
في صميم الرمال البيضاء
لا شوك لهذه الورود ولا شموخ
هي موطئ لقدميك العاريتين

❊ ❊ ❊

وكانت تائهة عن أختها
تجرح قدميها أشواك الدروب

تحث الخطى إلى هناك

حيث تنبت وردتها الوحيدة

في مهب العاصفة

على القمة.. في شرفة الظلام

❋ ❋ ❋

وتفتحت البرعمة الصغيرة

في الصخرة

في الصخرة العطشى المتحجرة

جميلة كالفجر.. رائعة كالليل.. رحبة كالسماء

من دموع عينيها شربت فلم ترتو

من دمائها الحمراء اغتسلت..

فكانت غرسة جديدة.. في تربة غريبة

❋ ❋ ❋

من يسقي براعم الورد.. يا أخت الورد

من يمسح دمع الصباح.. عن وجناتها المحمرة

من يضمها إلى صدره.. في هزيع الليل البارد

من يقيها حرارة الشمس المحرقة

❋ ❋ ❋

وانحنت على الصخر..

وشقت من ضلوعها إلى قلبه طريقاً

وهمست في أذنه.. نفحة واحدة من نفحات حبها

وكسرَّت على المنحنى، وهي تتمتم

أيها الصخر..

أيها الصخر.. أسهر على وردتي..

❊ ❊ ❊

مواكب الذكريات البعيدة.. تتراءى هناك.. وراء مراحل الزمن العتيد

ذكريات ليالٍ.. عشناها.. أفراحاً.. وعناء.. وشقاء

أفراح الصبا والشباب.. حتى بتلك الرحلات على الإبل إلى جوف الصحراء وعناء..

عناء الركض اللاهث، وراء الآمال الكبيرة..

وشقاء

شقاء التعثر.. والخيبة.. والفشل.. ثم استئناف السيرة من أول الطريق..

❊ ❊ ❊

واحسرتاه لها.. تلك الأيام

كيف استدار الفلك.. وكيف طوى الزمن والتفّ على الذهب والجواهر من الأماني والآمال

واحسرتاه لها.. تلك الليالي

ليالٍ طويلة.. قضيناها في انتظار تباشير فجر مرتقب

كانت سعيدة.. تلك الليالي.. لأن الجوانح عامرة بالرجاء

كانت حلوة.. لأن الثمار تتلامح وفي القلب توثب.. وفي الدماء حرارة الشباب..

* * *

ولقد أثير الجهد.. وحبات العرق لم تذهب هباء

والسعي المتواصل.. انتهى إلى الغاية..

وفتحت الحياة أبوابها..

وعشناها.. أيام لنا.. وأيام علينا..

ثم.. ها هي الشمس.. تنحدر إلى المنزلق هناك..

وراء الأفق..

والليل.. يزحف.. داجي الظلمة.. ليس في سمائه نجوم..

لأن ما بقي من ضوء الوجدان.. يختبئ.. في الأغوار

كأنه يكتفي بما مضى.. ويحرص على ما بقي..

وليس ما بقي.. سوى وضع الرأس على الأرض..

وفي الأرض ومنها.. وإليها كل المصير..

* * *

تعالي..

تعالي.. نهرب من مناقير الطيور..

لنتحول سريعاً.. إلى ندى يرتاح على بتلات وردة

وكالندى.. عندما تشرق الشمس.. نبدأ رحلتنا على أشعتها الدافئة..

لست أدري.. أين سنلقى عصا التيار
ولكننا.. سنعود قبيل الفجر..
على زورق فضي.. محمل بعطور الليل
نعود.. لنرتاح على بتلات.. وردة.. وربما زنبقة
يعجبها أن تستقبل الصباح..

* * *

تعالي..
تعالي.. فالضباب، على الذروة، يستعجلنا لنذهب
أتدرين إلى أين؟
همس في أذني.. إنه يريد أن يمتعنا برحلة إلى خيام الشفق
خيام.. رأيتها.. ربما أقامها الخريف، لحفلة وداع..
ربما ضيوف الحفلة.. تلك الرياح.. التي تهب من الشمال
ربما.. بعض أشجار السنديان..
تعالي.. فليس أجمل من أن نرى تلك الخيام
خيام الشفق.. في وداع الخريف..

* * *

على صدرها، وفي كوخها
ينام الرضيع. وتغفو الخيام
نداء جريح، وأنات ريح
وسعلة شيخ، وهمس الظلام

وتسهر سلمى، مع الذكريات

* * *

مراحل ماضٍ قصير تمر
وتعيش دروباً، وتطوي هضاب
ومعها على الدرب خلق كثير
نساء حوامل أو مرضعات
وصرخات طفل هوى في التراب
وصوت الرصاص، بعيداً هناك
وقصف المدافع، عبر الشعاب
وتسهر سلمى مع الذكريات

* * *

هنا.. قيل: استريحوا هنا..
هنا خيمة، تحتها ترتمي
نساء، ومعهن أطفالنا
ونحن الرجال، كلنا ننتمي
لجيش الفداء، لأوطاننا
وهبوا يلبون، يوماً دنا
وتسهر سلمى مع الذكريات

* * *

وفي ليلة، عز فيها المنام
وطالت، كدهر طويل طويل

مشى جدها، عبر صف الخيام
ليسأل، من عاد، فيم العويل؟
وجاء العجوز، ومات الكلام
كثيرون قتلى، ومنهم خليل
وتسهر سلمى مع الذكريات

❋ ❋ ❋

إنه الفجر هناك.. والبحر هنا
ولكن العيون.. وراء الليل.. والضباب والدخان

❋ ❋ ❋

أين العيون يملأها الفجر وأحلام الزهر والضياء
أين العيون يغمرها البحر بأفراح الموج وومضات الرجاء

❋ ❋ ❋

إنه الفجر والبحر
أنهار من لجين تتهادى عبر ألف قمة زرقاء
وكون من المباهج.. يضحك.. يملأ الدنيا غناء
ولكن العيون..
أين العيون يا ترى؟
أين العيون تتأمل؟
أين العيون تنهل من منابع الطهر والصفاء؟

❋ ❋ ❋

وراء الأهداب.. تلك العيون

وراء الليل.. والضباب.. والدخان
وراء أوتار يقطِّعها الصراع
أبواق يفجرها الضياع
وراء زلزال الطبول يدمر أرواح الجياع

❊ ❊ ❊

لك.. للوفاء النقي وللصفاء
أشعلت مجامر القلب، تبارك النقاء
أحرقت فيها بخوراً من هناء
هناء الليالي البيض.. أيام اللقاء..
أمواجي حزينة ساكنة
في مرآتها الصافية.. ليس سواك
وفي ذهني.. وراء هذه الجبهة التي تحترق
لا شيء.. لا شيء أبداً.. سوى ذكراك

❊ ❊ ❊

كان ربيعاً.. ربيعاً في ليالي شتاء
وهوت أزهار ذلك الربيع.. ماتت..
في ذات مساء
كانت الأشجار في ربيع شتائي تخضر كل لحظة
والجداول التي جمدها الصقيع..
كانت ترقرق، في قلبي ألحان أمل

ولكن.. واليوم ربيع.. ربيع الفصول والدهور
الأشجار الخضراء.. محروقة.. أكلتها النيران
والجداول التي تترقرق وتنساب وتتدلل.. مستنقعات..
مستنقعات، فقدت حتى خريرها العذب..
فقدت معناها الجميل..

❊ ❊ ❊

ذلك هو الخريف.. والشتاء.. والعواصف والرياح
ألحان الفراق.. ما أتفه الذين صوروها بالأنين
كلا إنها اللهيب، تتقصف من ألسنتها أشجار الغاب
تتفتت مع سمومها اللافح، بتلات كل الزهر.. كل العشب
.. كل الورود..

❊ ❊ ❊

هذا وقت عودته.. ولم يعد يا أماه
يغيب عنا.. يطيل غيابه..
يقود تلك الشاحنة في جوف الليل..
في بطون الأودية والشعاب
ولكنه يعود.. في مثل هذا الوقت يعود
ولم يعد.. لم يعد أبي يا أماه

❊ ❊ ❊

ومضت أيام.. نهارها كلياليها
سوداء مظلمة.. ولا شيء إلا الصمت

شاحنات كثيرة تمر..
أصوات رجال ترتفع في مشرق الشمس
وفي ذلك البيت.. في الزقاق العتيق
لا شيء إلا الصمت.. والليل الطويل

* * *

ولم يعد أبوها..
ابتلعه الليل
أطبقت عليه حفنة من تراب الأودية والشعاب
وقالت أمها:
لن يعود يا بنيتي..
ولكنه سيظل هنا
في هذا القلب..
وفي قلبك الصغير..
في قلوب اليتامى لا يموت الأب..
قلوب اليتامى وحدها.. هي التي تعرف كيف تنطوي
على الآباء والأمهات..

* * *

مع الصباح.. والزقاق ما يزال يتثاءب
والقمرية على الشجرة ما تزال ترسل هديلها الحزين
والعجوز..
ذلك العجوز جارنا تسبقه سعلته الخاوية كالكهف

مع الصباح رأيتها
صباحاً أبيض كالحلم

* * *

والعجوز.. ذلك العجوز جارنا
عاكفاً على صفائح الجبن
لم يلتفت.. لم يدر أنها هناك
وسمعتها تقول..
في صوتها أغرودة طائر حبيس مفزع
الطبيب.. يا عم.. الطبيب
وكنت أنا الطبيب..

* * *

الشمعة تحترق في طبق من صفيح
والأم
أمها.. تحرقها الحمى.. ويهدمها السعال
بقايا لحاف.. وكسرة خبز جافة.. وديوان شعر
وفي الركن المظلم هناك.. مرآتها
مرآة الصباح
الضوء يتسلل من كوة.. ضوء باهت.. يعب منه الظلام
ورقة نقد في يدها.. وأنات الأم.. أنينها المتواصل..
سعالها من بعيد..

* * *

ومع الصباح رأيتها.. صباحاً أبيض كالحلم

أنا والعجوز وبعض جيران الزقاق.. والقمرية على الشجرة

ما تزال ترسل هديلها الحزين..

موكب الرحلة إلى هناك.. إلى المثوى الأخير..

ودنا المساء.. ورأيتها تعود.. في عينيها حريق الوداع

في يديها منديل ترقأ به دموعها على الراحلة في مثواها الأخير

❊ ❊ ❊

والعجوز.. ذلك العجوز.. جارنا

يدب على عكازه.. يناولها شمعة جديدة

أخذتها وعادت.. وابتلعتها الظلال.. والظلام

في الطريق..

إلى دنيا كلها.. درب طويل..

❊ ❊ ❊

حياته في المدينة..

المدينة الكبيرة..

بين ألف عملاق

من حجر.. من حديد.. من شرر

غابات من حديد.. ودخان.. من ضجر

حياته في المدينة

المدينة الكبيرة..

❊ ❊ ❊

حياته في المدينة.. وملايين البشر
يأكلهم الشارع الطويل.. تمضغهم الأرصفة
تحفر عيونهم.. تثقبها الرؤى والصور

* * *

الرؤى والصور.. وملايين البشر.. في صدورهم قلوب
لكنها من حجر
جمدها الضجر
رمدها الضياع.. والضنى.. والسهر..

* * *

حياته في المدينة..
المدينة الكبيرة
لا أحد يشعر بها
والشارع الطويل.. لاهث منبهر
كل ما يرجوه.. نظرة من قمر
لكنه.. بعيد.. في ضمير القدر..
كل ما يرجوه.. ضائع مندثر..

* * *

قالت الحياة كلمتها
تلك الكلمات التي يظنها الناس أنشودة
قالت الحياة للأحياء

للذين يعيشون ليحيوا

وظننتها أنا حلاً.. وسبيلاً إلى السلام

* * *

الحياة للأحياء

للذين يعيشون ليحيوا

وظننتها أنا حلاً.. وسبيلاً إلى السلام

سلام الروح.. والنفس.. والجسد

فإذا بي مكبلة بالأغلال

كل ما حولي شتاء وجليد

لا شيء يشيع الدفء في روحي

ولا نأمة أمل

ترفع عن عاتقي الأغلال

الأغلال الثقال..

أغلال الحياة للأحياء..

* * *

والصبا.. ذلك الفجر الذي يطل من عيون، فيها

أطياف الشوق..

كم أسرع يلملم بساطه السحري

كيف.. شحب.. مشت عليه الغيوم

والفراغ..

الأغلال الثقال

مكبلّة بالأغلال
كل ما حولي شتاء وجليد
عواصف وأنواء..
وما زالوا يقولون.. الحياة للأحياء
للذين يعيشون ليحيوا..
هراء.. خواء..

❊ ❊ ❊

عجوز..
في نفس الطريق
على نفس الرصيف وتحت ظلال أشجار الشارع الطويل
هي نفسها الأشجار التي عرفها منذ زمن طويل
ولكن عجوز..

❊ ❊ ❊

نفس الطريق، شهده وهو يقفز كالعصفور
نفس الرصيف، كان يقف فيه، ومعه كوكبة من الشباب
هذه الظلال في الليل..
تحت مصابيح الشارع الخافتة
كان يقف تحتها.. ينتظر الأصدقاء
كانوا يجيئون.. ضحكاتهم الصاخبة تعكر صفو السكون
كل شيء هو.. هو..
ولكن عجوز..

❊ ❊ ❊

والقلب.. هذا القلب الذي طالما خفق للجمال
طالما ردد قصائد حلوة من شعر القدامى
طالما عاش أغاني الحب..
هو نفس القلب الذي يخفق الآن
في نفس الطريق
على نفس الرصيف
وتحت ظلال أشجار الشارع الطويل
ومواكب الشباب والجمال تمر
وبائع الفل.. يقلد الصدور، عقوداً من أريج
ولكن عجوز..

* * *

في مغارة حمراء خبأتها
في مياه عيني.. أغرقتها.. ونشرت حولها الضباب
وفي كهوف الصمت.. في الليل.. أغرقتها
هناك هي.. ذكرياتي.. ذكرياتي الحبيبة

* * *

ذكريات بعيدة.. ولكنها مضيئة
مشعة تحت غبار الأيام
ومعها.. وفي جوف الليل.. همست أغاني الخرساء

* * *

حفنة من الشمس.. أذابتها في زرقة الأمواج
شمس.. كنت أعيش دفئها
كانت تتسلل إلى أعماقي
كانت تضيء تلك الأعمال.. رغم كل الظلام في الحياة..

* * *

ولكنني اليوم.. أهرب.. أهرب وأختفي معها
مع ذكرياتي البعيدة
في مغارة حمراء
ولكن.. ما أشد جرأة أهدابها
ظلال.. وشلالات ضوء..
اسمها فتنة.. وسحر..
تلاحقني.. حتى في هذه الكهوف
فيا ترى.. أين أجد الملاذ
ترى كيف أنسى
كيف أمحو الذكريات؟

* * *

رسالتها إلى جدها
في متجره الصغير..
عند منعطف الزقاق الضيق
حيث بيوتنا.. وبيوتهم..

الجيران.. الأحبَّاء.. الذين عرفت الحياة على وجوههم
ورسالتها إلى جدها..
من البلد الذي ذهبت إليه مع أبيها وأخواتها الصغار وأمها..
من البلد الذي قال جدها
يذهبون إلى حيث يجدون لقمة العيش
إلى المزيد من الرزق الحلال..
فقد ثقل الحمل.. وازداد العيال..

* * *

رسالتها إلى جدها
أخذتها بين يدي.. أقرأها له
أخذتها بين يدي حمامة بيضاء.. ناعمة وديعة
وقرأتها..
تحب جدها.. تقبِّله ألف قبلة.. أوحشها جداً..
تسأله لم لا يذهب هو أيضاً إلى هناك
تتمنى أن تجلس إليه، وأن تسمع منه تلك الحكايا الحلوة..
عن أيام زمان، أيام كان شاباً.. يغامر.. يسافر.. على الجمال..
بين الأودية والجبال
تحت زخات المطر.. وفي وجه العاصفة
كيف ضاع في الوادي..
وكيف عاش أياماً على حافة غدير.. يأكل النبق.. وينام
تحت الصخرة وهناك وجد من هداه إلى الطريق.. وأصبح

أعز صديق . .

* * *

رسالتها إلى جدها . . في نهايتها تحياتها
إلى الجدة . . والعمات . . والجيران . .
يسمون الحقيقة التي أعيشها أحلاماً
ويسمونني حالماً . . ويضحكون . .
ولكن دنياي الصغيرة
أراها هناك
كلامها الهامس . . تفاهاتها . . ضحكاتها . . حولي
في كل مكان . .
دنياي . . حقيقة أراها هناك
ضعفها . . رقتها . . وأحياناً، دموعها
وحتى آلامها
تملأ من حولي الفراغ

* * *

هي معي في الدرب الموحش . . بين الأشواك والصخور . .
هي معي . . في الظلام الحالك . . يلاحق مسيرتي في الحياة . .
معي في غرفتي بين الأخشاب المهترئة والصفيح القديم معي
وأنا بها سعيد أبداً . . ضاحك أبداً ما دامت معي
وستظل معي . . سوف لن نفترق . .
بلى . . أعلم . . أعلم أنها الآن في بلد بعيد

ولكنها معي..

في أذني كل كلمة سمعتها طيلة أيام وأعوام..

حتى في هذه اللحظة التي أقف فيها مفتوح العينين في الظلام أراها.. أسمع صوتها.. ضحكاتها.. حكاياها عن أيام الطفولة والصبا.. عن الكوخ في قلب الخضرة..

وعن الذئب الذي كان يعوي في ليالي الشتاء.. وكيف كانت تعانق أمها في الظلام..

بلى ستظل معي.. تملأ من حولي الفراغ.. وإن كانت في بلد بعيد..

* * *

جذفي.. جذفي يا نوار..
انشري الشراع الأبيض..
فيه رائحة يدي جدتي
رائحة تشدني إلى السفح
حيث البركات والخيرات
جذفي.. جذفي يا نوار..

* * *

غنني.. في أغانيك، ما يطفئ غلة.. ويأسو خواطر الحزن

لا تحبسي صوتك.. أطلقيها أغرودة.. تذكرني بماضٍ بعيد

بالجلسة، بعد الغروب.. والأهل والأطفال.. والأضياف..
وأغانيك هذه..
أغاني القرية.. أغاني البراءة والطهر والصفاء..

❊ ❊ ❊

شجرة السيسبان التي كانت عند السفح.. ما تزال خضراء..
حولها أعشاب جافة صفراء
لأن الغدير يبس..
جف.. لست أدري لماذا جف..
ولكن شجرة السيسبان ما تزال خضراء..
أراها الآن.. وراء المياه الزرقاء
جذفي.. جذفي يا نوار
جذفي.. ولنعد إليها.. إلى القرية..
إلى الأهل والأطفال.. والأضياف.. وليالي السمر
حول النار والأغاني.. أغاني البراءة والطهر والصفاء..

❊ ❊ ❊

الزهر.. والثمار
ما أبعد ما يذهب الربيع هذا الصباح
حتى الأزهار التي ظلت تملأ التلال.. أطفأت اليوم أنوارها
فالتلال.. لا تسطع فيها ألوان الربيع
وتلك الزهرات على الشباك هناك

ذابلة.. كقلب أضناه الهجر والفراق
ما أبعد ما يذهب الربيع..
ويتركني هنا.. وحيداً.. على الصخرات السود
حيث لا شيء، سوى عصفور يغرد على الدوالي..
يرحب ببواكير الثمار، مع مقدم الصيف
ليس حزيناً مثلي على ارتحال الربيع
والزهرة التي ذبلت
والوردة التي أضناها الهجر والفراق
والتلال، التي شهدت مهرجان الربيع
وأصبحت اليوم، ترى كيف لملم أزهاره ومضى
كلها.. ليست حزينة.. كلها ترحب ببواكير الثمار مع مقدم الصيف

***

أنا.. وحدي أعيش لحظات الفراق
أشهد كيف يرتحل الربيع
كيف يلملم الزهر، والعطر على التلال
ويمضي.. وفي لياليه وأيامه كل ذكريات الزهور والعطور
كل دنياي.. من الصبا.. والحب.. والجمال
والثمار.. كل الثمار
أين منها ذكرى زهرة عشت عطرها
في تلك الأيام.. من الربيع

***

ابتعد الشراع.. والريح تطير به إلى بعيد
والأمواج تمر به تطفو وتتواثب. تتركه على صدر البحر
تترامى على رمال الشاطئ وتهمس في تجويف القواقع والأصداف
نهاية قصة.. نهاية أيام..

* * *

وطيور البحر.. تتلاحق.. هاربة من الليل..
وعلى الصخور الجهمة، حيث الموجة لا تمل حكاياها الصاخبة
تلم الطيور أجنحتها، وتتهامس في حذر..
ما أبعد ما ذهب الشراع..
وتضحك الموجة الصاخبة وتقول:
تلك نهاية قصة.. نهاية أيام

* * *

وعلى الرمال هناك
بقايا لقاء
أعواد ثقاب
ومناديل ورق..
تطاردها الريح.. فتهمس.. تلك نهاية قصة.. نهاية أيام..

* * *

ضربت في كل الآفاق
اجتزت الصحراء.. إلى الصحراء
حملقت طويلاً.. في وجه اللاشيء

غازلت النجوم
غصت في أعماق البحر من تراث القدماء
عشت مع أنهار الفضة في جماجمهم العالية
ومع شلالات اللجين في لحاهم
وعبر الغضون والأخاديد في جباههم العالية
سرت طويلاً معهم حتى دميت قدماي
والزاد قليل.. والعمر.. مهما طال.. قصير..

* * *

لكن أشواقي.. أشواقي إليها
كانت تنهش صدري.. تمضغ أيامي
كنت أطوي الزمان إلى الماضي لاهثاً.. متسائلاً.. أين؟ أين؟
أين الدرب إلى أبوابها.. مداخلها..
ثم قلت..
هبني عرفت الباب.. وطرقته.. هل يفتح لي؟

* * *

كنت أعلل النفس بالأشياء الساطعة الزرقاء
بالأزهار العابقة في مدارج السر العميق
بالفيء.. بالظلال الناعمة
بالكواعب الأتراب في جنبات النهر.. تحت أغصان شجر الليمون
بموسيقى الطير تصدح بين أفنان التين والزيتون..

* * *

في رياض الحكمة

لكني.. واأسفاه.. عدت إليكم.. أيها الساهرون..

عدت دامي القدمين

.. في يدي كوز فارغ

عدت إلى عشي، إلى حقيقتي..

إليها.. إلى الأرض والخواء

❊ ❊ ❊

في صحوة الفجر.. وعند تلك التلال من أرجوان والقطيع يثغو.. ويتواثب، على بساط من سندس والخيام، تتلامح سوداء، تحت ظلال السفح ونهر الفضة يتدفق.. يكلل هامات الجبال، والإبل، فحولاً ونوقاً، وراءها أولادها، تنوش أغصان السلم

في صحوة الفجر.. رأيتها.. عند تلك التلال من أرجوان..

❊ ❊ ❊

في صحوة الفجر.. رأيتها، عند تلك التلال من أرجوان

حلماً يهمس، في سمع الأودية والجبال

أهازيج أيام خيالية..

عن الحسن يتفتح أزهاراً

عن الصبا يترقرق عبيراً

عن البسمات الخفرة، تتوهج، مرحاً

عن الحب، خمائل حانية، وظلالاً من حنان

❊ ❊ ❊

في صحوة الفجر.. رأيتها عند تلك التلال من أرجوان
مرحاً يطفو، وصبا يفتر
قلباً يخفق بأشواق الطهر
يخفق للحب.. وأحلام الحب
للزهرة تتأرجح، وتتبرج، للشعاع والألق
للفراشة، توشوش الأزهار الغافية
تقص حكايا الربيع
في صحوة الفجر.. رأيتها عند تلك التلال من أرجوان

❊ ❊ ❊

في صحوة الفجر رأيتها.. عند تلك التلال من أرجوان
بين تلك الخيام.. تحت ظلال السفح
وفي الخيمة السوداء.. هناك.. غابت..
كالشمس.. بين السحاب..

❊ ❊ ❊

هنا على رمال الشاطئ
على الحرير والذهب
دنيا الماس واللؤلؤ والأرجوان
هنا.. كان لقاء..

❊ ❊ ❊

ما أبعد تلك الليلة في ضمير الزمن
ولكن ما أشد قربها مني الآن.. إنها تتوهج بكل الحرير
بكل الرمال على الشاطئ المهجور..

❊ ❊ ❊

وأنت أيها البحر.. ما أصعب أن تذكر ذلك اللقاء
كنت جميلاً..
هي التي قالت.. حين ترامت أمام عينيها.. وأمواجك تقبل قدميها الصغيرتين
هي التي قالت.. كم أنت جميل
هناك الزرقة.. وهنا إشعاع ياقوت وجوهر
هي.. هي التي قالت: إنك حياة
حياة تتحرك.. تضحك وتمرح.. تضاحك القمر الذاهب نحو تلك الجبال..
ألم تسمعها تقول:
أيها البحر، ما أسعدك.. تستحم تحت شلالات الضوء وجداول الشعاع..

❊ ❊ ❊

أية قسوة.. أن لا تذكر ذلك اللقاء.. وقد سمعت من شفتيها أنها تحبك
كانت لا تريد أن ينتهي الليل
تمنت أن يقف الزمن

حتى القمر، تمنت لو أنه لا يذهب وراء تلك الجبال
وهذه القواقع والأصداف.. كانت تعبث بها.. تضع
إحداها على أذنها تحت الجديلة من شعرها..
وتضحك.. تقول إنها تسمع في القوقعة حكايا الزمان..

***

هنا.. على هذه الرمال، كان اللقاء..
والرمال خرساء
والبحر قاسٍ.. ما يزال يتحرك.. يضحك.. ويزخر بالألوان
والموجة ما تزال تمرح.. والزبد والرغوة في سباقهما المعهود
ولكنهم.. لا يذكرون
وأنا.. أنا وحدي.. أردد: هنا.. هناك كان اللقاء..

***

وقفت عند باب الحياة.. لا أدري لماذا أقف.. ومن الذي
أوقفني فرأيت الساحة تموج بالبشر..
كلهم يمرون.. كلهم يسرعون.. يتسابقون
أخذت أتفحص وجوههم، أحاول أن أعرف بماذا أختلف عنهم
بماذا هم يختلفون عني
وطال وقوفي.. وطال معه تأملي..
ولكنهم يمرون.. يسرعون.. يتسابقون..

***

وطال وقوفي.. ولم أزدد إلا شعوراً بحيرتي وعجزي

لم أزدد.. إلا شعوراً.. بأني شبح غريب
إنهم يمرون.. يسرعون يتسابقون..
أما أنا فجامد.. مندهش.. لا أستطيع شيئاً سوى
أن أفتح فمي ذاهلاً عن كل شيء
وأدركت أن لا مكان لي في الساحة
لا مكان لي في الحلبة.. يتوالى فيها السباق

* * *

وإلى كوخي رجعت، في قلب الحقل.. رجعت
وألقيت نظرة على الشمس الغاربة
وأصغيت إلى صوت الناي، ينفخ فيه الراعي الصغير
وسمعت عن بعد يمامة.. تقول شيئاً
تقول ما لا أفهمه.. ولكني أحسست أني أعيش
أعيش.. وأن الحياة.. ليست هناك
ليست في الساحة.. في الحلبة.. ليست حيث يموج البشر
يمرون.. يسرعون.. يتسابقون..

* * *

هنا.. أتدرين ما معنى هنا..
هنا.. في الطابق الثلاثين من المدينة الكبيرة
غرفتي.. أسطورة.. لم تسمعي حكايتها حتى في
حكايا جدتي..

كل شيء فيها.. من ابتكار هذه العقول التي تصنع حضارة العصر

هل تعرفين.. ما هي حضارة العصر؟

كيف.. كيف يمكن أن تعرفيها وأنت كما عهدتك هناك..

في تلك القرية في الوادي

ذلك الوادي الذي كان فردوسنا بعد هطول الأمطار..

ذلك الوادي.. فيه حلالنا.. من الماشية والضأن والإبل..

فيها بيوتنا من الشعر..

وأنا هنا.. في الطابق الثلاثين من المدينة الكبيرة..

لا تخافي.. الطابق الثلاثون.. فوقه عشرون طابقاً..

هي التي يسمونها ناطحات السحاب..

وأنا أنطح السحاب من نافذتي.. وراء زجاجها السميك..

أنطح السحاب.. ومعه الكتب.. لا بد أن أنطح الكتب، بالسهر الطويل..

* * *

أعلم أنك تسمعين الكثير من القصص من ذلك الجهاز الذي

اشتراه أبي يوم عاد إلى القرية من الديرة ذات يوم..

تسمعين، قصص الغدر، كما تسمعين قصص الوفاء

قصص البطولة.. والجبناء

يجول في ذهنك أن تقولي مع من سأعود.. ومتى

سأعود معها..

مع الكتب..

ويومها.. أنت أيضاً ستسكنين معي، في إحدى العمارات الشاهقة..

ربما في الطابق الثلاثين..

لأن بلادنا اليوم، ترتفع فيها ناطحات السحاب..

والسبب.. السبب هو أننا مصممون.. أن ننطح السحاب

أن نسابق الأمم.. أن نحتل مكاننا تحت الشمس..

* * *

لا تيأسي.. وغن للفجر يطالعك بابتسامته عبر السحاب

لا تيأسي.. فالقفار والصحاري، قالت لي، حين كنت أبتعد

في ذلك المساء

قالت لي كلاماً حلواً..

همست به في صدري

قالت لا بد من يوم اللقاء

* * *

ابتسمي.. وغن للجدول وهو يترقرق بين العشب

وذلك العصفور، الذي كنا نصغي إليه، وهو يغرد للورد

لا تتركيه وحيداً.. دعيه يراك واسمعي ما يقول

قال لي.. وأنا أغادر الوادي..

قالها بأغرودة مرحة

لا بد.. لا بد من يوم اللقاء..

* * *

لا بد من يوم لقاء..
وكما تشرق الشمس، بعد أن يبتلعها البحر
وكما ظللنا نردد توسلاتنا
وفي عيوننا توهج الأمل
يجفف الدموع
فلا بد.. لا بد من يوم لقاء..

* * *

سنمشي على التلال
وسنسمع ثغاء الماشية وهي تلتهم العشب
وسنضحك حين نرى الحملان الوديعة، تتسابق إلى الغدير
ومن ذلك الينبوع سننهل ملء أكفنا ماء كالفضة
وفي اللحظات التي تغرب فيها الشمس.. سنأوي إلى ساحة البيت، حيث نصغي إلى حكايا الأخوال والأعمام..
أخبارهم.. مع الليالي، ومياه السيل تهدر من حولهم
بلى.. بلى لا بد من يوم لقاء..

* * *

ذكراك يا أمي
ذكراك تعود بي إلى مطلع شبابي
حين كنت تذيبين قلبك إرواء لظمئي

كنت يا أمي تخافين
تخافين أن يذهبوا بي بعيداً
كما تذهب العواصف بأوراق الشجر في الخريف
وجاؤوا يا أمي..
طرقوا بابنا
طالبوك، بفتاك الصغير
طالبوك.. بفتاك (نصير)
قلت وأنت ترتعشين كجذع يتهشم
ماذا فعل ابني.. ماذا منه تريدون؟
قالوا.. هاته.. ابتعدي عنه.. وإلا فالرصاص..
وكان لا بد أن أذهب.. لا بد أن أتخلص من صدرك الحنون
كان لا بد أن أمشي معهم إلى حيث يريدون..
وكانوا يضحكون.. يسخرون.. يقولون
فدائيون.. فدائيون.. فدائيون..
أعرف اليوم.. في ظلام سجني الرهيب..
في ضجعتي على الشوك.. وعلى أنياب الزمن المديد
أعرف اليوم، أن شفتيك، قد أطبقهما الموت إلى الأبد
أرى.. في هذا الظلام.. كيف أغمضت عينيك على
صورتي وأنا بين أيديهم وعلى المصير..
أي مصير..؟
لست أدري.. لست أدري.. ولكني أسمعهم كل يوم

يجيئون بسجين

أسمعهم يسخرون.. يعربدون.. ويرددون..

فدائيون.. فدائيون.. فدائيون..

وأنا.. في أغلالي.. في الحديد.. أردد معهم

أجل.. فدائيون.. فدائيون..

* * *

سهرتك يا ليل.. سهرتك بكل ما فيك من أسرار.. بكل ما تُوحيه من أفكار

سهرتك يا ليل..

سهرتك، والنجمات تتلألأ بين أغصان الحديقة الغافية..

سهرتك، والهلال الشاحب وراء المدخنة بلا دخان

سهرتك، وأصوات الجنادب، تقص تفاهات حياتها في الظلام

سهرتك يا ليل.. سهرتك طويلاً كالدهر، صامتاً كالقدر.. رهيباً كالقبر

سهرتك، وأغمضت جفني على طيفها الحبيب

وفتحتهما على حقيقتك الصماء،

سهرتك، أحلق في عالمك الحافل بالغموض.. ورأيت دنياك الغارقة في آهة صدر يحرقه الشوق، وتمزقه اللهفة، وتبرح به آمال غد لن يجيء

سهرتك البارحة.. رأيت كيف يطويك الفجر، وأظل أنا وحدي بلا فجر.. بلا صباح

سهرتك يا ليل، وما أزال ساهراً.. ما أزال أغمض جفني على طيفها الحبيب..

وما تزال أنت.. ما تزال يا ليل، لك دنياك الغارقة في آهة صدر تبرح به آمال غد لن يجئ.. لن يجئ..

❊ ❊ ❊

كثيراً ما، في لحظات يتاح فيها اللقاء

يتاح أن أرى الحسن هناك على الشاطئ الحالم

وموجات مرحة، تتعلق، وهي تركض، على القدمين الصغيرتين

كثيراً ما في هذه اللحظات، وهي تمر كعصفور نزق..

تتدفق في القلب، أنغام من عبقر..

ومعانٍ مجنحة، لست أدري كيف تملأ صدري صخباً وهديراً..

واقف أمامها.. أمام الحسن، هناك على الشاطئ الحالم

فيا لمعجزة الصمت

كيف يستطيع أن يقول الكثير،

كيف يستطيع أن يلمس شغاف القلب،

أن يهز أعماق النفس،

أن يغنيك، عن أنغام عبقر، ومعاني الملهمين..

وابتسامة خفرة

تبخل حتى برؤية اللؤلؤ النضيد

تبرق، وتتوهج، على الثغر الشهي

تجيب على ألف سؤال..

تعانق حريق الأشواق.. تحترق، ويتقطع الوتر المشدود..

وتضحك الموجات المرحة.. تقبل القدمين الصغيرتين..
وكأنها تقول.. حتى نحن.. حتى نحن.. قد فهمنا
ما قاله الصمت في لحظات يتاح فيها اللقاء..

* * *

يجيء.. حتى مع طول غيابه.. لا بد أن يجيء..
يجيء مهما طال انتظارنا.. مهما ضاقت صدورنا.. مهما
عنكب اليأس في نفوسنا..
يجيء.. يجيء يا أختاه.. لا بد أن يجيء
أجل.. يجيء الزمان.. وتجيء الأيام..
الزمان الذي نحسب أن مجهولاً مضغه في الماضي البعيد
الزمان الذي نقول إنه مضى ولن يعود..
الزمان، كما تحدثنا عنه الحكايا والأساطير..
الزمان الحلو.. كما يعرفه كل سعيد..
يجيء يا أختاه.. لا بد أن يجيء..

* * *

يجيء الزمان يا أختاه.. بالحب.. بالأمطار.. بالوارف المخضر
من الغصون..
يجيء.. بالأمل والرجاء.. بالأمن والدعة.. بالاستقرار والاطمئنان..
يجيء الزمان.. يجيء يا أختاه لا بد أن يجيء..

* * *

الزمان يا أختاه، قافلة تطوي مراحل أبعد كثيراً من

رحلتهم إلى القمر
من الذي يظن أننا بعيدون عنه، بعد الأرض عن هذا القمر
لم لا نقول.. مجرّد أن نقول.. إنه بعد طول الغياب قد اقترب
لم لا نقول.. مجرد أن نقول، إنه بعد طول انتظار، سنسمع
يوماً طرقاته على الباب وفي يديه الهدايا.. وبين شفتيه الحكايا
وفي وجهه ابتسام

* * *

ثم.. ما الذي يجعلنا نظن أنه لن يجيء.. ألم نره
قد جاء إلى الكثيرين..
ألم نره يحمل إليهم هدايا لم يكونوا يحلمون بها
ألم تخضر الحقول الجافة وتجري فيها الجداول.. وتعشوشب
الأرض.. وتمتلئ بالزهور..
هم مثلنا يا أختاه.. هم أيضاً انتظروه.. هم أيضاً لم
يفقدوا الأمل في أن يجيء..
لم يفقدوا الأمل والرجاء.. هذا أهم ما كانوا يمتازون
به عن كثيرين..
وتحقق الأمل.. تحقق الرجاء.. وجاء الزمان..
جاء وفي يديه الهدايا.. وبين شفتيه الحكايا..
وفي وجهه الابتسام..

* * *

في فيافي الليل المترامية كالدهر الطويل

في ظلامه الممتد كاللانهاية في قصة تبدأ من حيث تنتهي

كان له ظلامه هو.. ليله هو..

ظلام بدأ يوم أدرك أن هناك ضوء الشمس، يراه الناس..

يبدأون معه حياتهم..

حتى العصافير، تستقبله بالأغاريد

حتى القمرية، لا تكف عن هديلها

والأطفال، يفتحون عيونهم، ويقولون، صباح الخير

والأمهات، يستيقظن، ويتثاءبن، ويهتفن بالصغار..

طلعت الشمس..

إلا هو.. فظلامه مستديم.. لا نهاية له..

إلا هو فليله أبدي، ليس له صباح..

****

وفي هذا الليل، يجلس، حيث يضعونه، ويتحلقون حوله، يتسامرون ويضحكون..

يسمع حكايا الصبية في صوتها الأغن، كيف جمعت من البرية أزهار الربيع

وقصص الشباب، كيف سبحوا في البحر، واضطجعوا على الرمال الناعمة البيضاء..

وأخبار الرجال، كيف باعوا واشتروا.. كيف تخاصموا وانتصروا..

كيف قطعوا المراحل وعادوا بالربح الوفير..

وحين يتثاءب الأطفال، ويغلبهم النعاس، يقول له أحد

الشباب.. هات اسمعنا لياليك.. غننا.. اطربنا..

ويغني الأعمى لياليه.. يغني ليله السرمدي الطويل..

يغني لياليه.. ينتزعها من أعماقه البعيدة.. من سراديب الألم..

يغني لياليه.. ينسجها من ألف هدب أسود، من همس الدموع..

يغني لياليه.. من حكايا الصبية في صوتها الأغن وعلى صدرها أزهار الربيع

يغني لياليه.. من أمانٍ حبيسة، ورجاء كسيح.

يغني.. ويسمع آهات العشاق وزفرات المدلهين..

ويقولون بعد قليل.. ذهب الليل.. تصبح على خير ويذهبون..

يذهبون.. ويبقى هو، في فيافي الليل المترامية كالدهر الطويل.

❋ ❋ ❋

لما هبط الليل

رميت نفسي على أعشاب الشاطئ.. ونمت

نمت والعقل يقظان

ورأيت للمعاني صوراً

تتحرك.. تضحك.. تبكي.. وتسخر..

معنى واحد، اخرج لي لسانه وظل يضحك كصبي شقي..

أتدري ما هو..

إنه الحب يا صديقي..

وكان الحب يسخر.. يسخر مني

لأنه رآني نائماً على أعشاب الشاطئ، عندما هبط الليل

وحدي..

وحدي.. وجدني الحب نائماً على الأعشاب..

على الرمال السمراء

والموج تدفعه أشواق الأزل

تتلاحق.. وكنوز من اللؤلؤ تذوب وتتلاشى

هدية.. ما أكثر ما قدمتها الأمواج

وما أكثر ما ذابت على الرمال السمراء

للرمال فلسفتها العتيقة

بقدر ما تتأبى.. بقدر ما تذوب فوقها اللآلئ

تظل أمل البحر

وتدوم الأشواق

ويتم معنى الحب

* * *

على الرمال السمراء

وريح الشمال كالصبا المرح المفتون

تهب وتستريح.. لاهثة الأنفاس

لكثرة ما طوت من مراحل الطريق

لكثرة ما حملت من أفراح الأمل في اللقاء

* * *

ريح الشمال على الرمال السمراء

تهمس أخبار الرحلة الطويلة
حكايا جبال ووديان
وأشجار أثل وسيسبان
كلها في الطريق
كلها تهدي تحاياها.. عطورها.. إلى الرمال السمراء

***

هو.. والليل
هو.. وفي صدره طائر قلق
يسير درب الحياة وحيداً
والليل.. وفي صدره دنياه من الأسرار
يقطع طريق الأبد وحيداً
هو.. وفي نفسه ظلام لا تبدو فيه بارقة أمل
والليل..
وماذا في الليل سوى الظلام
حتى نجومه اختفت وراء سحابة جهمة
كلاهما
هو.. والليل.. في ضمير الزمان صديقان
عاشا الزمان.. والظلام
أما موكب الفجر.. تسبقه ضحكات العذارى
أما رأد الضحى.. تتبرج له أحلام الصبا
أما ذهب الأصيل.. يلثم الجدائل من شعاع

أما.. ثرثرة الأمواج في سمع الرمال
فعالم.. ليس له فيها شيء..

❊ ❊ ❊

ولكن ذات ليلة.. هناك على الشاطئ
بين قواقع ومحارات وأعشاب.. نسيتها الأمواج
كان هو.. والليل.. في ضمير الزمن صديقين
وكان صباح
عجباً.. أهو الفجر في قلب الليل؟
أهي النجوم.. تقول ما لم يسمعه دهر طويل
أم هي لؤلؤة انشقت عنها محارة
أهي؟ هي التي تضحك له.. تضيء ظلام صديقه القديم؟

❊ ❊ ❊

هو والنجمة الضاحكة.. والليل رقيب
والموجة تلاحق أختها
وسمع الليل همساته الدافئة تقول: آن لي.. أن أرى الفجر..
ويقول لها.. أنت.. أنت هذا الفجر.. بعد الليل
الطويل..

❊ ❊ ❊

تمنيت لو أكون..
نغمة نشوى، في لهاة بلبل غريد
ولو تكونين يا حبيبتي

وتراً.. يئن تحت لمسات قوس من لهب
وتعزفينني يا حبيبتي
نغمة يعشقها السحاب
تترنم بها قمم الجبال.. في جوف الليل
وأنت وراء السحاب..
ذياك القمر..

* * *

هناك.. عبر الغابات والحقول مشيت
وعبر سياج وراء سياج اتخذت طريقي
صعدت إلى الروابي المشرفة
ومنها تأملت العالم
ثم هبطت إلى الوادي
عدت إلى بيتي
هناك في أول الطريق
وهاأنذا ألقي عصا التسيار

* * *

تلك الأشجار العاتية في الوادي
أوراقها ذابلة صفراء على طول الطريق
إلا التي تكسو شجرة السيسبان
تلك تسقط على مهل
مع هبة الريح..

واحدة إثر أخرى
وتمضي تجر خطاها على الطريق
بينما الكل.. في سبات عميق

❊ ❊ ❊

الأوراق الميتة.. ترقد في هدوء
لا تبددها الريح كل صوب
نرجسة وحيدة كانت هناك
ثم قضت كغيرها
زهور أخرى ذبلت
أصفرت.. ماتت

❊ ❊ ❊

إلا القلب
إلا القلب ما يزال يتوثب كعصفور يرى أول خيوط الفجر
وهاتان.. قدماي تتساءلان..
إلى أين.. إلى أين المسير؟

❊ ❊ ❊

كم أحبك يا ليل
كم أحب الظلام الحنون، يبسط جناحيه على الكون الكبير
فيك يا ليل، أحلق في عالم بلا قيود

❊ ❊ ❊

وإذا صحوت، ومواكب الضوء تزحف كالطوفان، ألقي المجداف

وأطوي الشراع وأمشي مع الحياة، في طريق يتلوى كالثعبان..
يبتلع كالتنين، كل الأماني والآمال

***

والصخرة العابثة، على الشاطئ الممتد إلى اللانهاية
تتكسر عليها أمواج الكفاح
كم أحبك يا ليل..
وهذا المجداف، يضرب البحر
والشراع يملؤه الوهم والغرور
كم أحب هذا الظلام، يبسط جناحيه.. يضمني في حنان
يصغي إلى حديثي.. حديثي الطويل
يستقبلني في الآفاق البعيدة.. في عالم بلا قيود..

***

رمال الصحراء.. تتلوى كالحيايا.. في دروب اللانهاية
والسكون السرمدي، يصغي لحكايا، تلوكها الرياح السافية
حكايا عالم خفي
تشعر به يهمس.. ولكن لا تراه
يتمطى هناك.. فوق السهول الوردية والهضاب الزرقاء
فيه أساطير غريبة
أساطير عصور ودهور
فيها ما في الكون من أسرار رهيبة
أسرار قلوب صفقت للحسن

ثم رقدت تحت أطباق الثرى

❊ ❊ ❊

واهاً لك.. يا رمال الصحراء الحزينة

واهاً لك.. يا حكايا الرياح

يا ذلك، الحسن.. صفقت له قلوب

قلوب ترقد اليوم تحت أطباق الثرى

قلوب كم اهتزت للحسن.. كم خفقت للفن.. كم نزفت من الدم

في سبيل لحظة لقاء ترقد تحت أطباق الثرى

ترى.. هل بقي فيها ـ تحت الرمال ـ بقايا حلم في

ساعة غروب؟

لا.. ليس في وسعك أن تحصي النجميات، تتلامح أمام عينيك

شباكك، ذاك الذي تسطعين فيه، بعد الغروب..

ونظرتك إلى هناك.. وراء الأمواج..

وراء النجميات تتلألأ من بعيد..

لا.. وما أصعب أن تعدي بتلات الورود، تترامى عليك في موقفك

تتزاحم لتهمس في سمعك سر الفراشات الهائمة حولها طيلة اليوم

❊ ❊ ❊

لا.. وكيف يسعك أن تتصوري كم ورقة في شجرة السيسبان المترامية تحت قدميك..

وتلك الأمواج تتلاحق من صدر البحر، تتهالك على الرمال

كيف يمكن أن يحصيها عقل بشر؟

والمحارات والأصداف، إذ تصغي لحكايا الليل..

من يقول إنها لا تذرف الدمع مع رثاء لعرائس البحر..

❊ ❊ ❊

ذهبت العاصفة بالعشاق..

لا.. لا سبيل إلى أن تعرفي كم دمعة شربتها الرمال..

هي.. دموعي يا حبيبتي..

نجميات.. في الأفق الأزرق البعيد..

هي دموعي.. أمواج تتلاحق من صدر البحر.. ترتمي على الصخور

هي دموعي.. بتلات الورد، تهمس في سمعك سر الفراشات..

سر الحب..

هي دموعي يا حبيبتي تذرفها المحارات والأصداف.. وتشربها الرمال..

❊ ❊ ❊

ذهب النهار ما أبعد ما ذهب

ذهب النهار.. ولن يعود

ذهب

وانطوى من العمر يوم

ذهب النهار.. ولم يبق منه سوى هذه الذكرى الباهته

لحياة خاوية

وهذا هو الليل

يتلاحق فيه ظلام أخرس

يزحف على قلبي.. كما يزحف على الكون الكبير..

* * *

هناك أنوار صغيرة

تتلامح في الطريق

وفي النوافذ التي شرب الظلام ألوانها

تتلامح أضواء.. وأشباح

شبح واحد.. هو الذي يفسر لي معنى الغموض في الليل الطويل

يقف على النافذة.. يحتسي أحلام الوحدة القاسية

ويرى الوشاح الأسود.. تلتف فيه القرية الوادعة

وفي هذا الوشاح يرى.. ما لا تراه إلا عيون العشاق

فجر الأمل.. في لقاء قريب

فرحة القلب..

حياته الثرة.. في جو اللقاء

بعد غياب طويل

طويل

* * *

القرية نائمة.. وعلى الحقول الذهبية البعيدة ضباب

ضباب هادي يداعبه نسيم الصباح.. والشمس لم تشرق

لم تصل إلى أسطحة

المنازل.. وفي جو السحر لسعة بردة منعشة

وأنت.. وأنت كما رأيتك يوماً..

بين السنابل.. حلم القرية، روحها النبيل..

❊ ❊ ❊

والعصفور..

كيف لا يهرب.. وأنت بالقرب منه.. بين السنابل

ينهل من الساقية.. قطرات يجدها بين الصخور

أخوتك الصغار ينحدرون من المنزل على الرابية

في ايديهم محافظ.. يذهبون إلى المدرسة

وأنت.. أنت بين السنابل.. حلم القرية.. روحها النبيل..

❊ ❊ ❊

سمعتك تنادين الراعي الصغير

تطلبين منه أن يذهب بعيداً.. إلى الجبل

تخافين على السنابل.. فوقت الحصاد قريب

وجابر.. على كتفه صناديق التين الشوكي

يقشر لك واحدة.. وتأكلين.. وتضحكين

وأنت بين السنابل.. حلم القرية.. روحها النبيل..

❊ ❊ ❊

على القمة الشامخة.. كنت أتوسد مباهج الحياة

بين يدي كل هباتها

وأعظم هباتها أني أرى ما تزخر به الأرض من عطاء

الحقول الممتدة إلى ما لا نهاية

وقطعان الماشية على العشب بين الجداول والغدران

وفي السماء نتف الغيم تحجب الشمس حيناً، وتأذن لها بالسطوع حيناً كأنها تحرس دنيا من أبهة ومجد.

❊ ❊ ❊

على القمة الشامخة.. كنت أتوسد مباهج الحياة

بين يدي كل هباتها

بين يدي هناك.. أشجار الفاكهة مثقلة بالثمار

وعلى مقربة من الأكواخ، صبية يتراكضون وراء الكرة

رنين ضحكاتهم يملأ أذني

سعادتهم في هذه اللحظة من ساعة الغروب، نهر دفاق من المحبة والسلام

وخوار الأبقار يترامى إلى سمعي، بينما الدخان يتصاعد من هنا وهناك

فالرجال مجتمعون على قهوة المساء..

❊ ❊ ❊

على القمة الشامخة، كنت أتوسّد مباهج الحياة

بين يدي كل هباتها

أقل هباتها، أن الصغيرة سلمى تتسلق المنحدر

وخلفها أخوتها الصغار

يتنادون ويضحكون

يحملون إليَّ الرمان والعنب

ويأكلون مما يحملون

قد يأكلون كل ما يحملون قبل أن يصلوا إليَّ

ولكني على القمة الشامخة
أتوسد مباهج الحياة..

* * *

عبثاً أخفي عناء هذا القلب
عبثاً.. ما أكابد لأبدو هادئ الطائر
كلا.. عبثاً أحاول أن أحبس دموعي
كلا.. فالعاصفة تزأر.. والموج يصخب
في القلب الجريح..

* * *

قلبي بأناته الحزينة الشاحبة
وعيناي تطفر منهما دموع الكبرياء الجريحة
تفشي سر عذابي
تقول لهذه الموجة وهي ترتمي على الرمال
تقول.. ها أنت.. قد أصبحت ذكرى
ذكرى فقط..
بعد كل الذي كان..

* * *

على رمال الرابية
حيث الشمس ما تزال ترى
في بحر من جوهر وذهب
في ألف رداء من قرمز واستبرق

وفي السفح هناك
تجمع الصحاب
حول القدر على النار
يلفهم الدخان الأزرق
وضحكات الصبايا
وقهقهات الشباب
وسعلة عجوز

* * *

هي دنياي.. عالمي الحبيب
دنياي هنا.. على رمال الرابية
تحت أغصان شجرة التين العتيقة
كثيراً ما لعب الصغار
وحين تنادينا أمهاتنا من بعيد
من الخيام
كنا نختبئ نلتزم الصمت
ولكن العم جابر
يسرع والعصا في يده
فنسرع ضاحكين.. إلى الخيام..

* * *

التمر واللبن.. لنا
والقهوة للرجال..

ثم الفراش.. وأحضان الأمهات.. والنوم الطويل

صوت المؤذن في الفجر.. (الله أكبر)

وبعد الصلاة

إلى الرابية وعلى رمالها..

نرى مشرق الشمس كما رأينا مغربها في بحر من جوهر وذهب في ألف رداء من سندس وأرجوان..

* * *

هذي الشموع.. تدور في فلكها من ذهب وأرجوان..

عشرون شمعة..

تشتعل.. تشرب النغم النشوان..

تتواثب.. حوريات في ملاعب الفردوس

كل وثبة تقول.. ذاك هو الشباب

وهج المشاعر الطافرة، يشعه قلب العذراء

يضيء شلالات الليل الهائم في موكب الفتنة والجمال..

* * *

هذه الشموع..

عشرون شمعة..

ما أجملها في فلكها من ذهب وأرجوان

ما أعجب ظلالها، تتزاحم على شلالات الليل..

وعلى الصدور.. والنحور.. والأنهار من رشاقة وهيف ودلال

* * *

ولكن.. كم تشحب.. وتذبل.. وتموت
حين تسطع من عينيك نظرة
أسميها نظرة.. فتلك طاقة اللغة العجوز

* * *

ولكنها دنيا.. عالم.. كون.. من معانٍ، يشع بها الفجر،
ويموج بها البحر..
والفجر فرحة الزهر، ووثبة العصفور..
والبحر، همس اللآلئ، وحديث الدهور..

* * *

عشرون شمعة..
في موكب الربيع
تصدح في دنياه أغاريد الصبا
والزمن العجوز..
ينشر شراعه ليقلع إلى الشواطئ البعيدة..
إلى جزر النسيان..
هناك يلقي المجداف..
وتلال الثلوج تقول.. حوله تقول
لا مكان للزمان..
في فراديس الحسان..

* * *

الربيع..

هذا الساحر الذي يتسلل مع الفجر، إلى وجدان الزهرة..
فإذا هي تتبرج وتتعطر
تستقبل مع أشعة الشمس، حنان الفراشة.. وتغريد العصفور
ومع نسمات الربيع.. همس خفي
يجعل القلب يصغي إلى ترانيم الحب والأشواق..
تأتي من بعيد..
من كهوف الزمان..

* * *

ولكن ما أشد ما يبعث هذا الربيع من أحزان
مع الزهرة، وهي تتفتح
ومع النسمة التي تعبث.. وتهمس.. وتغني
مع الفراشة التي تهدهد.. تحنو.. تلثم الشفق في برعم
مع العصفور.. لا يكف عن التغريد
تشتد أحزاني.. عناقاً باكياً..
في صدري المكدود..

* * *

لم لا يرحمني الربيع؟
كيف لا يدرك أن ليس لمثلي ربيع؟
إن ربيعي قد ظل هناك..
يتيماً باكياً.. في يوم لفه الإعصار
في يوم اختفت معه السمراء، في زحمة المطار

في لحظة.. كانت الدموع فيها.. بداية الإعصار..
في أيام.. ما أطولها..
ما تزال تتساءل.. أين السمراء؟
متى يطلع النهار؟

❋ ❋ ❋

لنسدل ستور الشفق..
فالهواء مجروح يتأوَّه..
وعصافير الخميلة، يعصف بها الشوق إلى المجهول
وعطر الزنابق، يرعش البسمات
ويترك في هباتها، مثل حمى..
مثل أنفاس الطفولة البريئة، في جوها الربيعي الحنون..

❋ ❋ ❋

هذا هو القمر.. أترينه هناك
يتمهل في سيره.. ولا عجب.. فهكذا يمشي موكب العظمة
وموكب الجمال
وهو.. هذا القمر.. ليس متعجرفاً.. ليس شحيحاً
ما أكرمه ما أشد حنانه..
كأنه يقول.. من العظمة ينبع الحنان..
ومن الحنان يتدفق العطاء..
إنه قادم إلينا.. أجل إلينا، في هذا العش.. على طرف المنحدر..
يعرف.. يعرف القمر.. كيف يضفي على سعادتنا.. معنى البراءة

والطهر..

❊ ❊ ❊

انظري كيف يحنو على جبهتك السمراء

كيف يتسلل.. في رفق.. بين هذا الحرير من الشعر.. على القسمات الحلوة..

كلا لن أغضب.. وكيف يغضب المرء حين يرى أخاً يداعب أخته..

ولكن.. بالله يا أخته.. يا أخت القمر.. أذكري أني.. أني هنا هنا في هذا العش.. على طرف المنحدر..

❊ ❊ ❊

خبأتها بين جفني

أغرقتها في دموعي.. ونشرت حولها الضباب

وفي أورقة الليل، أفرغت دفقاً من شعاع الأمل

وفي صمته.. همست أغانيَّ الخرساء

وحفنة من الضوء

تنشرها تلك الابتسامة الخفرة

أذابتها في مياه البحر

ثم هربت..

هربت بعيداً.. وهي بين جفني

❊ ❊ ❊

هربت بأغلى كنز في الوجود

إلى أبعد ما يصل إليه الخيال

هربت من النور
من النسمات الهامسة
ومن النهار..
هربت.. وهي هنا بين جفني

* * *

ومع ظلام الليل، فتحت عيني
ورأيتها
وحين أطل الفجر، والقمر يغرق في الأفق البعيد
توارى طيفها الحبيب
توارى مع الليل
ورأيت أشواقي
تصبغ بألوان وردة حمراء
كتلك التي تطل أحياناً من شعرها الثائر
وكانت هنا.. ملء عيني من جديد
بين جفني..

* * *

أفراحها..
أفراح فراشة
أفراح قلب.. عرف الجمال
عرفه في نفسه.. كما عرفه في كثير من مرائي الجمال
وليست أفراح القلب، إلا هذا الصخب الذي يثب.. ويمزق

.. يدمي أصابع اليد.. وخيط دقيق.. شعاع..

يفصل بين اللذة والألم..

نهاية.. وبداية

نهاية الأفراح.. بداية الألم

ورأت الفراشة.. على صدر الورد

رأت ذلك الخيط الدقيق.. ذلك الشعاع

كان الورد مزهواً بأريجه العبق بالنار تتوهج..

وأغرقت الفراشة نفسها في دنيا من عطر ونار..

* * *

وما أسرع ما أحسست أنها تحترق.. توخز بألف إبرة

وفركت مخلوقات الغابة أجفانها.. أهي الفراشة كانت تبكي

طيلة الليل.. وتعود إلى الورد بكل ما فيه من أشواك

وضحكت بوم عجوز

تأوي إلى جذع شجرة عاتية..

ضحكت وقالت

هو ذاك.. إنه الخيط الدقيق.. شعاع الحرير..

بين اللذة والألم..

وكثيراً ما تكون نهاية الألم بداية الأفراح.. والأفراح لذة..

ذلك شأننا..

شأن الفن مع الحياة

* * *

زهرة حمراء.. فقط.. زهرة حمراء
وهج جمرة..
حريق.. في البرية النائمة على السهول
نار.. بلا دخان.. في قلب الخضرة، وعلى أعطاف الذهب
من سنابل الشعير والقمح
نار.. ولا تحرق.. إلا القابع هناك بين الصخور

* * *

زهرة حمراء.. فقط زهرة حمراء
والقلب، هو الذي يحترق..
القلب.. بين الصخور.. على مشارف الوادي.. عند الغدير
خروف.. وشاة.. وحمل
والعشب يتقصف ويهمس أغنية الربيع
والزهرة الحمراء.. فقط.. زهرة حمراء
تتوهج.. ناراً.. حريقاً بلا دخان
لا تحرق.. إلا القابع هناك بين الصخور..

* * *

لا.. ألف لا.. يقولها القلب.. هناك بين الصخور
لا.. ألف لا.. أين القلب.. من زهرة حمراء
أين الزهرة الحمراء.. من قلب هناك بين الصخور
على مشارف الوادي.. عند الغدير
بعيدة.. كالقمر.. غالية كاللؤلؤ.. حلوة كالأحلام

أين منها..

أين منها القلب القابع هناك بين الصخور..

❊ ❊ ❊

عبثاً.. أخفى نزيف الجراح

عبثاً.. أحبس شعل الدموع

عبثاً.. وبلا طائل، فالقلب بأحزانه الدامية، لا يكف عن الأنين

والعين اليقظى، وراء ضباب كثيف

هنا.. خلف نسيج العنكبوت.. بما تذرف من دمع هتون

تبوح بسر ما ألقى من شقاء..

وجراح القلب ليست حزناً على أحلى الأيام

ودموع العين أغلى من أن تراق على سراب

سراب.. هو في هذه اللحظة، من الليل عذاب

كلا.. والضباب الكثيف.. ونسيج العنكبوت

لا يحجب الطحالب، في مستنقع الغدر الكريه

كلا.. ولكنها مأساة الروح السجين

مأساة القلب المثقل بالأغلال

❊ ❊ ❊

هذا الضياء.. معنى الزنابق والدماء

هذا الضياء

❊ ❊ ❊

هذا الضياء، كنوز، من ذهب، وماس ولجين

ألف لون.. يستسر هناك.. ويبدو هنا
وموسيقى الظلال.. تهمس الأنغام

***

هذا الضياء.. أي سحر في الياقوت، يسمر المشاعر في الشعاع
وما بال زرقة البحر، وخضرة الروض، تتعانقان في قنديل
وموسيقى الظلال.. شلالات من الضباب الأشقر على الجباه
موسيقى الظلال تهمس الأنغام..

***

هذا الضياء.. ولا ضياء
ضباب ينهل ثغور الورد والأقاح
والبوق المبحوح، جراح راعفة في لفتة الصبا
والقوس ينهش كوحش حنين الأوتار
وموسيقى الظلال تهمس الأنغام..

***

حتى الأحلام تبعثرت.. ذهبت.. ابتلعها الظلام
أحلام.. عزفها الناي..
في الوادي.. مع ثرثرة العصفور
وراء القطيع..
والشمس عروس
في غلالة من أرجوان
دربها لجين

والناي.. وثغاء القطيع
وهمس الحصا والرمل تحت قدمينا
أحلام..
أحلام تبعثرت.. ذهبت ابتلها الظلام

* * *

بعيد.. بعيد، ذلك اليوم في كهوف الزمن العتيق
والقرية الوادعة.. وثغاء القطيع
وبحة الناي في فم الراعي الصغير
والصبا الأسمر وراء اللثام
والدخان الأزرق هناك.. عند الخيام
ورنين ضحكات خفرة وأحلام
أحلام.. تبعثرت.. ذهبت.. ابتلعها الظلام..

* * *

غرد يا طائري الجميل، غرد.. وأملأ الفجر حياة
غرد، هناك، وقل لنا
كيف تبتهج القلوب.. والكون غاف مستكين
كيف الأزاهر والورود، تحنو عليك، وتحتويك..
والغيمة السابحة في بحر الشفق..
كيف تهديك النغم
كيف تلهمك البراءة والقيم

* * *

غرد يا طائري الجميل.. غرد.. فهنا الزنبق يصغي
وهنا الوردة تفتر.. وهنا السوسن يطرب
وأنا.. يا طائري.. بين الصخور الحمر.. عند الغدير
أحتسي الطهر، أتعمق حكايا السكون
أغوص في أغوار الصمت..
أسمع.. أسمع حفيف جناح.. يذوب في النسيم
أسمعه يقول.. وما قل ما يقول..
الزمان..
كل الزمان
والعمر.. كل العمر
رفة ثغر
وومضة هدب
خفقة قلب.. للحب.. للحنان..

❊ ❊ ❊

عند ذلك المنعطف من الدرب الذي مشيته مرات ومرات..
تحت ضوء النجوم.. والقمر ما يزال يتسلق أشجار النخيل
والجنادب تغني للصيف.. وليالي الصيف..
والنسمة ـ رفيقتي الحلوة ـ تجد مثلي في المسير
عند ذلك المنعطف.. كان يقف طفل صغير..

❊ ❊ ❊

طفل صغير.. قال.. تلك عشتنا بين التلال

والإبريق في يدي.. منذ الغروب
إبريق اللبن لأخي الصغير..
فارغ يا سيدي..
فارغ منذ الصباح
أمي تحرقها الحمى
أبي هناك تحت الربوة.. يرقد في جوف التراب..
طفل صغير.. وإبريق اللبن لأخيه الصغير..
فارغ..
ما أكثر ما تفرغ الحياة.. حين يفرغ إبريق اللبن في يد الصغير
تعال.. تعال يا طفلي الصغير..
هات.. هات إبريق اللبن لأخيك الصغير
هي ذي بقرة حلوب.. على الربوة.. حيث يرقد أبوك
في جوف التراب..

* * *

ولكن.. أين هي البقرة الحلوب؟
كيف.. كيف لا نراها تحت ضوء النجوم..
كيف يخفيها القمر.. وهو يتسلق أشجار النخيل
حتى القمر.. حتى النجوم.. حتى الجندب.. تنسى
.. تبخل بقليل من اللبن لأخيك الصغير..

* * *

شعلة الإلهام، في قلبي، حين يبسط الليل جناحيه

تضيء.. فيمتد أمامي رواق تتراكض فيه أشباح وأطياف
تذهب، شاردة، تتهامس.. فأسمعها تقول
لا.. لا.. لن نعود
لن ترى سوى الظلال..

❊ ❊ ❊

لا.. لن نعود..
لن ترى سوى الظلال..
أما نحن.. فهنا نعيش
في ضمير الزمن
رضينا بالنهاية
استسلمنا للقدر
ألقينا السلاح

❊ ❊ ❊

لا.. لن نعود
لن ترى سوى الظلال..
وحين ترى الدموع تملأ عينيك
والأحزان تطبق عليك
والوحشة تمزق وجدانك
نضحك..
نضحك، إذ كنا قد شبعنا بكاء

❊ ❊ ❊

وكيف نعود.. كيف يمكن أن ترانا، والماضي لن يعود
كيف، يحيا الأمل، والريح لا تملأ الشراع
كيف تورق شجرة اقتلعتها العواصف وأحرقتها الصواعق والبروق
لا.. لن نعود..
لن ترى سوى الظلال

* * *

عجباً.. كيف تتساقط كل الكلمات.. كل المعاني، جثثاً هامدة..
وكل الأنغام والألحان.. بحة الناي.. أنة العود.. حنين الكمان
كلها تترنح مجهدة خائرة.. تغوص في الرمال
عجباً.. كيف يلقي الفنان ريشته.. يسفح ألوانه.. يذبح ظلاله، يمزق الكانفاه ويقبع، فريسة للعجز والخواء..
عجباً.. كيف يستطيع هذا الجمال العبقري.. أن يجمد الفكر والخيال..

* * *

أفلا سبيل إلى وصفها..
أتراهم لا يسمعون ماذا يقول القلب، وهو يرتعد، كلما طافت بدنياه ذكراها
كلا.. لغة القلب.. لم يحصرها بعد كتاب.. لم يلهمها شاعر..
كلا.. لغة قلبي.. كل ما يهجس به، حين ترميني بنظرة شيء من حريق وشعل

شيء من حقل الضباب الوردي في الفجر الزاحف عبر الجبال
شيء من جدائل الذهب.. في سنابل القمح بين الربى..
شيء من ثرثرة الجداول، وهي تترقرق فوق الرمال والحصى
شيء من هديل يمامة.. وتغريد بلبل.. وعندلة عندليب..

* * *

فليلق الفنان ريشته..
ولتسقط الكلمات جثثاً هامدة
وليخرس الناي، والعود والكمان
ويكفيني.. أني أراها.. ويقول قلبي كل شيء..
وتفهم هي.. وتقول دون أن تقول..
إنها تفهم ماذا يقول القلب.. كلما طافت بدنياه ذكراها
تفهم كل ما يهجس به القلب.. حين ترميني بنظرة..

* * *

مضى الربيع..
والصيف.. يجمع بقايا حصاده
وهذه الطيور.. من حيث جاءت.. تعود..
لا أدري إلى أين..
ولكن أسرابها، في الأفق البعيد.. تمضي إلى بعيد

* * *

والثمار.. عافتها الأشجار..
أكوامها، في كل دكان

قشورها، تلوكها المعيز والدجاج

والسماء، آن لها أن تحجب زرقتها الصافية

حتى الشفق.. يلفعه الضباب..

والليل.. يلاحق الشمس وهي تغرب شاحبة

ترعشها هزيمة على غير انتظار..

* * *

والصبا ـ على الرابية الخضراء

يرمي النجمة التي تتلألأ هناك بنظرة واجفة.. ما أسرع ما تظهر النجوم

وصيحات الأم من بعيد..

تعالي، فقد جاع الصغار

أبوك.. آن له أن يظهر على المنحدر

تعالي.. واملأي الجرة.. تعالي.. يا رباب

* * *

هذا أنت أيها الألم، يا رفيقي القديم

مشيت معك درب الحياة الطويل

حتى في اللحظات الحلوة النادرة، كنت شحوباً في البسمة، غضونا في وجه الليل الضاحك من ليالي العمر..

حتى رنين ضحكاتها، حين يرفرف كعصفور نزق، ما أشد قسوتك وأنت تمزقه بالحسرة والأسى..

وفي تلك الشعل من الشفق، في محياها الصاخب بموسيقى الحب،

كنت أنت يا رفيقي، كنت أنت.. هناك ضباباً يلف مرح الأشواق.. وحين يلم بي طيفها مع إطلالة الفجر، عبر القمم الشاهقة الزرقاء، كنت أنت، أيها الألم.. يا رفيقي القديم، جمجمة هشة، تضحك للأحلام العذبة، توقظها على الواقع..

مشيت معك درب الحياة الطويل..

واليوم.. ولم يبق من العمر إلا القليل، أراك تجمع بقاياك المتناثرة في الواحة الخضراء.. تزمع الرحيل..

كلا.. فذلك غدر الرفيق بالرفيق..

ما قيمة ما بقي من العمر بعد كل الذي مضغته من رحيق الحياة.. والحب والجمال..

كلا.. وابق يا رفيقي.. فإني رفيقك القديم..

* * *

إيه.. ما أشد ندرة اللحظات التي يتاح فيها اللقاء
ولكنها لحظات ما أجمل أن تتألق شعاعاً في ضباب الأيام
عندما أرى الحسن.. هناك على الشاطئ الحالم
وموجات مرحة تعلق، وهي تركض على القدمين الصغيرتين
كثيراً ما في هذه اللحظات.. وهي تمر كعصفور نزق
تتدفق في القلب أنغام من عبقر

* * *

أنغام من عبقر، ومعانٍ مجنحة.. لست أدري كيف تملأ صدري

صخباً وهديراً وأقف أمامها..
أمام الحسن هناك على الشاطئ الحالم
فيا لمعجزة الصمت
كيف يستطيع أن يقول الكثير
كيف يستطيع أن يلمس شغاف القلب
أن يهز أعماق النفس
أن يغنيك عن أنغام عبقر، ومعاني الملهمين

❊ ❊ ❊

وابتسامة خفرة.. تبخل حتى برؤية اللؤلؤ النضيد
تبرق وتتوهج، على الثغر الشهي
تجيب على ألف سؤال
تعانق حريق الأشواق
تحترق ويتقطع الوتر المشدود
وتضحك الموجات المرحة
تقبل القدمين الصغيرتين..
وكأنها تقول.. حتى نحن.. قد فهمنا ما قاله الصمت في لحظات
لحظات ما أشد ندرتها
ولكن ما أجمل أن تتألق شعاعاً في ضباب الأيام
لحظات يتاح فيها اللقاء..

❊ ❊ ❊

ما أبعد ما يذهب الربيع هذا الصباح

حتى تلك الأزهار التي ظلت تملأ التلال.. أطفأت اليوم أنوارها
فالتلال، لا تتلألأ.. ولا تسطع فيها ألوان الربيع
والورود على الشباك هناك..
ذابلة.. كقلب أضناه الهجر والفراق

***

ما أبعد ما يذهب الربيع
ويتركني، هنا على هذه الصخرات السوداء
ولا شيء، سوى عصفور يغرد على الدوالي.. يرحب ببواكير الثمار
ليس حزيناً مثلي، على ارتحال الربيع
فالزهرة، التي صوّحت..
والوردة التي أضناها الهجر والفراق
والتلال، التي شهدت مهرجان الربيع
وأصبحت اليوم، لترى كيف لملم أزهاره ومضى
كلها.. ليست حزينة.. كلها ترحب ببواكير الثمار

***

أنا.. أنا وحدي، أعيش لحظات الفراق
أنا وحدي، أشهد كيف، يرتحل الربيع
كيف يلملم، الزهر، والعطر، على التلال
ويمضي.. وفي لياليه وأيامه، كل ذكريات الزهر والعطر
كل دنياي.. من الصبا، والحب والجمال
والثمار.. كل الثمار..
أين منها، ذكرى زهرة.. عشت عطرها

في تلك الأيام.. من الربيع..

* * *

ملايين الكواكب والنجوم
قوانين، ونسب، وألف تعليل خطير

* * *

والفجر، بأنهاره من العسجد واللجين
ما يزال، يطل وراء تلك الجبال
وراء رياض من اللازورد والأرجوان
والشمس، كما كانت منذ الأزل
تشرق، من هناك..
من حدائق النخيل
والصيف.. والثمار.. ما أشهى الثمار
والربيع.. والأزهار.. يا ضوء النهار
والخريف.. والرياح.. تبدد الصباح
والشتاء.. والجليد.. يهشم الحديد
لكم ثرثروا.. لكم هرفوا.. لكم عكروا صفحة الغدير الرقراق
لكم قالوا.. إنهم يعلمون الكثير
عن الكون الكبير..
ضياع.. ضياع.. ما أطول رحلة الضياع..
ما أشد العمى.. عن السر الخطير

عن الخالق الأعظم

تبارك وتعالى..

على كل شيء قدير..

* * *

تمزقت الغيمة.. تناثرت.. ذهبت في قلب الزرقة الصافية

والضباب..

ذلك الضباب بألوان قزح

والغلالة

تلك الغلالة من شعاع زمرد وياقوت

والجديلة..

تلك الجديلة من وهج الشوق.. وفرحة اللقاء

كلها.. تلاشت..

كلها.. ذابت في الدمعة الذاهلة

في حريق الآهة.. عبر الطريق..

* * *

كلها ذابت.. في ذهول الدمعة

في حريق الآهة..

عبر الطريق.. منذ عام

ولكنني.. لست أدري كيف

كيف أجد نفسي في تلك الطريق

كيف أرى رفة الثغر وافتراره عن بسمة الفجر تضيء وتتوهج

كيف، تهمس النسمة بسر العطر، يسبق موكب الفتنة والجمال
لست أدري.. لست أدري كيف
تقول لي الصخرة القابعة تحت ظلال نخلة عجوز
مشيتها.. وقع خطواتها.. أسمعها قبل الغروب..

❊ ❊ ❊

كلها ذهبت.. تلاشت..

ولكن لست أدري.. لم سنابل القمح تذكرني بالجديلة من وهج الشوق، وفرحة اللقاء

ولم، هذه القطرات من الندى، على زجاج النافذة، تملأ عيني بالحسرة والأسى على الضباب بألوان قزح..

يلف.. أحلى الأيام..

❊ ❊ ❊

الليل العجوز.. وقلب خفوق
والفراغ..
الفراغ الساحق في المكان المهجور
وأمواج ماضٍ بعيد
وأصداء ضحكاتها الخافتة في وجه الفجر
وشعلة همس
ثم حريق وإعصار
حياة لحظة.. ثم الأعماق

في الليل العجوز للقلب الخفوق

* * *

والساعة العنيدة ما تزال تدق
والنجمة الشاحبة ما تزال هناك
وأغصان الشجرة ما تزال ترتعش
والكتاب مفتوح منذ أجيال
والصخر يتثائب
والانتظار ينسج بيت العنكبوت
والأمل يصارع الأمواج
والدرب مقفر نائم في الظلام
القلب وحده..
وحده في الظلام يسمع ويرى
يسمع وقع أقدام تقترب
ويراها
هي.. هي على الدرب الطويل

* * *

طارت الفراشة، وفي جناحها وخز شوكة من أشواك الورد
وأحست أن الوخزة في حياتها أكثر من مجرد وخزة..
كانت شيئاً يلاحقها أينما ذهبت..
حتى عندما تغفو، وتضم جناحيها، على سرير من فل وياسمين

* * *

في جوف الليل.. كانت وخزة الشوكة تقول لها شيئاً غامضاً
غامضاً، ولكنه مثير.. مدمر
ولا تهدأ الفراشة..
لا تهدأ على سرير من فل وياسمين..
على فراشها الوثير، تتقلب.. تسمع شيئاً غامضاً
ويطول الليل..
لله كم يطول
كأنه لم ير ضوء الفجر..

* * *

هذا القلق..
قلق الجمال الذي عرف الجمال في نفسه..
هذا الصخب تعبر عنه الفراشة بما يتلألأ ويضحك من ألوانها
على سرير من الفل والياسمين..

* * *

لم يغمض للفراشة جفن
ظل شبح الوخزة يلازمها وبكت الفراشة..
بكت.. لأنه لا شيء سوى الدموع تلجأ إليه الجميلة في أحزانها
واستقبلت وسائد الفل والياسمين حرارة دموع مخلوق، لم يعرف قط معنى الدموع..
وبكى الفل.. وبكى الياسمين..

* * *

ولم تقل الفراشة الحزينة شيئاً
ولكنها استروحت عزاء..
وقالت زهرة نرجس هناك.. كانت تسمع
علام تبكين؟

* * *

واستيقظ عصفور.. ليرى الفجر يترقرق بدنيا الورد في أحضان الأفق
واستطاعت الفراشة أن ترفع رأسها المثقل عن وسادتها من الفل
والياسمين وأن ترى مع الدنيا، أشعة الفجر تداعب جبهة الأفق..
وأعالي الأشجار
وكان صدر شجرة الورد هناك.. يتطلع إلى فراشة الأمس
وضحك الفل.. وضحك الياسمين
والنرجس فرك عينيه.. لا يصدق
والعصفور.. ملأ دنياه تغريداً
فقد كانت الفراشة.. تطير..
وترتمي على أشواك الورد..

* * *

دربي إلى الوادي الحبيب
أسير فيه اليوم
كما ظللت أسير في أيام صباي
وكما سار فيه قبلي أبي وجدي..
حتى أمي.. كانت تقص علينا حكايا صباها

هناك تحت السفح ـ حيث الظل عميق

وبقايا غدير

كانت تلعب مع لداتها وأترابها

والقطيع حولهن، ينتشر ويسرح على الحوافي المعشبة

إحداهن تكتشف بين العشب زهرة

صفراء كالذهب.. لها اسم..

سمعته من أمي وهي تقص حكايا الصبا البعيد

ولكني نسيت.. نسيت الكثير من أسماء الزهور التي تسطع هنا

وهناك، بعد هطول الأمطار..

* * *

دربي إلى الوادي الحبيب..

سرته يوماً إلى المدينة البعيدة

كان معي بعض الرفاق

كلنا صبية.. أصواتنا تملأ جنبات الوادي، وكل منا يتأبط

لفافة فيها كتاب ومع الملابس القليلة، قلم رصاص.. وورق

وفي القرية، بعد مسيرة ساعات، ركبنا سيارة..

وهطلت أمطار غزيرة ونحن في الطريق

وغاصت السيارة في الوحل

ومضت ساعات..

ودخلنا المدينة البعيدة..

دربي إلى الوادي الحبيب..

أسير فيه اليوم..

حقيبتي فيها الكثير من الكتب..

فيها هدايا..

والشهادة الكبيرة

شهادة النجاح

أتأملها كلما عن لي أن أفتح حقيبتي، في دربي إلى الوادي الحبيب..

وأعيش أحلى الذكريات..

ذكريات الليالي الطويلة،

ليالي الدرس والاكتشاف

اكتشاف العالم الكبير

الكون كله.. والحياة

ودربي اليوم إلى الوادي الحبيب..

* * *

الربيع يتغلغل في أعماقي

أخطو فتخضر الأرض تحت قدمي

في ظلام الليل..

في وحشته الباردة

أرى العصافير تغني..

أوتار الشمس تعزف ألحانها

حتى البراعم، تتفتح قبل موعدها

وخصل الطيب.. تعطر حتى الغمام

***

فرحتي تعبر الآفاق، على وهج الشمس تترامى
عبر نتف الغيم.. عبر الذرى الزرقاء
في تلك الجبال.. تطل ذاهلة على زبد الموج
ومع الصمت.. في الوادي.. وتحت ظلال شجرة التين
أسافر.. إلى ألف جزيرة بعيدة..
أسافر.. وبين جفني دموع.. لست أدري لم لا تنحدر على وجهي..

***

أتكلم بهمس.. وأعب من النور كعصفور
وفي خاطري رؤيا حلوة
خصلات شعر وحف كشلالات تتدفق من ينبوع مجهول بعيد..
على جبهة عالية.. عالية كالعزة والإباء في قلب فارس شهم..

***

ومع الصمت في الغابة
أسافر إلى ألف جزيرة.. إلى ألف جوهرة، على صدر البحر والأمواج
وليس هناك من يعلم أنك بين جفني
ليس من يعلم أنك سري العظيم الحبيب..
وليس هناك من يدري أني أبكي كلما أحدقت بي عيون الوحدة في الظلام

وأنت..

أنت وراء شباك أزرق صغير

أنت هناك.. أمل ما أحلاه..

ما أبعده..

وما أشد ما يضيء قلبي الصغير..

***

وفي تلك الجزر.. ربما في قاع بحر مجهول

هناك.. أراك.. يلفك ضباب..

ضباب إيماني، بشفافية الطهر والنقاء

ضباب، يتقشع، ويسطع محياك البري.. حين أذكر

تلك الأيام..

طفولة ما أسعدها، وما أجمل مراتعها وملاعبها

هناك، عند الساقية.. تحت شجرة التين..

***

كلا.. لن أحاول أن أبدد الضباب..

أنت خلفه.. خيال حبيب

خيال تلك الطفلة.. التي تضحك.. تقفز.. تعيد

على سمعي حكايا الجدة العجوز..

حكايا.. ما زلت أعيشها.. ما زلت.. ذلك الفارس على حصانه

الأبيض في عباءته الحمراء

وأنت.. ما تزالين.. في المروج الخضراء.. تنصتين إلى المؤذن

.. ثم كالغزال تركضين..
إلى البيت.. ليراك أبوك حين يعود..
كلا.. كلا.. لن أحاول أن أبدد الضباب..
كم همت على وجهي في البراري والقفار
وكم وقفت على ضفاف الأنهار، تحت ظلال الصفصاف والسنديان
بل كم تقاذفتني الأمواج، في طريقي إلى الشواطئ البعيدة
وعلى قمم الجبال، بين السحاب، وتحت قدمي يتشقق الجليد
عن عشب يتطلع إلى شمس الربيع.. كم مشيت ومشيت
كم همت على وجهي.. مع الفجر يلاحق أعقاب الليل الطويل
وكم ودعت الشمس، وهي تنحدر وراء الآفاق الزرقاء
وكم تنهدت وزفرت.. وتأوهت وتوجعت.. وعيناي تسبحان
في مجالي الحسن ومرابع الجمال..
ولكني رأيتها..
تلك التي لم أرها إلا بعد طول التسيار.. على غير انتظار
فما أتفه ما مضى من العمر، قبل أن أراها
وما أشد فقر الألوان والظلال والصور والمرائي، بل وحتى
الأضواء من الشفق الملتهب، كم هو باهت، ضئيل خامد
القدرة على الإيحاء، بعد أن رأيتها..
وكيف أستطيع أن أصفها بكلمات تنتحر مع كل نظرة إليها..
إلى محياها العبقري، وما أروع ما في النظرة إليها من معاني الطهر
والنبل والجلال..

إنها الحب طفلاً، يمرح في خمائل الزهر عند صفحة الغدير..
فرحتنا بلقائه تمنعنا من الدنو منه
سعادتنا في أن نراه يمرح، يطفر، يرنو إلينا بتلك
العينين، تأسرنا، تجمد حركتنا كلما لاح منها بريق البراءة
والدلال..
إنها هنا.. بين عيني
لا أستطيع أن أرى غيرها
مهما طال بي العمر.. في طريقي إلى الشواطئ البعيدة
تلك التي لم أرها إلا بعد طول التسيار.. على غير
انتظار..

❊ ❊ ❊

في قريتنا.. عند سفح ذلك الجبل الذاهب في قلب السماء
ليس أحلى ولا أجمل من ليالي الشتاء..
ليالي الشتاء حين يشتد زفيف الرياح، والسماء ترعد، والبرق
يتلامح من شقوق النافذة من خشب السدر..
نسمع مع الرياح حكايات من زمان..
يقصها علينا الشيخ العجوز..
جالساً هناك، في الصدر، مزملاً في عباءته البيضاء
وفي يده غليونه الطويل..
والنار تشتعل في أحد الأركان.. والشاي تدور به ربة الدار..
حكايات من زمان، عن الفتى الذي هبط مكة، مع الفجر.. وعاد

والليل لم وحيداً، يطارد الأشباح
رأى عيون الذئب، ويسمع عواءه من بعيد..
فيردد أبيات لأمرئ القيس..
وواد كجوف العير قفر قطعته
به الذئب يعوي كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى إن شأننا
قليل الغنى إن كنت لما تموّل
حكايات من زمان، عن قيس وليلى.. عن عبلة وعنتر..
عن شهرزاد وشهريار..
ويغفو الأطفال، وينفض السمر، ويذهب الشيخ في عباءته البيضاء وفي يده غليونه الطويل..
ونستقبل في بيتنا.. على سفح الجبل، زفيف الرياح، وصوت الرعد ونرى البرق يتلامح من شقوق النافذة.. فتغفو، في انتظار الغيث.. في الصباح..
وراء أنوار المدينة ظلام.. وفي الغرفة التي يرقد فيها أخوتها ظلام.. وفي طريق الحياة منذ يفيق الأخوة مع الفجر ظلام..
وامتلأ وجهها بالدموع.. وبكى أصغر أخوته، وهبت الريح تخترق شقوق السقف من الصفيح والنافذة من الخشب المهترئ، وأحسست الصقيع في عظامها ينخرها يهشمها.. يسحقها..

***

وفي الظلام مشت إلى الرضيع.. أخذته في حضنها وهي تمسح الدموع عن وجهها، وحين توقف عن صراخه.. رفعت وجهها إلى شقوق السقف من الصفيح، وعبر الدموع لم تر شيئاً سوى الشقوق.. ولم تسمع سوى صوتها وهي تهتف.. (يا رب)..

***

مع الليل..

وفي شباكها من خشب أكل الدهر عليه وشرب.. كانت ترنو إلى الأفق البعيد..

لم تكن ترى شيئاً، سوى هذه الأنوار تتلامح في المدينة وكأنها ضحكات ساخرة في وجه عجوز..

وراء الأنوار.. ظلام.. ظلام.. ابتلع حتى النجوم، وقمم الجبال الشاهقة التي كانت تشرئب شامخة تحت ضوء الغسق.

ظلام هناك في الأفق البعيد.. وظلام هنا في الغرفة التي يرقد فيها أخوتها الصغار..

أخوتها الصغار هم كل ما بقي لها من أسرة غادرت الأرض واحداً إثر الآخر في معركة ضارية مع الجوع، والسل، والتشرد والضياع..

***

أخوتها الصغار.. نيام هناك على الأسمال.. تحت سقف من الصفيح..

سيفيقون مع الفجر.. يطلبون الغذاء.. مطلب الحياة لأنهم ما يزالون أحياء..

في الصندوق، الذي ظل ينتقل معهم في رحلة الضياع

بقية من طحين وسمن ولبن مجفف وفي صدرها حفنة من نقود، وجدتها تحت وسادة أبيها الذي رحل منذ أسبوع، مع الراحلين إلى جوف الأرض..

❊ ❊ ❊

هذه الصحراء من حولي..
ما أشد ما تصر على الصمت
وعلى امتداد رمالها، ألف سر مصون..
يسافر فيها البصر إلى ما لانهاية
كأنها الأبد، جاثماً يتربص بالحياة..

❊ ❊ ❊

ما أقدرها على البسمة الحلوة عندما يطل الفجر من بعيد
يبدو لك وكأنها على موعد مع الشعاع
فلا تكاد تباشير النور تسطع، حتى تتألق فيها حبات الرمل،
ويهتز العشب اليابس، وتمتد له الظلال..
ولكن حذار.. حذار..
فتلك ابتسامة الأبد، جاثماً يتربص بالحياة..

❊ ❊ ❊

ما قل أن الغضون في ملامح الصحراء..
شباب دائم، نسيه الزمن على كر العصور..
وهذه الروابي التي تنهد هنا وهناك
ما أكثر ما تخفيه من أخبار الدهر..

لست أدري لم أشعر أحياناً، إنها تهمس
أصغيت طويلاً، ولم أفهم..
ولكنها لا تبالي..
لأنها الأبد، جاثماً يتربص بالحياة..

❊ ❊ ❊

وفي الظهيرة، والشمس في عنفوانها الساحق
كل شيء يتلظى
حتى النسمة الحنون تلتهب،
ولكنها.. هذه الصحراء
تظل تبتسم.. وروابيها الناعمة الملساء.. تظل تهمس..
لأنها الأبد.. جاثماً يتربص بالحياة..

❊ ❊ ❊

آهة من الأبعاد السحيقة.. في القلب المصفد بالأغلال..
أواه..
إني لأستيقظ مرتعداً..
الأمواج تهدر من حولي
والرياح تزأر.. تعول.. ترفع صوتها حتى السماء
وأنا في رحلة إلى الأبد
لست أدري إلى أين..
لست أدري..

❊ ❊ ❊

الأمواج تتواثب حولي.. تتقاذفني إلى أين؟
يتمزق الشراع.. تأكله الرياح الثائرة..
ولكني في رحلة الأبد
مع العاصفة التي لم تهدأ قط
مع الآهة من الأبعاد السحيقة في القلب المصفد بالأغلال
إلى أين؟
لست أدري..

❊ ❊ ❊

ولكن الأمواج تتقاذفني.. والشراع يتمزق.. تأكله الرياح الثائرة
والعاصفة لا تهدأ أبداً..
والشاطئ بعيد.. لا أراه
والآفاق يلفها الظلام
وأنا في رحلة الأبد
لست أدري إلى أين؟

❊ ❊ ❊

ها أنذا، مرة أخرى، فوق أمواج البحر.. والشراع المهترئ
تمزقه ريح غضوب..
ومع زبد الأمواج الثائرة ألف ضحكة ساخرة..
وفي الزرقة العميقة، أسرار أبد طويل
ومع الهدير المتواصل الرهيب..
قصة الضياع السرمدي

أصغي إليها منذ كنت هناك.. على الشاطئ في ذات يوم بعيد..
على الشاطئ المجهول بدأت حكايا البحر..
أصغيت إليها مع القواقع النخرة والأصداف
ما أروع ما كانت تقول، وما أعذب موسيقاها تتهادى مترامية
على الرمال والأعشاب..
قالت وما أكثر ما قالت.. من أخبار وأسرار..
وعزفت، وما أروع ما عزفت من ألحان وأنغام..
وارتفقت زورقي العتيق.. والشراع من خيوط الإمساء الذهبة
وانطلقت وراء الأخبار والأسرار..
وراء الألحان تعزفها قيثارة في الأعماق البعيدة..
وها أنذا، فوق أمواج البحر.. والشراع المهترئ من خيوط
المساء الذاهبة تمزقه ريح غضوب..
ولا سبيل إلى العودة..
وزبد الأمواج من حولي ألف ضحكة ساخرة..
فسأظل، إذن، من الزورق العتيق..
وراء الأسرار.. مع الأنغام.. تعزفها قيثارة في الأمواج..
أحلام.. رنحها اليأس وطول الانتظار..
من دمائها، لوَّنَ قزح قوسه الرائع في يوم مطير
ترامت هناك، على الصخور، يأكل منها الموج الصاخب في جنون..
ومع أنغام الليل.. ترنم بها مسحور بالحب..
أفاقت.. استيقظت الأحلام..

* * *

هذه الجبهة العالية.. ما أروع ما تشرق به من المعاني والأفكار والألحان..

أي شعلة من ضوء، تشعها في هذا الظلام الذي يعيشه الإنسان..

ما أروعها، وهي لا تخبو ولا تنطفئ..

بل أي شجرة مباركة هذه التي تمد فروعها، فتمتد لها أشد الظلال حنواً وما أكثر من يستظلون بها، دون أن يلقوا إليها أكثر من نظرة عابرة..

هذه الجبهة العالية.. كم من ليال سهرتها مع الألم..

مع الأحزان والأتراح.. مع أنين الثكالى، وبكاء الأطفال الجياع

مع الشعراء.. في أحلامهم وشقائهم..

مع العشاق.. في دنيا الحب..

دائماً تشرق بالمعاني والأفكار والألحان..

دائماً شعلة في ضوء في ظلام الحياة..

دائماً.. دائماً.. هذه الجبهة العالية.. جبهة الساهر على خير الإنسان..

❊ ❊ ❊

لم تعد، والباب مغلق، غامض وراء أحداث الزمان

من يدري أين أنت، في هذه الساعة من الليل؟

حتى وقع الخطوات على الرصيف، لم يعد له وجود..

طفلنا الحبيب، يتقلب في فراشه، أحياناً يهمس، بابا

أنت دنياه، دنياه.. ولكنك لم تعد.. والباب

مغلق صامت رهيب..

***

ما أكثر ما يضطرب قلبي حين تخرج في الصباح سعياً وراء لقمة العيش..

أين هي هذه اللقمة في المدينة الصاخبة بالصراع؟

من فك أي أسد تنتزعها يا ترى..

تأتينا بها حين تعود، لها طعم الدم ورائحة الحريق

دمك هو الذي عجن به الرغيف.. وروحك هي التي أنضجته يا دنيانا.. يا زوجي الحبيب..

***

هذا وقع أقدامك.. خطواتك الخفيفة المسرعة على الرصيف ولكن.. ما بالها تتلاشى في الصمت الرهيب..

عجباً كيف أخطئ السماع.. كيف تتلاشى خطواتك.. كيف يظل الباب مغلقاً وهذا الليل غبي لا يجيب..

طفلنا الحبيب يفرك عينيه بكفيه الصغيرتين.. يهمس بابا وأنت، من يدري أين أنت في هذه الساعة من الليل؟

***

وقد جئت أخيراً.. لا أدري كيف رأيتك أمامي.. دنياي أمام عيني، تضحك لدموعي، لفرحتي باللقاء..

ولقمة العيش، الخبز والجبن، وحفنة من نقود

ما ألذها لقمة يا حبيبي.. فيها طعم الدم ورائحة الحريق

دمك هو الذي عجن به الرغيف، وروحك هي التي أنضجته،
يا دنياي يا زوجي الحبيب..

❊ ❊ ❊

في ربيع شبابي كنت أحيا كالزنبقة على ضفاف الحياة..
وعلى صفحة النهر، كانت تمر زوارق الصيد، تتدلى وراءها الشباك،
لطالما هتف الرجال.. أين أنت من اللجة الصاخبة؟
هنا، القلب، ينبض بالحركة، والأعماق ملأى بالأسرار.
ومن لا يحسن السباحة والغوص، يستطيع أن يستقر في الأعماق
حيث الحنان يحتضن الطموح، ولكن.. في ربيع شبابي
كنت أحيا كالزئبقة.. على ضفاف الحياة..

❊ ❊ ❊

وعلى الضفة المقابلة ـ ما أبعدها على الزنابق البيضاء ـ كانت
حقول القمح مثقلة بالسنبل تتألق عند الغروب، نهراً آخر
من ذهب..
أسراب الطير، تتلاحق هناك، وتغريدها الحلو، يترامى من بعيد..
لطالما قال لي عصفور شقي.. أين أنت من حبات القمح.. أين
أنت من كنه الحياة..
هنا، الحقل، يموج بالرزق، وفي أحشاء الأرض ألف سر عجيب
ومن لا يحسن التحليق، يستطيع أن يمشي.. أو حتى يزحف،
فالحقل مليء بالديدان..

ولكني.. في ربيع شبابي كنت أحيا كالزئبقة، على ضفاف الحياة..

* * *

ومرت الأيام..

كان لي زورق وشراع.. طفوت بهما على سطح النهر..

وفي حقول القمح، مشيت.. ورأيت الديدان تزحف

على الأرض السمراء

واليوم ألقى عصا التسيار

مرة أخرى على ضفاف الحياة..

دودة.. دودة حقيرة تزحف، ولا ترى غير الطين..

وزنبقة بضة هناك تقول: أنا الربيع

وأسمع نفسي أقول: أنا الشتاء..

* * *

هدير الأمواج والصخرة على حافة الهاوية.. والليل الطويل..

ومجلسي هنا منذ الغروب..

وحيداً، كشبح شردته العاصفة

لفظه البحر.. وتجاهلته الرمال

حتى النجوم اختبأت وراء الغمام

والقمر ما يزال يتسكع وراء الجبال

كأنه يعلم أني هنا وحيد..

ولا شيء سوى هدير الأمواج، والصخرة على حافة الهاوية..

والليل الطويل

والقلب، وحده يبكي، يرتعش كالعصفور في ليالي الشتاء..
يغني الذكريات البعيدة
ذكريات الدفء الحنون
ذكريات الفرحة الهامسة بأسرار صغيرة
والضحكات الخافتة، مع لهفة اللقاء
والصخرة على حافة الهاوية.. فردوس حب وآمال
وهدير الأمواج، حكايا الدهور
والليل، هذا الليل الطويل.. ينساه الزمن، في دنيا الأشواق..

* * *

مجلسي هنا منذ الغروب
في انتظار ليس وراءه لقاء
والقلب وحده يبكي..
يغني الذكريات..
مع هدير الأمواج
والصخرة على حافة الهاوية
والليل.. الليل الطويل..
على الشاطئ.. والرمال بساط من حرير، غسلتها أشواق الموجة الطافرة..
كانا هناك.. حلماً، رسمته ألوان شفق صاخب بالذهب واللهب واللازورد..

كانا هناك.. على الشاطئ الأزرق، وعلى الرمال الدافئة والشمس الغاربة ترمقهما.. ترنو إليهما سعيدين كطفلين، مرحين كزبد الموج..
كانا هناك.. في ذات يوم ذهب مع الأيام..
ومرت أعوام وأعوام..

وعاد هو.. إلى الشاطئ، والرمال بساط من حرير، غسلتها أشواق الموجة الطافرة..

عاد وعلى ظهره عبء ثقيل.. أعوام العمر الذي مضى، وبين عينيه ذكراها وفي سمعه رنين ضحكاتها.. وهذه القواقع التي تسرع كلما لاحقها الموج، كم كانت تخيفها.. تضحكها.. كم كانت تهرب منها..

أين هي اليوم؟
ومشى يذرع الشاطئ الأزرق، وعلى ظهره عبء ثقيل.. أعوام العمر الذي مضى.. والذكريات.. كل ما بقي له منها.. رنين ضحكاتها .. والقواقع يلاحقها الموج.. والشمس الغاربة ترمقه.. ترنو إليه حزينة وراء الغيوم..
وقضيت الصيف.. وأطل الخريف.. وبقيت وحدي في الجبل..
وحدي في الجبل..

أستصلح روحي
أطالع الفجر إذا تنفس
وأمضي مع الشمس الغاربة
إلى بعيد وراء الآفاق
أسامر الغيوم.. وأسامر النجوم..
آنس بالأشجار الشامخة الوقور..
يرفرف حولها الفراش
مثنى.. مثنى
وتتناغى العصافير.. في طمأنينة الواثق أن لا صياد
والصرصار الثرثار.. يملأ الفضاء بنشيده المكرر الرتيب
وحدي.. وحدي
في فراغ سحيق عميق
خصب بالجمال.. والجلال.. والخيال..
وحدي.. أجل وحدي
ولكن مع الله..